كولونيل الزبربر

الحبيب السّائح

رواية

دار الساقي

صدر للمؤلف

زمن النمرود، رواية، (م.و.ك)، الجزائر ١٩٨٥.

ذاك الحنين، رواية، CMM، الجزائر ١٩٩٧، طبعة ثانية، دار الحكمة، الجزائر ٢٠٠٧. (ترجمت إلى الفرنسية).

تماسخت، رواية، دار القصبة، الجزائر ٢٠٠٢، طبعة ثانية، دار فيسيرا للنشر، الجزائر ٢٠١٢. (ترجمت إلى الفرنسية).

تلك المحبة، رواية، منشورات ANEP، الجزائر ٢٠٠٢. (ترجمت إلى الفرنسية).

مذنبون، لون دمهم في دمي، رواية، دار الحكمة، الجزائر ٢٠٠٩. (ترجمت إلى الفرنسية).

زهوة، رواية، دار الحكمة، الجزائر ٢٠١١.

الموت في وهران، دار العين، القاهرة ٢٠١٣.

الحبيب السّائح

كولونيل الزّبْرَبَر

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمًا بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٥

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٦

ISBN-978-614-03-0012-5

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

إلى مَن،

لأخيا حراً، وَهبَت

مِن رحِمها

جيشَ التحرير

جندياً وشهيداً؛

أمي.

"وحدَهم الموتى شهِدوا نهايةَ الحرب"

أفلاطون

ما يلي ليس خيالاً.

إنه واقع مخيَّل؛ غير أنه أحياناً يُفلت من كل تخييل ليبلغ درجة النبوءة.

مقاومةً للنسيان

الفصل الأول

١

ها إني، هنا في بيتي في رڤان، مستلقيةً في السرير، منتظرةً عودة حكيم من مداومته الليلية، يَغمر سمعيَ، مرة أخرى "كونوا أنتم. كونوا، لهذه الأرض، هؤلاء الرجالَ الذين يحفظون الشرف". أُقْفل إحساسي على صورة والدي – كولونيل الزبربر، كما يُلقَّب، في لحظة عكوفه على كمبيوتره فوق ركبتيه، وقد انتظرتُ يومها أن يستدير إليّ ولو مرة.

فمكوثي في وضعية أملٍ أن يفعل ذلك كان تَحول رهاناً فشلتُ فيه في النهاية. لكنْ كان يسكن قلبيَ يقينٌ أنه يحسني في ظهره. فمن شرفة الغرفة المطلة على الجنِينَة كنت أتابعه، بحنين غامض. كان بين حين وحين يتوقف عن الرقن ويلقي برأسه إلى الخلف في اتجاهي.

ذلك، كان أمسى لديه شبه صلاة موقوتة منذ أيام، منذ عودتي من رڤان في نهاية شهر جويلية الماضي لعطلة؛ ولا بد من قبلُ أيضاً، مذ فقدَ أمي. كان يكتب مقاومةً لفراغ يحاصره، يستنزفه. إني واثقة من الأمر.

ثَمةَ، إذ قام من كرسيه الطويل، حاملاً كمبيوتره، تصوزته أسداً متعَباً، يكون هو أحس ذلك، لن يلبث أن يشق طريقاً إلى اختفائه. ضغطت خديَ براحتيّ "يا لك من أب عنيد!".

فإنه لم يرفع إليّ رأسه لما كان سيدخل من باب الدار المفضي إلى الجنِينَة. تمنّيت أن يفعل، وفي عينَيّ رقرقة. كان في ثياب صيفية ذات بياض منكسر: قميجة نصف كُمّ مطلقة فوق سروال من نوع الخيط وحذاء فَتيلة.

كان يستشعرني. كان يشمني. أعلمُ ذلك بالحدس. إني نظفته. أما رائحته هو فلم تبرح مشمّي، مذ كان ضمّني مرة ثالثة إلى صدره صباح سفري الأول إلى الصحراء، قبل ست سنين، هامساً لي في أذني "طاوس، فخلتي! لن أخاف عليك"، فطمأنته، لأن أمي قبل ليلة كانت قالت لي ذلك بالحرف "حكيم، ابن عائلة". ومرة أولى في عتبة الدار عشية نجاحي في مسابقة الإقامة للتخصص في طب الأطفال "أنت فخرٌ لأب مثلي. أهنّيك يا صغيرتي. مسار دراسي استثنائي حقاًّ!" وثانية يوم خروجي من البيت عروساً "نعم، فلْتة من باية! أنت أجمل بنت يحبها أب في هذه الدنيا".

فبدموعي كنت قبّلته "أنا وياسين أثمن ما يمكن لك أن تهدي هذه الأرضَ إياه. شكراً لك يا بَابَا جلال

السخي. وشكراً لباية مامَانا الحبيبة"، ملتفتة إليها واقفة في أبّهة أميرة أمازيغية وسط العائلة والضيوف "سلطانة أنت!" ثم متفجّعة لنفسي "إلا أنت يا جدي مولاي!" فإنه كان قد أخلفه مرضه.

فمن نافذة السيارة كنت نظرت بدمعتين إلى والدي، كأنه جدي، في برنوسه الوبري فارساً هماماً نزل للتوّ من على حصانه، وبجنبه العمة ملوكة. كان ياسين، في بدلة زرقاء ليلية، أعطى ضاحكاً إشارة انطلاق الموكب بطلقتين من مسدسه وركب سيارته.

الآن، لا أجد وصفاً لقلبي المعذب على فقْد شقيقي ياسين، كما كلما تذكرته، سوى إحساسي أنه أُخرج من صدري وأُلقي في لهيب جمر. والله وحده، كما أشعر، يعلم الذي لا يزال والدي المكابر يَكظمه تجاه محنته في شقيقي، كما الذي كابدته أمي؛ أمي سثري الذي عصفت به ريح الموت، في عز حاجتي إليها.

خلال تلك العطلة التي تقلّصت كغفوة، لدى جلوسي إلى مائدة الطعام، لأول عشاء حضَرتُه، كنت تابعت بريق نظرات الوالد – كولونيل الزبربر، كمنارة بحرية حزينة، بحثاً في وجه حكيم، قُبالته، عن أمر أنا الوحيدة المقتدرة على كشفه؛ فإنه كان يرى فيه ملامح ياسين. قلت له ذلك إذ صعدنا إلى غرفة نومنا. كنت أعرف، حتى ولو لم يطمئني بهمسة "سأكون له الابن الآخر"، أنه

يكن لوالدي توقيراً بدرجة التبجيل "لعمّي جلال قوة جذب سحرية لا يستطيع معها الشخص إفلاتاً".

فأنا، كما حكيم، لم نَغمر فحسبُ من حول الوالد – كولونيل الزبربر فضاءه الذي بات يَهوله الفراغ ولكنّا أجلينا عنه أيضاً بعض ظلمة عزلته؛ فوددنا، لذلك، لو أننا بقينا قزبه. فما من حركة منه والتفاتة أو كلمة وإشارة تجاهنا إلا كانت على هشاشة لافتة. حكيم كان أفصح مني. قال لي صراحةً "يجب أن نسعى إلى الحصول على نقل إلى العاصمة"، فأجبته "فوْزَ انتهاء مدة الخدمة المدنية." كنت أحس كلمات حكيم الأخرى، التي لم ينطقها، مرت على لسانه. قلت له فحسب "إن لم يكن الرصاص قد قتل الوالد فهذه العزلة هي التي ستدمره".

من الشرفة، إذاً، كنت أرسل نظراتي بحنين شاجن على الكرسي الطويل، يرنو إلي فراغُه، لما تناهى إليّ "طاوس، تعالي!" فسارعت أنزل، متوقعةً أنه سيقول لي إنه كان يعرف أني كنت أزقبه من الشرفة.

وجدته في المكتبة واقفاً ينتظرني. رازَني بعتاب عابر، كأني تأخرت عنه. سلمني بشماله مفتاح "فلاش ديسك". نطق "تجدين فيه ملفاً واحداً مهمّاً". وتبسم "ذلك ما يمكن أن ترِثيه مني"، وأمال عينيه نحو الكومبيوتر "أفرغثه!" ثم تبسم بسمة أطول "غسلت مخه!" ووضعه على سطح المكتب. كنت أستطيع أن

أرى ثلاث صور فوقه: أمي باية الهائلة الشباب، شقيقي ياسين بهدوء البحر، وأنا كما أحببت أن يراني هو، الوالد – كولونيل الزبربر.

أخذ شِمالي في يمينه "طاوس، غداً ترافقينني أنت وحكيم إلى أكاديمية شرشال". ملت برأسي على كتفه، تُثقلني الغبطة. سألني: "هل أنت سعيدة؟" نطقت، بلا تردد: "جداً، يا بابا!" لأني تذكرت أني كنت أجبته بثقة طفأنت عينيه الوجلتين "حتى ولو لم يتخصص مثلي، لظروفه العائلية، فهو من أحسن زملاء دفعته في الطب العام"، فإن حكيم، بعد أن فقدَ والدُه منصب عمله في شركة وطنية، لإفلاسها، اضطر إلى الانقطاع للعمل كي يتكفل بأسرته إلى أن وُظف أخوه البكر.

هنا، في رقان، كنت فتحت الملف؛ ليس لأنه كان عليّ أن أحضّر عودتي، فأجّلث المسألة، ولكنْ لأني لم أكن أملك الشجاعة على أن أفعل ذلك في حضرة الوالد – كولونيل الزبربر هنالك في الجزائر؛ فَظلُّه كان يَحفل به أدنى ركن في بيتنا. كنت أشعر أني لن أستطيع أن أرفع إليه عينيّ فأجده بمثل هذا واجهني "أجل، أنا هو ذاك الوالد الآخر". فقد قدّرت أن أخذ تلك المسافة يحفظ لبوحه كل لذّته.

فتحتُ الملف برعشة أحسستها لجزيئات رمل منفوثة من فم عاصفة أصابت بشرة جسدي؛ كنث جرّبت ذلك

عارية مع حكيم في قمة عِزق عين بودة، غربي أدرار "ليس من مطهّر للجسد من قذى المدينة مثلُ الرمل هنا. تعرّ. تعال. أغمض عينيك فحسب. دز حول نفسك. ستحس ألف زخة واخزة في اللحظة. إنها الدغدغة المقدسة!"

للحقيقة، فإني فتحت ملفين؛ كان الثاني يحمل هذا التنبيه "تصورت دائماً أني تركت جمجمتي ورائي في جبل الزُّبَزبر فعثر عليها شاعر "راسْ بَن ادمْ"[1] فكلّمَها. كنت، وأنا أسجل ما قد تقرئينه، أستمع لصوت الباز غمر الملوّع بحرقة سؤال الموت عن الحياة. أعرف أنك ستقْرِنين القراءة بالسماع".

1 قصيدة من الشعر الشعبي (الملحون) مشهورة في الجزائر. تنسب إلى أكثر من شاعر؛ أشهرهم: لخضر بن خلوف.

"جيث نسالك ونْتَيَا ترذ جْوابي حشّمْتك بالله
كلّمني"

٢

ليست فحسب مسئولية؛ كنت أحسها أمانةً أن أنزِّل الملف، بارتباك، بهشاشة وبخشية أيضاً، ليكون شهادة على ما نهبثه من تاريخ رجال الشرف أنانياتُ الساسة وزحزحثه حساباتهم إلى عراء النسيان. فها ذاكرتي، كما جيلي بأكمله، تَلْطخها حماقاتُهم المتعاقبة منذ خمسين عاماً.

كبخار، تَحوّل هيئة بشريةً كما في أي خرافة، تَمثل لي كولونيل الزبربر من بين الكلمات فملأ عليّ شاشة حاسوبي. لم أستعذ. ومن خلف شبحه، سمعتُه. هو صوته، صوتي أنا، صوت من يشعر بنفسه في غيهب تاريخه المنسي. أحسست ذاتي راحت تتوارى هنالك بعيداً، بعيداً.

ففي صبيحة الخامس جويلية ١٩٦٢، وقد شارف الابن جلال، الذي سيصبح والدي، الاثني عشر عاماً، كان مولاي الحضري الأب، الذي سأكون حفيدته، رجع إلى البيت العائلي في قرية الحاكمية غير البعيدة عن مدينة سور الغزلان (أومال، سابقاً) بكنية بوزڤزة.

كنيةً، صرتُ أعرف أن جدي قُلّد إياها خلال حرب التحرير، نسبةً إلى الجبل الصخري ذي اللون الأزرق:

زَقْزَة، كما في اللغة الأمازيغية. ثَمة، في مرتفعاته، كان حقق، ضمن "كومندو عز الدين" وكتائب الولاية الرابعة[2]، نصراً فائقاً على مظليي الجيش الاستعماري في شهر أوت ١٩٥٧.

2 تقسيم الجزائر، خلال حرب التحرير، إلى ست ولايات، على رأس كل واحدة قائد. الولاية الأولى: الأوراس. الولاية الثانية: الشمال القسنطيني. الولاية الثالثة: القبائل. الولاية الرابعة: وسط الجزائر. الولاية الخامسة: الغرب الجزائري: الولاية السادسة : الصحراء.

عن المعركة، التي دامت ثلاثة أيام، كانت جريدة باريسية شهيرة ستكتب في اليوم التالي ما أسمته إفلاس أربعة جنرالات على رأسهم ماسو في مواجهة كتيبة الفلاقة[3]، مخلفين وراءهم عشرات القتلى في جبل بوزقْزة، حيث بلغ القتال حدّ الالتحام؛ الشيء الذي لم يكن متصوراً أبداً؛ فيما خسائر الفلاقة مختلّة التناسب قياساً إلى عُدة الجيش الفرنسي وعتاده ودربة عساكره المدفوع بهم في الميدان؛ متسائلة كيف يستطيع قادةٌ، هم أصلاً "أنديجان"[4] لا تكوين لهم، أن يخططوا لأن يكون الاشتباك متقارباً بين الطرفين حتى يَحول ذلك دون تدخّل الطيران ومدفعية الميدان! أفهي بداية لنقر النواقيس؟

3 مفردها فلاقي (بتشديد اللام). وصف أطلقه الجيش الاستعماري الفرنسي على جنود جيش التحرير الجزائري.

4 وصف وضيع أطلقه المحتلون الفرنسيون على سكان الجزائر الأصليين.

حسب الوالد – كولونيل الزبربر، فإن الجد مولاي بوزقزة، اختير من الولاية الثالثة ليكون ضمن "كومندو عز الدين" في تلك المعركة، ليعود بعدها مرة أخرى إلى الولاية الثالثة نفسها برتبة ملازم أول، بتذكارات كان لا بد لها لون الدماء التي امتزجت بزرقة تلك الصخور.

أستشعر القدرة في نفسي على أن أزعم، ولو كان الوالد لم يذكر ولا الجدّ اعترف، أن كنية بوزقْزة التاريخية، مثل بقية الكنيات الآخرى، قد سلب النسيانُ زمنَ الحرب إياها. نسيانٌ جرّد أيضاً جنودَ جيش التحرير من ألقابهم وألبستهم وأسلحتهم وصورهم وآثار مسالكهم ومواقع معاركهم وأمكنة استشهادهم ومما كان من خالص حياتهم في أقسى ظروف الاحتمال البشري لاستعادة أرض الآباء. ألذا أفْرَد الوالد – كولونيل الزبربر صفحة المدخل لهاتين الكلمتين "مقاومةً للنسيان"؟

الآن، أمكنني أن أعرف أن جدي مولاي بوزقزة نزل، إذاً، من الجبل برتبة ضابط ثانٍ: نقيب، قبل نصف قرن. وقبل تسعة وأربعين عاماً، كان والدي جلال دخل مدرسة أشبال الثورة فأكْسبته حياته العسكرية الميدانية لقبَ كولونيل الزبربر؛ رتبة سامية رُقّي إليها قبل ستة أعوام بذلك النعت؛ ليس نسبة إلى لقبنا

العائلي ولكن، كما أشاع ذلك عنه جنودُ فصيلته وسجله الجنرال نعيم رزاز ذاتُه في تقريره، لكونه "أول من اخترق حواجز الجماعات المسلحة ونصب لها الكمائن وفكك أشيجة ألغامها المزروعة واخترق تحصيناتها في جبل الزبَزبر وقاومها بكفاءة قتالية. فاستحق بشرفٍ رتبة مقدَم، وقبلها رائد".

فأنا، كما أمي، حتى ولو لم نكن سمعنا ذلك، خلال عشائنا، من فمه لدى عودته من مراسم تقليده رتبته الأخيرة - ياسين كان في مهمة، فإننا تواطأنا بالسكوت على صمته الناطق بأن التنويه تجدر به قتالية جنود فصيلته وفصائل أسلاك الأمن الأخرى. ثمةَ سرقتُ نظرة إلى عيني أمي، المنجذبتين إلى شفتيه الرقيقتين المرتفعتي الزاوية، فأضاءتا لي قبساً من حبهما الآخر الخفيّ.

في لحظات فراغي، مستعيدة هذا المشهد أو ذاك مما قرأته، غالباً ما ناجيت روحي بأن الوالد - كولونيل الزبربر إن كان تحدث عن شخصه بنَزْرٍ، وعلى حذر كلسيّ، فإنما لا ندماً ولا تبكيتاً بل حزناً؛ فعظُم لذلك في ضميري صمتُه.

فها هو كولونيل الزبربر، كما كتب، وسط الفراغ، ساكث ساكن على كرسيه الطويل هنا في جنِينة الفيللا - يُخشى أن يعتقد الذي يسمع كلمة فيللا أنها تشبه أو

هي تساوي بقية الفيلات المجاورة في حي يوصف بالراقي في أعالي العاصمة إذ هي لا تعدو كونها أحد المنازل القديمة ولكن الجميلة التي أصبحت عقب الاستقلال تابعة لأملاك الدولة الشاغرة تم التنازل له عنها بالدفع المقسط، بعد زواجه، مكونة من طابق أول فيه حمام وثلاث غرف بثلاث شرفات إحداها مطلة على الخليج والثانية على غابة الصنوبر والأخيرة على الجُنينَة، ومن طابق سفلي يحتوي مطبخاً وصالة وبهواً وغرفتين، حوّل إحداهما إلى مكتبة، ودورة مياه وقاراج، ومن حوش واسع يغطي ثلث المساحة داخله الجُنينة، حيث يجلس صيفاً إلا نادراً، تحت شجرة مسك الليل تنتظر دائما تخييم الظلمة كي تنثر عطرها، لابساً غالبا بزته الرسمية: ميراثه من وزارة الدفاع؛ فإنه ما حلّ عليه الخامس من جويلية إلا ظهر بها وبشارة الرتبة، كما الآن في هذه الذكرى الخمسين، كما في مهمة أو خلال اشتباك مسلح، كما كان قبل ثلاث سنين إلى الوراء في الثكنة، كما قبل عام في البيت، هنا. هكذا، من غير تفلسف عن السبب "أحسّ رغبة في أن أظهَر بها لمن قدموا دمهم فدية لتستمر الجزائر فتطمئن أرواحهم السابحة في الأثير فوق رؤوسنا"، مثلما أجاب باية، إذ انشغلت له قبل ذكريين "أحب أن أراك بها. ولكن، ألم يأنِ لك أن تستريح منها؟"

لا بد أن أعزو، ما أجبر الوالد – كولونيل الزبربر على سرد ما جعله الزمن القاهر من حياته تبعثرات يصعب إعادة ترتيبها في الذهن، إلى ضغط صرخته المحتبسة في روحه بفعل آلامه؛ كلِّ آلامه. إنها حال شبيهة بحالي الآن؛ لا أدري كيف أصرخ في وجه الحماقة. إني أدرك أنه يصعب على ضابط سامٍ مثله، قياساً إلى ما مضى من تلك الحياة، أن يفصل لحظة عن أخرى، كعزل عنصري الماء؛ فتلك هي المعضلة: تذكاراته مهما يبدُ بعض عناصرها قد فُصل، لهذا السبب أو ذاك؛ لِما تفرضه غالباً هذه الرقابة الذاتية المشقية الناخرة، فإنها تغمرني كلها؛ إني أتخيلها.

وإذ تلك الأحداث تتباعد عني مسافة، يجرفها تيار النسيان، تتراءى لي وقائعها، المنتقاة للتاريخ الرسمي، ثُبّتت علامات لذاكرتي وكليشيهاتٍ لعينيَ بكامل التشوّه لحقيقة حرب تحرير كانت قاسية، لخيبة استقلال لم تفتأ قاتلة؛ إنها حال الوالد – كولونيل الزبربر، حالُ والده، جدي مولاي بوزقْزة مثلما استحق ذلك لأنه كان كغيره من جنود جيش التحرير أشبهَ بالجبال في صمودهم؛ إنها حالُ جيلي الصارخ بِتَوهانِه أن يعاد إليه تاريخ آبائه.

"هذا وطنْك ولّا جيتْ برّاني[5] يا راسْ بنَ ادمْ للهْ كلّمني"

٣

يذكر كولونيل الزبربر أنه في تلك الليلة التي سبقت عودة أبيه مولاي بوزقزة، رأى هو الطفل زندَ أمه الأبيض كما لم يره يوماً من قبلُ إذ مدت يدها إلى المصباح البترولي من نوع كانكي، قزب رأسها على مائدة خشبية صغيرة، في حجرة نومهم، بدار الجد سي المهاجي هنالك في الحاكمية؛ دار كانوا رجعوا إليها قبل شهر إثر استكمال دراسته بنجاحه في مسابقة السنة السادسة. وأدارت، عكس عقارب ساعة، زر الفتيل حتى اختناق شعلته داخل الزجاجة "حبيبي جلال، نمت؟" ودعكت يده الصغيرة في شِمالها الطرية الممتلئة "غداً يرجع. قالها جدك. غداً". كان يشعر أنها تعرف أنه يسمعها.

عطرها، تلك الليلة، ممتزجاً برائحة الفرّاشية الصوفية، هو ما هز خاطره، الآن، بدمعة مؤجلة من لحظةِ أنْ قزفص وحيداً عند قبرها بعد أن رشّه بدلو من ماء الدفن، قبل عشرين عاماً، ورجع على عجل إلى العاصمة لاستقالة رئيس الجمهورية في شتاء ذاك العام ١٩٩٢ الأسود.

ملوكة، عمة كولونيل الزبربر، لأنها صارت حميمة أمه، رقية، هي التي كانت قالت له "مذ وصل خبر عودة أبيك

الوشيكة لم تستطع أمك الوقوف على رِجلين. عجيب، كم كان قلقها جميلاً!"

كانت روث له ذلك يومَ حفل عقيقتي.

إنه يذكر أن قلبه رعش إذ ضغطت باية على يده عند العتبة يوم نقله إلى تِندوف بمنطقة الناحية العسكرية الثالثة؛ شادة على توترها كما أمه، رقية، في تلك الليلة "اليوم، تصيبني حسرة على أن والدتي غادرت من غير أن تدري، فأنا لم أبح لها أني كنت أسمعها وأتحسس شوقها، أن ذلك أمسى من أسراري الصغيرة الأخرى عنها".

ليلتَها، كان الطفل جلال، وهو يغالب نومه، تخيل لأبيه وجها، كالذي وصفه له الجد سي المهاجي غداة إعلان وقف إطلاق النار في ١٩ مارس ١٩٦٢؛ وصفٌ أضاء له في عتمة الحجرة "إن ماتوا حسِبتَهم يبتسمون مبتهجين بلقاءِ انتظروه. وإن رجعوا رأيتَ وجوههم لملائكة يمشون على الأرض!" فرأى نفسه تَحوّل إلى وجه أبيه مولاي ملاكاً يخرج من نور شمس، كتلك التي تشرق من خلف جبل الزبَزبر.

كولونيل الزبربر يسترجع، وذاك أمر غريب جداً، كما يقول، لم يساوره من قبلُ قَط، أن وجوه كثير من رفاق والده مولاي النازلين من الجبال بالبزة والسلاح إذ وطئت أقدامهم شوارع المدن والقرى في استعراضات

النصر تلك وسط مدّ بحار من الزغاريد والهتافات والدموع وخفق الرايات وأصوات الأناشيد وأبواق السيارات وإيقاعات آلات النقر والنفخ والنحاس والوتر الموسيقية، كانت كأنها فعلاً مما تخيّله لصور ملائكة، حطهم الله آية، سرعان ما راحت، مع جزْر الأفراح، مثل أقنعة زينة، تتذاوب لتسفر عنها حقيقتهم البشرية.

كان، كأطفال الاستقلال في قريتهم والآخرين كلهم، حمل راية النجمة والهلال وهتف: "تحيا الجزائر!"

بعد أكثر من أربعة عقود من ذلك، كان سيجد والده مولاي على غير ما كان رآه عليه بالدهشة الأولى يوم نزوله من الجبل، لم يستطع، كما خالَه، أن يحفظ لوجهه، إلى آخر يوم له في مستشفى عين النعجة، تلك الصورةَ التي علِقت ذاكرتَه، مثلَ مئات الآلاف من الجزائريين، عن المجاهدين الملائكة "هناك مسخ عظيم طال كل نفس". هكذا نطقها له ببرودة، بحسرة؛ بلسان عليلٍ أوهنته أعراض سقَمه. وها هو يذكر أنه سلّمه، عند باب مدرسة أشبال الثورة التي كان نقله إليها، صورة له في لباس الجندية وسط الغابة؛ غابة الزبَزبر نفسها حتى لا ينسى، كما يعتقد.

وكان والده مولاي أجابه "الشهداء وحدهم تُبدّل وجوههم إلى هيئة ملائكة لأنهم لا يموتون" لما سأله في يوم من أيام عطلته الربيعية في سنته الرابعة في

مدرسة أشبال الثورة لما ذا تغير كثير ممن عاهدوا على ألا يخونوا الأمانة، وكان يَضيق بأسئلة أخرى ترسبت في ذهنه من هذه الأحاديث الليلية التي كانوا يتبادلونها، هم الأشبال الذين يحمل كل منهم مخزوناً من التذكارات الأليمة، أيضاً، وكمّاً أكبر من الصور والمشاهد والحكايات عن جنود من الأقارب أو الجيران من المتزوجين منهم خاصة أولئك الذين بدلوا نساءهم أو أضافوا إليهن والذين استولوا على سكنات ومحلات وعلى أراضٍ أيضاً والذين بسطوا في دواويرهم ومداشرهم نفوذاً لا يختلف عن سيطرة القياد[6] والشنابَط[7]، ومَن تولوا المسئولية في الإدارات والمحاكم ومخافر الشرطة، فلم يختلفوا عمن كانوا فيها من قبلُ سوى في الأسماء.

6 مفردها قايد. حاكم مدني من الأهالي تعينه الإدارة الاستعمارية على رأس قبيلة أو منطقة.

7 مفردها شنبيط. عون تابع للإدارة الاستعمارية، في الأرياف، يراقب ويخبر.

ذلك ما ظن كولونيل الزبربر رآه، على الأقل، في بعض من صاروا، من أولئك المجاهدين، ضباطاً سامين في تراتبيّته العسكرية.

"ياذا الراش لْباقي فِي بْلاذ القفْرَه ندعيك للجواذ

لْخالق لْقيُّومْ"

إنه يقول إن ذهنه يخلو من أي تصور يُريه العمة تُزايد؛ فهي قليلة الحديث مختصرتُه إن تكلمث. وإنه ظل يعتقد أنه إن كان هناك أحد يتجاوز حرجه في تأويل كلامها عن حميميات أمه رقية، كما تكون فعلاً قاسمَتْها إياها، فإنه هو لا غيره. وإنه من ذلك لَمُوقِن: حبٌّ كبيرٌ لا بد يضيق به صدرٌ لا يجد من يبثه حرائقه ولذائذه.

أمي، أنا، لم تجد غيري؛ حتى ولو أن مساحة هامشي معها كانت ضيقة جداً، كما في كل علاقة بين أم وبنت حين يتعلق الأمر بأمور الغرام، المحسوس منها وما يستدعي الإيضاح.

ويقول إن رقية تكون باحت لملوكة أيضاً بكلام من مثل "أحب أخاك. وهو مفتون بي. نحن قرينان مثل زوجي حمام"، وأن تكون همست لنفسها إذاً، يمناها على قلبها، مستخبرة دقاتِه "لِمَ تتسارعين، لأي داعٍ؟" وتنهدت "شوقاً إليك أنتَ يا مولاي. آه، لو أنك تسمع ندائي!" وأن تكون ذهبت معها إلى تلك التفاصيل التي يتصور هو الآن العمةَ سمعتْها بالتذاذ. فأي شيء آخر، إن لم تكن الوحشة من حوله، تُغويه بأن يُسقط على تلك التذكارات بعضاً من حميمياته مع باية؛ إنه يعتبر نفسه وإياها نسخاً لوالديه، بل والديه تناسخاً فيهما هو وباية.

٤

في المراح، تحت نور بدر شهر أوت، في سكون منتصف ليل لم يخرقه غير عرير صراصير مثابر ونعيق بوم متقطع ونباح كلب متباعد رداً على عواء ذئب مستفز ونقيق ضفادع مُصرَ من البرك المجاورة ومن العين القريبة من البيت العائلي هنالك في الحاكمية، ها هي العمة ملوكة تروي لابن أخيها، خلال عطلته الصيفية الأولى هذه من أكاديمية شزشال "رقية أمك، يا جلال! لا أظن أن في هذه الدنيا امرأة أحبت زوجها مثلها. ولا في العالم أم فخور بابن لها تشبهها. يوم تجاذبنا الحديث عمن عاودوا الزواج أو أحلّوا ثانية وثالثة لأنفسهم ممن كانوا مع مولاي في الجبل، حمدث لي الله على أنك كنت هذا الرباط القدَري الذي شد علاقة أبيك إليها أنْ لا تفصمها غوايته بامرأة أخرى".

يقدّر كولونيل الزبربر، وقد هزّه حنينٌ إلى تلك الأيام، أن أمه رقية تكون أفضت إلى العمة ملوكة ببعض أسرار حبها لأبيه مولاي فنسخث هذه منها أو بدّلت، لدواعي الحشمة.

أنا، لا أرتاب في ذلك.

مولاي، كان يعبُر الليل. رقية، كانت تراه في الظلمة. إنها نادته "تعال. أنتظرك!" وبرجفة أصابعها تختلس إلى الابن لمسة وأخرى، بحثاً عن بشرة أبيه، كما تكون جسّتها أول مرة بحرارة مقدسة "خذني إلى حضنك. وشوش لي أصوات الحب المأسورة منذ ستة أعوام. خبّرني عما أسكتَك". منسابة في لجة من اللذة، أشبه ببركة صغيرة تشكلت إثر سيول على جانب الوادي الذي يعبر أراضيَ آبائها قبيلة المعاشة، غطست فيها فتعلّقها مولاي طحلباً أخضرَ فهتف صوتها في داخلها "أنا لك".

فكم أجد أنا، أيضاً، العمة ملوكة باهرة الحكي!

رُقيّة، كانت ستخرج من غرفة حَمِيها سي المهاجي: أبيها كما يبغي أن تناديه، لما كان أجلس الحفيد في حجْره ولفّه ببرنوسه ونطق له، يُسمعها، بعد أن وضعت أمامه صينية القهوة وتراجعت واقفة جنب العمة ملوكة "أنت يا جلال، باباك غدوة راجع. وسيأخذك إلى الإكمالية".

لكنْ ها قدَر كولونيل الزبربر يذكّره أنه شاء له غير ذلك المسار المدني.

في الحوش، رأى الطفل أمه في عباءة عرسها البيضاء بحزام صوفي مرقوم بألوان سوداء حمراء وصفراء بأهداب في أطرافها أقحوانات بيضاء، أرسلت بسمتها إلى السماء إذ مر سرب حمام برّيّ وأغمضت

فتخيلها سابقته في زهوه راقصة على أصابع قدميها، كفراشة مبشِّرة بالسعادة، بهذه النطّة وتلك فانبعث لها من لهيب الشروق، هنالك من وراء جبل الزبَزبر، ڨمري في خِلقة بشرية لضربات جناحيه موجات بحر متطاردة إلى ضفةٍ كانت الأم صارتْها رملاً فوقها انتشر فتلاحفا ثم سكنا رجلاً في امرأة: مولاي ورقية.

العمّة ملوكة، بمثل هذا، لم تدهش فحسبُ الطفلَ ابنَ أخيها!

كولونيل الزبربر يوم رجوعه من تِندوف كان رأى حاله مع باية حالَ والديه. كذلك يقول.

في عمق ليلتها تلك، وكانت تستطيع في العتمة أن تحدد موضع إبرة سقطت من يدها، قامت رقية من فراشها على جمر لهفة اللقيا فسحبت من خزنتها قميجة دخلتها البيضاء- يذكر كولونيل الزبربر الآن أن أول شيء وقع عليه نظره كان تلك القميجة على مخدة أمه إذ قامت صباحاً لتحضير القهوة فلم يتبين طبيعتها إلا بعد ثلاث سنين لما حضر عرس أحد أقاربها إذ رُفع مثل تلك القميجة في صالة النساء فتعالت الزغاريد وخرج بها وزير العريس فدوّت طلقات البارود: حينها، كان بارود آخر تكلم بالذخيرة الحية في شوارع عنابة وقسنطينة والجزائر العاصمة ووهران. وكان سيحدث أيضاً أن تُخرَج قميجة باية، لأنها أصرت "جلال، أعرف

أنك تتسامى عن المسألة، لأن شرفي ليس بكارة، ولكن يجب أن نُسكت ألسنة السوء في حق والدتينا".

تلك القميجة كانت مبرقعة بذاك الدم الزهري اللون؛ دمٌ لم يتريّب الطفل في أن أمه كانت عاودت تلمُّسه بأطراف أناملها متحسسة انكماشَ القماش هنا وهناك وبُقعَ دفْق المني المتيبسة عليه فتمسّحت بوجهها فيه، متشممة بقية من طيب وعرق تُعاند الاضمحلال. كيف لا يتَذكّر لها جسدها كلُّه، كما قبل اثني عشر عاماً من ذاك العام، ألماً عذباً عذوبة الوخزة، التي تكون باية اهتزت لها أيضاً لحظة انفضاض الغشاء، قبل ستة وثلاثين عاماً!

مثلي قبل ستة أعوام، ولكن في طقس مختلف مع حكيم.

"هذا بَرّك ولا جيث برّاني ها ظَريف المحنه الله كلمني"

٥

فكرث رقية، ذلك ما كان طفلها سيعرفه من العمة، ليتَ أنها همزث جسد الليل الغافي ففتح جفنه فأشرق الصبح! كانت تشهق. كان يسمعها، كمن تهمس نشيداً "مولاي العزيز، قَتلت من أجلي، فكيف لا ينبض قلبي إلا لك!"

أذوق من نبرة العمة ملوكة نقْعاً من الغيرة!

ها هي أصوات الزغاريد الغامرة تأتي من صيف تلك الليلة المقمرة المتنفسة عبير الحصاد؛ زغاريدِ الدخلة، قبل اثنين وستين عاماً، بين حين وآخر، يبددها دوِي البارود؛ طلقة في الحوش وأخرى عند باب الحجبة من حيث دخل العريس مولاي وركَن المكخلة إلى زاوية الجدار. بعد ست سنين، كان سيحمل أيضاً سلاحاً آخر ليلة صعوده إلى الجبل.

كان مَن سيصير والدي دخل حجرة الحجبة في صيف ١٩٧٦ وركن المكخلة نفسها بعد الطلقة الأخيرة.

تلك الليلة، منتصباً أمامها في برنوس أبيض؛ برنوس الجد سي المهاجي، تمثّل مولاي لرقية طيفاً أشبه حقيقةَ رجلٍ تماماً، كما في حلمها مذ خَطَبها. انتظرثه، على ما غادرتْها عليه أمها لالة غنية والوزيرة ملوكة بعد

أن هيّأتاها لِما كان الزمان سينقشه وشماً في ذاكرتها، جالسة التزبيعة وسط فراشها المخملي. باية ستكون في قميجة دخلتها من الحرير الأبيض، لا سواها، محفوفة بسبع شموع سوراً من نورٍ، هي الفتنة وسطه، مظلَّقة الشعر على خديها وكتفيها، مسوّكة الشفتين، مبسوطة المعصمين على ركبتيها المعقوفتين إلى الداخل.

أنا، كنت في ليلتي رأيت لأول مرة كيف يتقابل عريسان صدراً لصدر على صهوة فرس مجنحةٍ في ضوءٍ زهريَ مُنخّل.

ثمةَ ليلتَها، كما تأوّهت العمة لابن أخيها، أحس مولاي الزمن توقف لحين ما ملأت عينيه مهابةُ عروسه. مثلَها، كان العريس جلال سيجد عروسه باية كأنها ملَكٌ أبيض طاف بالبيت ثم حط سلاماً؛ بل حورية مشتهاة نزلت من جنة خالقها.

كلا! بل إن مولاي لا بد توهَم رقية الثمرة التي كان آدم سيهديها أحد أبنائه، أحسَّ نفسَه إياه.

ها هو العريس إذ كان قعد يقابل عروسه، وهمس لها سلاماً فأسدلت رمشيها خفَراً وتنهدت، هفهفت روحَه أنفاسُها. قدم لها باقة الورد فقارورة العطر فأشرق وجهها بابتسامة حسِب أنٌ سيراها في جنةٍ كما صورتْها له آيات الرحمن، بلون النعمان أفتن من اللؤلؤ والمرجان.

فأخذ، برفق، أصابع يديها بين يديه، كشيء ثمين يُلمس أوّل مرة. فرفعث إليه عينين زاخرتين اشتهاءً. مولاي، كان نظر، ببهجة قمر، إلى تحفة ليلية، ومن جيب جِيلِيّته أخرج أسوارة فضية بفصوص حمراء وضعها في معصم حوريته. نظرث ولم تنظر، مبتسمة كما في حلم. ودعك بإبهاميه خفيفاً على وجنتيها. العريس يُدخل الخاتم الذهبي في بنصر اليد الشمالية لعروسه. تنهدث. قبّل قرص الحناء في كف يمينها. ارتعشت. مسّد براحتيه على خديها، كما على زهرتين أندثهما عبرتا أنس. خلل بأصابعه شعرها. أزاحه إلى الخلف فامتدت يداها إلى كتفيه، ساحبتين البرنوس. هو، كان سكن. هي، فتحت، زراً زراً، الجيلية السوداء فالقميص الأبيض على صدر فاخر. ها هي العروس تجذب يدي عريسها إلى ركبتيها نحو فخذيها؛ إنه يسحب قميجتها عن خصرها فجنبيها وصدرها فرقبتِها. مالت على ظهرها. تذاوبا في سلاسة حلزونين. لدفق ريقيهما طعم المسواك المر ورحيق شهد العسل ممتزجيْن، كما امتزج المنيّ بلطخة دم زهرية بعد أن فرشت العروس القميجة تحت وركيها وكزت أسنانها لوخزةِ تَمزُّق الغشاءِ أقلَّ ألماً من شوكة وزد. وثَمة تعذّبث أول ألم؛ ألمَ ريْب الميلاد ليقين الموت. كان العريس تراجع إلى الخلف قليلاً لما سحبت العروس القميجة وبها مسحت له ثم أرثه إياها

مبقّعة أيضاً بأثر دمها فأخذها منها وقام ملتحفاً برنوسه ثم طرق من داخل الباب فامتدت له يد الوزيرة، التي عادت بها في رمشة عين إلى الأمّين المنتظرتين فنشرتاها بينهما فارتفعت هذه الزغاريد وتلك فبددتها، مرة أخرى، طلقات البارود.

في ذروة انتشاء النسوة برؤيتهن آخر قميجة معلقة كما ثريا في سقف الصالة الكبرى، ارتفع صوت المغنية بعيطة أحرقها الحنين "يا جلال، يا جلال!" ونقرت على البندير "العرش راكب، خُويا ما جاش. وِيتكم يا نساء اَحَكْموا الراس!" فرددت النساء لازمة "يا جلال، يا جلال!" تقطعها طلقات متناوبة من يدي مولاي بمسدس جُويل، كما كان يسميه، وزويجة العائلة، التي استرجعها يوم وضع سلاحه في الثكنة. كان العريس يفرز ذلك من فراشه مع عروسه يتبادلان ملعقة العسل وحبات اللوز وكأس الشاي. الجد سي المهاجي، كما ذكرت العمة ملوكة لابن أخيها، هو الذي أطلق مرتين إذ خرجت قميجة كنّته مبقّعة.

فبأي كلمات البشر كانت رقية حدثت العمة ملوكة عما لا تبوح به امرأة لأخرى غيرها إلا غبطة واشتهاء، ثم خيّلت لابن أخيها والديه في لحظتهما تلك جنباً لجنب في قارب من ورق أخضر دخل بهما في فيض أفقٍ أبهرَ ألواناً من تلك التي لا بد تمنياها من قبلُ ليلتهما

الأولى، كلٌّ من مسافة بُعده عن الآخر، متناسيين ما كان عريسان، مثلهما، سينطقانه لبعضهما، كما لم ينطقه آدم لحواء؟ قالت العروس "جلال أنا، سأحبك".

حكيم، كان همس لي "لأني أحببتك!"

رقية، إذاً، كانت عاودت دخول فراشها. شغلها، كما روت العمة عنها، لو أن الزمنَ اختزل ساعاته إلى شرارة جمرة والمكانَ طوى مسافته إلى ما بين خطوتين. رددت على نغم غيبيّ "محبوبي، سيدي مولاي. أنا نبغيك، أنا". كان الطفل يسمعها - باية، ليلة عودة كولونيل الزبربر من تِندوف، كانت تحرّقت "كم أشقاني بُعدُك!"

لما أخذ حكيم نهدي في كفه انقبست زفرة أمي في صدري. ولكن كم يعظم أيضاً سكوت هذا الوالد بين السطور!

تلك الليلةَ، تخيل الطفل أمه، لأنها كانت تنفست عميقاً، تحولت تراباً ضحك لوالده النازل رذاذاً. ثم، مثلَها، في لظف ذاك الصبح الآتي، كان غفَا.

"طبلك يرعد والخودات[8] في نزاهة وانتَيا
مَثمَوْلك خاطرك هاني"

8 الجميلات.

٦

في ما سبق من عمرها الربيعي الجميل، لم تكن رقية، في تلك الليلة، انتظرت شخصاً بذلك النزوع الذي أحسته تجاه مولاي. لعل باية وحدها، كما يكتب كولونيل الزبر، تكون عاشت شيئاً من ذلك أثناء انتظاراتها رجوعَه إثر كل غيبة طالت أو قصرت فوجدها كلما دخل البيت تفحّصته، ركّزته، بعينيها الفزعتين سألته أهو فعلاً هذا الذي قد يكون لقي حتفه في لحظة ما على يد جماعة مسلحة في كمين قريباً من الدار أو في انفجار سيارته أو في اشتباك أو تكون يدٌ مِن وسطه المهني قد اغتالته.

أخمّن إن وقع ذلك كانوا سيغمرون تابوته ورودا ويبثون قرآناً، ثم يأتي من يؤبّنه ببلاغة الشرف والواجب والوطن.

قوياً كان حبُ مولاي ورقية بعضَهما بعضاً قوةَ حبِ كولونيل الزبربر باية؛ بل أكثر استحكاماً وأشد وفاء؛ فإنه، كما ينقل عن العمة، لم يبلغه عنهما، مذ أدرك ما كان لطفل مثله أن يعرفه من علاقة سرّية بين أبوين، ولا رأى أو سمع، من العمة ذاتها، أو أحس، برغم بعده عنهما في مدرسة أشبال الثورة ثم في أكاديمية

شزشال، أنهما تخاصما أو تعاتبا، مثلما كان حدث له هو مع باية غير ما مرة بشكل عابر؛ لأنها مثلاً تأخرت في الاستجابة لمطلب بسيط.

"– قميصي الآخر؟

– لحظة!

– أخّرتِني عن الموعد.

– هم لا يحترمون أي توقيت.

– تريدينني أن أتصرف مثلهم؟

– أنت تعرف مسبقاً بروتوكول الحفل وطبيعته.

– وبعد؟

– لا شيء.

– سيتبادلون جميعاً كالعادة تحيات النفاق وابتسامات المكر. وسينهالون، إلا قليلاً منهم، على صينيات المشوِي كالكواسر الضارية. وفي زوايا "قصر الشعب" يعقد بعضهم حلقات ترتيب عمليات النهب الجديدة. أعرف ذلك، أعرف".

أو تسوية هذه المشكلة أو تلك مما يعود إلى شئون البيت والولدين.

"– باية، أين طاوس؟ كيف لم تعد بعد؟

– إنها مدعوة مع صديقات لها إلى حفل زفاف.

– لم تخبريني.

– أنت صرت تنسى.

قال لباية، لدى عودته إذ همرت له ماء الحمام "فكرت في الصحافيين والمثقفين والكتاب والأساتذة والمدرسين والأطباء والمحامين والمهنيين ورجال المطافئ أنفسهم والنقابيين وأناس بسطاء وفلاحين وجنود الخدمة العسكرية وأعوان الأمن والأطفال والنساء والشيوخ والعجائز الذين يسقطون بأيدي القتلة؛ لأنه ليس لهم وطن غير بلدهم".

وهي تؤزّه بالبشكير، قال لها أيضا "باية، من أجل أولئك يبقى الدفاع عن الجمهورية واجباً يمليه الشرف"، من غير أن يجد، كان ذلك يُملْمله، كيف يفسر لها علاقة بعض قادته العسكريين بكثير من السياسيين ولا أن يقنعها بأن هذا الطرف وذاك يناور الآخر ويسخّره لأغراض غالباً ما تكون الحصول على مزيد من عائدات الريع.

"- كما الساسة الثعالب كما الضباط المفلسين منشغلون جميعاً بالنهب والابتزاز. كلاهما مفسدة لهذا البلد.

- الفساد بدأ يوم حوّل شخص واحد في ١٩٦٤ ما كان في حساب جبهة التحرير البنكي بكامله في سويسرا إلى جيبه، والبلد منهك القدرات موزع بين تضميد جراحه من حرب تحرير وأخرى أهلية وثالثة

- لم تذكّريني.
- أين كنت سأجدك؟ مهاتفتك أمست من المستحيلات.
- هل اتصل ياسين؟
- يسلم عليك".

وأشد من ذلك في لحظات إرهاقه حدّ المشارفة على الانهيار جرّاء ما اعتبره، لوزير ذي حقيبة سيادية على هامش اجتماع أمني، استهتاراً من الساسة "تَسببتم في نشوب نار أزمة أمنية ثم تخلّيتم عن إطفائها، لنفعل نحن ذلك بدمائنا"، لأنه كان تذرّع له "حضرات، لم نكن نتوقع أن الأمر سيفلت إلى درجة المواجهة المسلحة. الجمهورية مهددة". فلم يدخر له أي لياقة "في الوقت الذي تدفعنا فيه سياستكم من ظهورنا دروعاً لكم، تبقون أنتم مؤمَنين على أنفسكم وأهليكم ومصالحكم متأهبين لترك البلد لمصيره"- فإن الجنرال نعيم رزاز كان سلم كولونيل الزبربر قوائم، من خانة السري، بأسماء ضباط متقاعدين ومن مزدوجي الجنسية من وزراء ومن موظفين سامين ممن اشتروا العقارات في أوروبا، وأرسلوا أبناءهم هناك، وحجزوا على الخطوط الجوية تأهباً للمغادرة. وقال له "ليس للجزائر غيري وغيرك ومن ليس لهم وطن غيرها".

على الحدود الغربية وبين مواجهة الفوضى والخراب ومخاطر التمزق.

– اثنان وأربعون مليون فرنك سويسري. عرق جاليتنا في المهجر وتبرعات أصدقاء الجزائر في الخارج لإسناد مجهود حرب التحرير.

– جزمٌ.

– تصفيته جسدياً لم تكن كافية.

– تمنيت لو أنه حوكم هنا.

– كان يلزم لذلك أولاً أن تسلمه مدريد. وثانياً أن يتم ضمان أن لا يفشي أسماء المتواطئين.

– والدك، عمي مولاي، يعرف بعض أسمائهم.

– ذكر لي مرة أنهم لا يَقلّون خطراً، يصل درجة الخيانة، عن الذين زرعتهم الإدارة الاستعمارية في جسم جيش التحرير ليفرّخوا موالين لهم في مؤسستنا العسكرية نفسها.

– وماذا كان يفعل صندوق بمبلغ ملياري فرنك فرنسي قديم من القطع الذهبية والعملة الأجنبية في بيت الرئيس عند مداهمته في فجر الانقلاب عليه؟

– هذا أمر يرهقني. أنا متعب، يا باية."

أو لدى رجوعه من عملية تمشيط أو اشتباك، أو إذ يستحكم عليه حنق، كما آخر مرة، على مقتل ياسين فثار في وجهها.

"– باية، لا تعترضي طريقي. أعرف عائلات من قتلوا ابننا. سأصفي أفرادها واحداً، واحداً.

– قد لا يكون لهم ذنب. أنت تعرف. أنت رجل قانون محلّف. كيف تنزل إلى درجة القتلة؟

– أنا أقتُل كل يوم.

– ولكنك لا تغتال. أنت تدافع عن القانون بالقانون.

– القانون، هه!"

فعزا ذلك، لنفسه، إلى شَرْطه العسكري الضاغط، بهاجس الموت المتربص كل لحظة، بهذا الشعور الذي يسيطر على مثله فيجعله يرى الحياة، مع من لا يراعون لها قدسية، تفقد معناها فيصير بلا جدوى أن يتقيّد معهم بحدود أخلاقها ويَخضع لضوابطها.

على أن باية ظلت متعففة عن البحث في حياته المهنية جاهلةً جهلَها أشياء كثيرة منها لا تسأل عنها ما لم يبغ هو لها أن تعرفه منها.

"– رائد البحرية عمر راوي راح ضحية لمقتضيات الدولة، بفعل تورطه مع العميل الفرنسي بزنار لإدخال شحنة أسلحة موجهة للجماعات المسلحة.

– كان يمكن أن يحاكم.

– لا أحد كان يضمن أن لا ينطق بأسماء الضالعين معه.

– ولماذا أبقي على العميل الفرنسي؟

– لمبادلته.

– لا شيء كان يدل على أن عمر راوي يفعل ذلك. كان أحد رفاقك في المدرسة وظل صديقاً لك. أكل ملْحنا.

– كان، كان قبل أن يثير شكوكي بهوسه بالحياة الرغدة. سبق له أن أشرف على إدخال ممنوعات وعلى تمريرها عبر البحر.

– والذين يبيعون خلسةً شحنات البترول والغاز في عرض البحر أو يقايضونها بالمشروبات الروحية والأجبان والألبسة ومواد الزينة والزخارف؟ وأصحاب الحاويات الذين يغرقون السوق بمحتوياتها من غير دفع دينار واحد ضريبةً للخزينة العمومية؟ والذين يحوّلون إلى الخارج حقائب العملة الصعبة عبر المطارات تحت غطاء الحصانة الدبلوماسية أو البرلمانية؟

– لك أن تتصوري القضاء مستقلاً والصحافة حرة وقطاع الجمارك بغير لباسه الوسخ لتجدي الإجابة. فكثير من متاعب رجال الأمن والجيش النزهاء كانت ستخفف. وكان المواطنون سيستعيدون بعض ثقتهم في مؤسسات دولتهم التي ينخرها الفساد."

"هذ برّك ولّا جيث برّاني ها غريب المحنة لله جاوبني"

٧

كان كولونيل الزبربر قام من مائدة شرب شاي العشوية في المطبخ، كما صارت العادة منذ أن أمسيا، هو وباية، وحيدين وجلس على كرسيّه الطويل في المكتبة يقرأ **"إلى أين تتجه الجزائر"**[9] لما حضنث رأسه يدان دافئتان إلى صدرٍ عطر زاخر في سكون شبيه بخشوع لصلاة. ثم، من يده اقتيد إلى الحمام ونُزعت عنه ملابسه، مطاوعاً، في عينيه دمع الطفل الذي كانه يوماً بين يدي أمه. وأُدخِل الحوض مضوّعاً بالخزامى. فنطق "بايتي، شكراً." لم يأته ردها. كانت تشهق قرب الباب. أسمعَها "أنتِ دفئي من بردي. أنت دفقي في عطشي". وغطس وجهه في الماء.

9 كتاب محمد بوضياف، الرئيس الجزائري المغتال في ٢٩ يونيو ١٩٩٢.

أنا، يغلبني دمعي.

أحياناً، اختفى في زاوية من جُنينة الفيللا – كان سدد مبلغ المساهمة الأوّلي لشرائها بالتقسيط لقانون التنازل عن أملاك الدولة باقتراض من صديقه الجنرال نعيم رزاز. وبكى حيث يجلس في هذه اللحظة، أو واقفاً تحت إحدى هذه الأشجار الصامتة مثله.

بَوحُه يُحرق جوانحي.

أجل، بكى! لم يجد غير ذلك إدانةً لتغطرسه تجاه باية. فإنه لم يكن عبّر لها، إلا نادراً، بالكلمات عن اعتذاراته. كان يضمها إلى صدره قوياً وطويلاً، تثيره ثم تُهجعه رائحة بشرتها مزجاً للمسات عطرها الخفيفة.

أنا ابنتها، أعرف شيئاً من ذلك.

ها هو يقول إنه ارتعش، برغم حرارة هذا الخامس جويلية ورطوبته: باية كانت وشوشت له مرة في السرير أنه يحمل لها رائحة الأرض في شَعره وجلده صنوبراً وعرعاراً وضرواً وحلحالاً وقندولاً وزعتراً أيضاً وشيحاً، من غابة الزبَزبر ومن مشارف السهوب، ومما كان من قبلُ ادّخره من لحظات الحنين إليها في وحدته بعيداً عنها في قفر تِندوف!

يشهق فزَعاً، مما كان يَعدّه مجرد احتمال "باية، ها أنت تركْتني وحيداً إلى شقائي، أنا الذي خرّبت مشاعري هذه الحياةُ العسكرية!"

أتذرّى، أنا، أسىً.

فبين خصام عابر وآخر، بينهما، ها هو يستعيد ذلك، غالباً ما فاجأ باية بهذه الهدية أو تلك؛ آخرها كانت تاجاً من المرجان الأحمر رصّعه له أحد الصّناع في مدينة القالة يوم تغذيا على طبقين من الجمبري والسلمون في فندق المنار السياحي حيث اتخذا في مطعمه ركناً من

نافذته المفتوحة على بحر كانا يستطيعان لمس مائه بأيديهما.

إنه يقول إن باية كانت هادئة هدوء البحر عند قدميهما. إذ قاما، فنظرت إليه بشكر، خذلث، كما كل مرة، غضْبتَها الشفافةَ ابتسامةُ عينيها له. في الغرفة، إذ وضع التاج، في سكون، على رأسها حاصراً به شعرها إلى أعلى خلْفاً ثم قبّلها على جبهتها، أغمضث في خشوع. تراجع نصف خطوة، تأملها كمليكة مهيبة، بشعورٍ مذنبٍ أنها أحبته أكثر مما كان هو سيحبها. وفتحث لتنطق له عيناها "سامحتك!" ثم أخذت يده وهزتها، مبتسمة بتنبيهٍ إلى أنه، إن كان يمكنه أن يخفي عنها بكاءه كما أسراره المهنية فلا تسأله عنها، سيظل عاجزاً عن قهر عينيه عن البوح لها بما أضمَره قلبه عنها.

ثمة، في فراش نومهما، كانت طوت إلى الأبد ما حدث بينه وبين الأستاذة فهيمة بونور. قالت له فحسب "أنا واثقة في حبك". سكت، لمعرفته أعمقَ مشاعرها تجاهه، مطمئناً إلى أنها لم تر في اجتماعه في سرير واحد بالأستاذة فهيمة، في شقة مجهزة تابعة للمصالح الأمنية، سوى فعل عابر أملته ظروف تطَلّبها عمله الاستخباراتي – فإنه كان قبَض عليه كهوس أن يعرف مكان تواجد الزبير قائد المجموعة المسلحة الذي غدر بياسين خلال تدخله لتحرير رهائن في إحدى العمارات.

فقد اتخذ للزبير فهيمة نفسَها طُعماً له، بعد نبش في ملفه وتحريات في وسطه الاجتماعي والدراسي كشفت أنها لا تزال إحدى عشيقاته منذ الجامعة لما كانا لا يزالان طالبين في نهاية التدرج. مقابلَ خِذمتها، كان أراها في السرير قرار منحة دراسية إلى بلد أوروبي؛ استخبر أنها تسعى إلى الحصول عليها بحرص فانتظرها يوماً أمام مخرج الجامعة بيده آخر صورة لها، وإذ اقتربت من الرصيف نزل من إحدى سيارات المصالح المموهة، في بدلة مدنية سوداء وقميص أبيض بلا ربطة "احتراماتي أستاذة. لن أتوسط لك. الآن يكون العميد أمضى قرار المنحة. أنا من يسلمك إياه". فاكتفت بابتسامة لتبديد المفاجأة. لم يمهلها رداً "والآن أدعوك إلى الغداء". كان، إذاً، أخرج لها صكاً بنكياً، يملأ رصيده من مبالغ مالية مسترجعة خلال عمليات التمشيط والمداهمات، ومما كان سيكون يوم القضاء على جماعة زغدان أيضاً، تسحبه ببطاقة هوية بصورتها تحمل اسماً غير اسمها. وقال لها، إذ انسلّت من جنبه "أريد فقط أن تتصلي به لتلاقيه في أي مكان تُعلمينني به مسبقاً. بيني وبينه حساب شخصي يجب أن يصفى. أنتظر إشارتك على هذا الرقم".

كولونيل الزبربر كان سيملك الشجاعة نفسها، ليبوح كما يفعل هنا، لو أن باية كانت لا تزال في هذه الدنيا،

ويجهرَ أيضاً بأنه في الفراغ الذي أعقب خروج فهيمة، ملأ عينيه وجهُ أمه "جلال! كنتَ طفلاً. كنت تنظر إلى أبيك في صمت كملاك. كانت نار الكانون تورّد وجنتيك". كان ذلك قبل ستة وخمسين عاماً. كان في صوتها كل ما في الأرض لأم مثلها "ليلتَها برك أمامك وأسكنك إلى صدره فغرست ذقنك الصغير في عظم ترقوته. قبّلك على جبهتك". كان والده مولاي حمل سلاحه المركون إلى زاوية الجدار، من نوع ماط ٤٩، وخرج.

إن كان الآن شيء، كسراب يتناءى، يَشخص في ذاكرته، من تلك الليلة، فهو ظلال وجهٍ، كان الجد سي المهاجي، في حجرته، سيقول له عنه، عشية سفره ليدخل مدرسة أشبال الثورة، بعد أن وضع في يده قطعاً نقدية "أبوك، ملاك كالملائكة الذين لا يموتون ولا يتحولون".

قبل ساعة من لحظة خروجه هنا إلى الجنينة، واقفاً في الحمام تحت رذاذ المرش، كان استسلم لهاجس موته هو كيف سيكون، إن لم يحلّ عنيفاً. فقد ألهب شعورَه أن والده مولاي، في تلك الليلة، لا بد كان راعه أنه يراه ويلمسه، لآخرة مرة.

وها التذكار يخضّه بلحظة معانقته ياسين تهنئةً على تخرجه من المدرسة العليا للشرطة الأولَ في دفعته،

بحدس فاجع أنه قد يفقده يوماً في طاحونة حرب لم تُعلِن عن صفتها.

"نحن العسكريين في الميدان نُسمّيها قتالاً ضد الشرا" كذلك قال لجنود فصيلته في استعداد قبل الخروج في أولى عملية تمشيط في جبل الزبربر.

ها هو يحس موت ياسين خنجراً ينغمد في قلبه "لماذا يا قدر تفجعني في ابني؛ أأخذاً مني لدينٍ ما لن أعلم أبداً قيمته ولا متى اقترضتُه؟ وكيف رضيت له أنا أن ينضم إلى جهاز الأمن، بدل اختصاص عال في الجامعة، وكان ذكياً ومثابراً بالقدر الذي يخترق أي وظيفة أخرى في الحياة المدنية؟ ألابتلائي أنا العسكري غير الاستثنائي في صفوف جيش دولة بأكمله؟"

حسِب أنه، لِعُمْره ما امتد، لن يشفيه من جرحه الغائر إلا أنْ يُلقي بيده القبضَ على الزبير قاتل ياسين برصاصة في الجبهة من كاتم صوت بعد أن استأمنه على أنه يستطيع أن يقدم له نفسه رهينة مقابل إطلاق سراح النساء والأطفال الذين كانت مجموعته المتحصنة بشقة في إحدى العمارات اتخذتهم دروعاً. كان الزبير، مموهاً بملابس ياسين نفسِها، خرج مع أفراد مجموعته ليركبوا سيارة كانت في انتظارهم - حدث ذلك في ضاحية الجزائر الشرقية بحي المزجة في برّاقي تزامناً مع تحليق كولونيل الزبربر حينها على طائرة هيلوكبتر

مسلحة وقد حدد أحد البيوت المهجورة في بادية خميس الخشنة اتخذت منه جماعة مسلحة ملجأ لها: قذيفة كانت كافية لنسفه. ثم تكفل شخصياً بمن خرجوا منه راكضين، وكانوا ثلاثة، نحو الغابة مصوبين رشاشتهم نحو الطائرة عشوائياً، فأصابهم واحداً بعد آخر إصابات مباشرة في الرأس من بندقية السيمينوف المجهزة بمنظار، قبل الهبوط لجمع أسلحتهم.

كما تعاقد كولونيل الزبربر مع الأستاذة فهيمة، كان يريد الزبيرَ حياً. خابرته "غداً مساء، في دار الياسمين". قبل الفجر، في منزل بإحدى مزارع ضاحية الجزائر الغربية ها هو كومندو من عشرة من رجاله الميدانيين، يتقدمهم الملازم أول مُحند، يقضون بالسلاح الأبيض وبكواتم الصوت على أربعة ممن يقيمون الحراسة. إنهم يفاجئون الزبير في السرير مع الأستاذة.

الآن توقد أضواء السيارتين المتقابلتين. يظهر الزبير بين جنديين عارياً مكبل اليدين إلى الخلف. نطق له من كان وقف أمامه.

"– أنت نذل لا تستحق حتى الموت كما الرجال.

– حضرات، لم أكن في حالي الطبيعية.

– كما في كل عملياتك المدمية؟

– الأمير بيده كان يسقينا تلك الجرعات.

– ستذوق ما لم تشربه في حياتك أبداً".

وأمر، بلا شعور بذنب ولا تبكيت، أن يُسقى الزبير من سائل حمض البطاريات. لم يتزعزع للصرخة التي مزّقت غشاء ذلك الفجر، كان يتخيل جبل الزبَزبر نائماً. وانتظر إلى أن شم رائحة الاحتراق بلا نار، وفي ذهنه صوت الملازم أول مُحتد يتلاشى "حضرات لن تتدخل. سنخرجه لك حياً".

إذ تسلل إلى السرير ضم ظهراً دافئاً إلى صدره "على غير عادتي، سأنام نهاري عميقاً"، فامتدت يد إلى خاصرته صحبتها شهقة "كنث، مثل طاوس، أنتظر ذلك. الآن، ارقد يا عزيزي".

"لا يوَرّيني وجهك يا لون العاز تخلُد في سكارها
خُطام النار"

٨

يقول كولونيل الزبربر إنه لا يدري، إن لم يكن يحب أن لا يدري، لِمَ لما تحركت باية أمامه، وهو لا يزال في السرير غداة القضاء على الزبير، طفرتْ إلى ذهنه، مرة أخرى، صورةُ أمه؛ كأنها الوحيدة التي ثبَتت مستقرةً دون غيرها في ذاكرته – كان بعد أن فكّهُ عنه والده مولاي في تلك الليلة قبل ستة وخمسين عاماً وقف يقابلها إذ عقصت بيدين بيضاوين إلى الخلف شَعراً دكَنته للون ريش الغراب وبَريقه: لم يبغض من لم يحبوا الغراب كالعمة ملوكة يثيرها نعيقه بالشؤم "جلال، ها هو حط فوق الكزمة. اطرده! جلال، أسمعُ نعيقه. أين هو؟" فتبسم من تطيّرها ثم أسنده إلى اعتقادها أنه نذيرٌ على ديمومة عنوستها.

إنه لا يمارِي نفسه الآن في أن أمه، تلك الليلة، كانت منشطرة المشاعر بين زوج سيودّعها، بعد لحظة دفء كانت أكثر حرارة وأشد قصراً في الفراش، وبين ولد يكون نظر إليها نظرةً لا بد من أنها كانت غامضة وكئيبة؛ فلا شيء في وعيه يمنعه أن يعتقد أنه فعل ذلك وبعمدٍ؛ كأنه يَحدث الآن.

أحب كولونيل الزبربر أمّه في صمتٍ حباً غالباً ما تمازج في مشاعره بالعشق الآخر لباية؛ ذلك الذي يجد الإنسان نفسه من دونه لا يشبه الإنسان. وظل كذلك أشد شغفاً بها، لجمالها الحليم ووقارها الآسر، إلى أن شيّعها إلى قبرها فتمثّلها فيه نائمة؛ نائمة فحسب نومة انتظار لمولاي كي يوقظها فيسافرا معاً إلى جنّتهما. ليحصل ذلك، كان يجب أن تنقضي أربع عشرة سنة.

قبل ستة وثلاثين عاماً، خلال عشاء في البيت العائلي بعد مرور أسبوع على زواجه، كان ذلك صيفاً، نظر بتملٍّ إلى وجه أمه الآمن، تقول عنه لوالده، بجنبه عن اليمين، مستعيدة ليلة صعوده إلى الجبل، وراحتها على ركبة كنّتها "تلَمّس بوسطاه وسبابته الشماليتين أثَر قبلتك على جبينه كأنها نقش سحري". فعاود الحركة، كما نطة فراشة. كان بيمينه يقبض ملعقة الكسكسي في القصعة الخشبية بجنب العمة عن شِماله. وعند شروق شمس الغد على حقل العائلة في بداية يوم حملة الحصاد والدرس، وقف ينظر إلى جبل الزبَزبر "أحس أنفاسك. هل يصلك صوتي؟ كنتَ لهم حصناً وحضناً. ما أقوى صمتك!" ولم يكن ليّسمعه همَس له إلا في منامه "ستقتفي أثرَهم يوما لتطهرني، كما فعلوا".

إنه الآن يستعيد يومَ نزوله من سيارة جيپ، كانت تتقدم رتل مركبات الجنود. كان وقف دقيقةً يتأمل

سكون الزبَزبر الأخضر، قبل أن يعطي إشارة الانطلاق في أولى عملية تمشيط واسعة داخله بإسناد من المروحيات وطائرات الاستكشاف والقتال، إثر كمين فاتِك نصبته مجموعة "الهول" المسلحة لفصيلة الدرك المتنقلة في أحد منعرجاته فأبادتها واستولت على أسلحتها وأحرقت مركباتها.

في وقفة أخرى له في سفح الزبربر، نطق بما تذكّره لباية "يا جبل! تحمّلتَ بصدرك، مثل أب خرافي، جحيم النبالم وكل أنواع القنابل وأحجامها سبع سنين ونصفاً. فكان لك أن تهدأ بعدها ثلاثين عاماً. وها أنت تفزع لهذا الاقتتال العبثي". كان ذلك لدى نزوله منه عقب آخر عملية مسلحة، ضمن فصيلته، تم خلالها أسر "لحمر زغدان" إثر القضاء على جماعته. ثم عاد إلى الثكنة ليغادرها نحو هذا الصمت.

مثل أوراق خريف، ها هي تنثال عليه صورٌ من تلك السنين العشر من الاقتتال آثاراً لحرائق وخراب كانت تظاهرث له، وهو يغادر الزبربر، على طرفي الطريق الرئيسية التي يخوضها وطرقٍ فرعية بعيدة قريبة في انحدارها المتدرج إلى السفح: أكوام رماد متحجرة هنا وبقايا هياكلِ مزكبات عسكرية وأخرى مدنية بعضها مقلوب بفعل تفجير، وآخر جانح بشكل عنيف نحو الجذوع أو الصخور بأمارات خروق العيارات النارية؛

وما في قيعان المهاوي والوديان هناك بدا له مثل لُعب رميث، كلها ينخرها الصدأ. وتلك الجدران المنهارة تشهد له على أن في هذه الديار، تلك المزارعِ، ساكنين كانوا فيها، قُتلوا أو هجروها.

قبل عام، حدث ذلك بعد شهر من دفنه باية، إذ نزل إلى المكتبة في آخر ليلة من ديسمبر مكتئباً، لأنه في الظروف العادية كما الاستثنائية كلها لم يكن وجد غير عائلته الصغيرة وصديقه الجنرال نعيم رزاز ليبادلهم التمنيات بالسنة الجديدة، كان أزاح ستار النافذة الأبيض، ساكناً خلف المربعات الزجاجية، مقشعرّ البدن، لزمجرة الرعد؛ لحظة وجدها أشبهَ بتلك التي كان خلالها هو وفصيلته القتالية في عمق الزبَزبر انتظروا أن تمر جماعة مسلحة عبر مقطع الوادي اضطرارياً! فمع لمعة البرق وهزيم الرعد فانهمارِ مطر أواخر الخريف، أضاءت نيران رصاص الرشاشات فوقع ثلاثة أشباح على الأقل. أما الرابع والخامس فأسقطهما بطلقتين من بندقيته المزودة بمنظار ما تحت الأشعة الحمراء.

فأعمدة الأضواء القصيرة، البادية مغروسة في العشب هنا وهناك، حيث يجلس الآن، كانت تنير لسيل الشتاء أن يُظاهِر جنون رقصته. كان واقفاً في لباس بيت أزرق ليليّ بحزام وجيبين داخلهما يداه، مسرّحاً إلى الخلف شعره يسمع في أعماقه صوت باية "يفتنني

هكذا مشتعلاً سلساً". كأنها لا تزال أمامه في المرآة! هي التي كانت مشطته له. وهو يخرج، كان ألقى في المرآة المتحركة في البهو نظرة أرفقها بإيماءة من إبهامه رِضاً عن إتقانها. كانت خلفه. كانت هي حَلّاقته أيضاً؛ فإنه لم يقصد صالون حلاقة ولا عرض رأسه على حقّاف الثكنة منذ مذبحة قُمار، التي قبل واحد وعشرين عاماً كانت فتحت باب جحيم الاقتتال؛ مذبحةٌ في حق جنود حرس الحدود أراد له قدَره أن يكون هو من يقود عملية مطاردة منفذيها من أولى الجماعات المسلحة، بعد **التكفير والهجرة**، في الرمال وفي بساتين النخيل حتى إبادتهم النهائية وأسر البقية. عامَها، كان شكّل فصيلته القتالية من نواة الجنود الذين شاركوا في الحملة.

من خلف الزجاج، كان لا يتأمل شيئاً. لا يتساءل لقوة الطبيعة الغامضة. لا يفكر في شخص. تذكر. تذكر، فحسب، بعض تلك الليالي الباردة الماطرة المسكونة بالترقب أن تخرقها طلقة، في هذه اللحظة، في التالية لها، أو يدويّ خلالها انفجار. تغزوه، مجدداً، أصوات ليست بجهر ولا بهمس؛ حسيسُ احتكاك ساق على ساق، كتف أو جَنب على غصن، انكسار أوراق يابسة تحت وطأة قدم محاذرة، تَدَحرُج حجرة؛ خلال حركة جنوده ليلاً أو لدى مرور مجموعة مسلحة لم تكن في عين الهدف وأحياناً زواحف؛ ثعبان أو عظاية، أو جرذ، أو

صوت بومة، أو مرور ذئب أو ثعلب؛ فقطعان الخنازير البرية كان لها إعلانها عن نفسها مسبقاً برائحتها ودمدمتها، بشخيرها وبُقاعها الذي لا يشبهه صوت حيوان آخر.

على إقلاع السيل، كان ردّ الستار. جلس إلى مكتب كان هجر أقلامه عليه وأوراقه وكمبيوتره مذ صار لا يقوى على رؤية وجه باية الجميل، متأرجحة إشراقاً بين بسمة وضحكة، مفتوحة القميص الأبيض على نجمة ذهبية خماسية، مهفهفة الشعر الأجعد على أذنين بمنقوشين فضيين، داخل إطارٍ صورتُها بالأسود والأبيض، كما كان لا بد اختارها من بين عشرات الصور لتذكارات أخرى، في الثامنة عشرة يوم عرفها؛ وكانت طالبة في سنتها النهائية في الثانوية، مفجرة فرحتها بالدنيا كما لا تفجرها أشد السعادات في العالم كله: كان الجيلالي، الصحافي المصور في وكالة الأنباء، وقد صار صديقَه من يومها إلى أن اغتيل في حاجز مزيف، ثبّت تلك اللحظة ليمنحها إياه هدية في زفافه فتعتقت حدّ أن أمست تحفة زمنية؛ فَشِل في أن يقلبها أو أن يخفيَها نهائياً- إذ كان أخبر باية، قبل ثلاثة عشر عاما، بمقتل الجيلالي جمعت كفيها إلى فهما وشهقت.

أنا، كان الخوف استوطن مني القلب.

فتح الباب الزجاجي للخزنة الصغيرة المرفقة بالمكتب، عن يمينه. أخرج، فقط، زجاجة ويسكي وكأسا. وكبّ ضعفاً. ركز وجهها "أسبوعاً بعد غيابك حبيبتي حاولت قلْبها فلم أستطع. ها هي نهاية سنة تمر بآثار فجيعتي فيك تهد قلبي. بداية سنة تحل بحصار هذه العزلة الشامتة". ورفع في الفراغ العاجّ بالتذكارات الهائجة "لروحك، رفيقتي الجميلة. لك، حبي الأبدي. لمن كان قرة عين لي ولك. لياسِينِنا، عند ربه. لطاوس، هنالك بعيداً". جرع، مُحرِقا النار بالنار في صدره. اعتصر. دمعتان، لا غير.

ما يشبه عزفاً ناشزاً، لجوقة صراصير ودبيب خنافس وطنين حشرات أخرى، كان رجّ أذنيه إذ فتح على ما كان والده مولاي سلمه إياه، بخط يده في كراسة ذات نابض، قائلاً له قبل نقله، آخرة مرة، إلى *مستشفى* عين النعجة، الذي فيه التهمه سرطان المثانة ومنه خرج في تابوت، قبل ست سنين "أخشى أن لا أعود. هذا شيء من حماقات الرجال ومن حالات ضعفهم. شيء من قذارتهم أيضاً. وشيء آخر من شهامتهم. إنه شيء من تاريخي. فللحقيقة رائحتها المنتنة أيضاً".

"هذا بَرَك ولّا جيث برّاني يا راش المحنة لله جاوبني"

الفصل الثاني

١

وجدث، مِن كل ما كان جدّي، مولاي بوزقْزة، خلّفه للوالد – كولونيل الزبربر، وإن لم أصنّفه ضمن ما يشبه يومياته أو سيرتّه، لأنه ليس بمذكرات أيضاً، فرسخ في ذهني، هو هذا العناد، الذي لا يقول طبيعته، على إغفال ما كان مسّ حياته الشخصية، الحميمة منها حصراً.

وها إني مما نسختُه، بعد مسح له على الشاشة، أقرأ عن بُعد، كما في أوقات سابقة، بتقطع، في مكتبتي الصغيرة في البيت؛ إني الآن على طاولة المطبخ وحدي، لمداومة حكيم الليلية. إني لا أقاوم جموح ذهني عن الكلمات الظاهرة على الورق إلى ما لا بدّ لبَد منها خلف لسان جدي؛ تلك التي كان والدي سمع بعضها من شفتي العمة ملوكة، بحبكة فائقة، فراح يُخييها في خياله إحياء؛ ما كان مضى من سيرة جدي قبل الحرب، خلالها: مشاهد من طفولته، هنالك في أرض آبائه، أجدادي، بما كانت تحمله فصول السنة الجميلة، حتى في قسوتها؛ مع أقرانه يتعلمون بين المدرسة القرآنية وبين المدرسة الفرنسية يمشون أو يركضون في آفاق لا تحدها سوى

الغابات البعيدة وجبل الزبَزبر الداني، يفقهون من محيطهم الذكوري بالمحاكاة والدربة كلَّ ما ينبغي لشخص في الريف أن يظهر به غداً حين تستدعي الرجولة التوثّبَ في كل الأحوال الماطرة والمثلجة والعاصفة، وبناءَ حُجرة الزوجية، ومعرفةَ الأعشاب ومنافعها وأضرارها، وغرس الأشجار المثمرة وزبرها وتلقيحها ومعالجة المريضة منها وجني غلتها، وزارعة الخضر والبقول، ورعاية الأنعام وتوليدها، وتربية الطيور الأليفة والداجنة وإحصاء دورة حياتها مثلها مثل المتوحشة، ونصب الشراك، وإحكام الزج والذبح والسلخ، وإتقان البذر باليد، وإمساك المحراث خلف الحيوان، واستعمال المنجل تحت القيظ، وضفر الحبال وشباك نقل أكوام الحصاد، وتهيئة البيادر وقيادة دوابّ الدرس، والقيام بالتذرية بالمذاري الخشبية والمعدنية في أوقات هبوب البحرية، وإسراج الحصان ولجمه في جموحه، والتصويب بالبندقية في كل وضعية، وهذا التأهب للذود عن الحرمة وصيانة شرف العائلة حتى الموت، والتضحية بأي غال من أجل الصديق، ورهن الكلمة مثل أي معدن ثمين، وذا التحدي لِما تطلبه امرأة معشوقة أو يفرضه أهلها؛ إلا الغدر إلا النذالة.

إنه لتلك الفراغات في سرد سيرة جدي، ظننت أول مرة أن والدي يكون هو من غَمّ عليها بالقطع، قبل أن

أعزو ذلك إلى داعٍ ذي صلة بأسبقية ظرف الحرب؛ فمن غير المنتظر من جندي مثل جدي في جيش تحرير، يخوض مواجهة غير نظامية، أن يصرف وقتاً لاسترجاع ذاتيات لن تجد من يهتم بها، كما يكون ظن. وقد خامرني أنه قد يكون هناك بعضٌ مما دوّنه قد أُتلف أو ضاع، لا غير.

لكنْ ها كولونيل الزبربر يبسط أن التفكير في حفظ وقائع الحرب، عقب إعلان الاستقلال وإشراق الأذهان بالأحلام الجديدة، مكتوبةً كما عاشها الجنود، لم يكن يرِد على خاطر؛ فكل نفس كفاها أن الحرية المنشودة حصلت فسقط التكليف. وأن كل ما حدث أحصِي في كتاب **ثورة نوفمبر** الجفعي.

ففي ذكرى **أول نوفمبر** الماضية، خرج كولونيل الزبربر كما عادته، في الدقيقة الأولى بعد منتصف الليل لابساً قَشَابِيَتَه[10] وأطلق من مسدسه سبع طلقات في الهواء. وها هو في ذكرى **الخامس جويلية** هذه يلبس بدلته العسكرية الميدانية ليوم كامل. إنه يعاود لنفسه جهراً، بمرارة مسحوق العرعار في حلْقه "حرب تحرير، بقسوتها وفظاعتها وآلامها وثمنها، لا يكتب تاريخَها جبناء"، رداً على باية إذ كانت قبل ثماني سنوات انشغلت له "ها هو نصف قرن يمر على **أول نوفمبر** ولا شيء كُتب."

10 جلابة من الصوف، غالبا، مشهورة في المغرب العربي.

الآن، يتساءل لمن كان سيقول إنك بعد خمسين سنة تعاين أنك أصبحت على فجيعةِ توقيعكَ، لساسةِ الاستقلال وأربابِ الدولة، صكّاً على بياض ليستولوا على تاريخِ حربِ تحريرٍ كتَبه بدمه وغنّاه بآلامه شعبٌ بأكمله؟

فكم همّه، لذلك، أن يعرف بمَ انشغل والده مولاي في لحظات مواجهة ذاته، وكان يبدو له دائماً، في الحياة القصيرة التي قاسمه إياها، لكونه عاش بعيداً عنه منذ مدرسة أشبال الثورة، غيرَ مستعد للخوض في ماضيه بالرغم من أنه لا يجده مثلوماً بندبةِ تآمرٍ ولا موصوماً بأي لطخة أخلاقية؛ كما تَثبّت عليه من والدته رقية، يوم نادت عليه في اللحظات التي سبقت احتضارها "جلال، ابني. هات يدك. أنت نسخة منه. وسيمٌ مثله. ومثلَه، فيك ثقل الزبَزبر. إن يكن الله لم يرزقنا غيرك فأنت، كما قال لي، تعوّض عشرة. يجب أن تفخر بأب كما أبيك. مولاي كان نعم الرجل الفحل والزوج الوفي. لو أن الجزائر امرأة حقيقية كانت هي التي وحدها تستطيع أخذه مني". فحنّى على ظاهر يدها براحته الأخرى "آه، يا اميمة. ولكنك نسيت أنها رهنته لها وحدها ست سنين!" فكسا وجهَها احمرارُ حياءٍ، يقول إنه تخيّله للحظةِ أنْ لمسها مولاي، أول مرة "كان هو الذي نادت

عليه". هو، كان ولاهما خارجاً ليستر دمعه. سمعها نطقت، بنبرة فرح غريبة "مولاي، نتسامح!"

هصرته حزحرة على أن قدَره لم يُمهله في باية ليعلن لها "سأموت مطمئناً لأنك صفحت عن زلتي".

"أجل!" هكذا، باعتداد العسكري فيه، هو كولونيل الزبربر: ذاتُ والده العارية من مسوح الحرب، خلال الحرب؛ ذات الإنسان الأخرى في شقائها الروحي بفعل الحرمانات، كما يمكن أن تُتَصور له ولجيله تحت نير الاحتلال، في عزلتها مذ قرر الصعود إلى الجبل حاملاً أيضاً بندقة العائلة وخراطيش الذخيرة. ذخيرةٌ، كما حدّثتِ العمة ملوكة، كان الجد سي المهاجي يصنعها في البيت من قطع مادة الرصاص بتذويبها وصبها في قوالب خاصة ذات أعيرة متوسطة أو كبيرة "الداموز" لردع الخنازير البرية عن إتلاف المحاصيل الزراعية؛ قبل أن تمنع سلطة الاحتلال عن الأهالي، غداة اندلاع حرب التحرير، شراء مادة الرصاص وأسلحة الصيد والخراطيش وذخائرها من "الصاشم" نفسه لصيد الحجل والأرانب.

لما كان كولونيل الزبربر حدّث باية أيضاً قبل ثمانية أعوام، في ليلة "أول نوفمبر"، عما عاناه جنود جيش التحرير، كان تصور لوالده بوزقزة، كما يقول، حرمانات أخرى: وثارة الفراش ودفء القرين ولذة الاستحمام

وسخونة الطعام وحرية التنقل وخدمة الأرض والحظوة بعناية الأهل "حال أشبه بهذه التي يحياها اليوم رجال الجيش والأمن في هذه المواجهة مع الشر!" حرمانٌ ولكن إلا من هذا الحلم الذي لا يُقهَر في النفس بأن تكون سيدة مصيرها. هذا ما يعتقد أنه ورثه أصلا من والده.

سنونَ ستٌّ التي قضاها مولاي بوزڤزة في الجبل، على درجة إيلامها وشقاوتها، كما قرأ كولونيل الزبربر وسمع ودوّن، كانت مثيرة بأدنى فعل، بأبسط كلمة على هامش الحرب، بهذه اللحظات التي يصفو خلالها الذهن حد الإشراق أو يغيم إلى درجة القنوط، بأفظع مشاهد القتال والموت والدم وآثار الحرائق والخراب، بهذا الإحساس بأن الحياة لا تزال مستمرة بعنفوانها لا تتوقف لها حركةٌ ليلاً ولا نهاراً؛ إذ هي، بقدر ما تثلمها الأحزان، تسخو على المظلومين بفرح آتٍ دائماً، حتى وإن تأجل: الفرح! ذاك ما رآه بعين الطفل الذي كانَه فهدهده خلال التهلُّل الأعظم. عاشه، تنفّسه، قبل خمسين عاماً.

الآن يشغله، هو كولونيل الزبربر، فيمَ كان مولاي بوزڤزة يفكر، ومن كان يتذكر أكثر: والدَه، الجد سي المهاجي؟ أختَه العمة ملوكة؟ زوجته رقية؟ ابنَه الوحيد "أنا؟ آه، يا أبي النبيل!"

زفْرته تخترق صدري.

ولماذا صمت مولاي بوزقزة، بعد أن أسكت العقيد شعباني رمياً بالرصاص قبل ثمانية وأربعين عاماً، كيلا يقول شيئاً آخر عدَا أنه كان رجع إلى الكازمة[11]، نهاية هذا العام الثالث ١٩٥٧ من الحرب، رفيعَ المعنويات لحصيلة خمسة قتلى في صفوف عساكر كتيبة المشاة السادسة وغنم أسلحتهم إثر أول كمين نصبه مع فصيلته قرب مدينة "پاليسترو" (الأخضرية، حالياً)؛ فصيلة أعاد تشكيلها، إثر ضخّه من جديد في الولاية الثالثة، بعد تجربة ضمن "كومندو عز الدين"، الذي نفسُه كان سلمه قائمة بأسماء جنود جُدُد منهم كلف ثلاثةً قادةً للأفواج الثلاثة، فحوّل ذلك خياره المسلَحَ إلى ما هو أبلغ من قناعة يمكن تفكيكها تحت أي إكراه.

11 مخبأ تحت الأرض.

"نزرغ فيك الروخ َعِذ ليَ كيف جرى حدثني بَلّي
جازوا عليك هموم"

٢

هنا في موقع الفصيلة في غابة الزبَزبر، نحن في العام الرابع ١٩٥٨ من زمن الحرب، انسكن مولاي بوزقزة نهائياً بهاجس الحرية. فقبل عامين كان حمل السلاح في زهو الشباب، في الخامسة والعشرين، فترسخ له إيمان بأن قدره إنْ هو أجاءه إلى هذه الدنيا في هذا الوقت الكئيب من بلوغ الاحتلال أعلى مراحله الاستبدادية فإنما ليخوض معركته، لا شيء غيرها، لإنهائه. إنه، من وجعِ تشنجٍ عزَاه إلى القلق، يسند ظهره إلى صنوبرة أبيّة الصمت "نحن نعيد تاريخ الجزائر إلى مساره. نحن نصنع حدثه الجديد".

فقبل ليلة صقيعية، متفقداً مراكز الحراسة، تَمثّل له التاريخُ، بين الأغصان المخللة بنور القمر، مخلوقاً هرِماً متهرئ الأسمال "أريدُ وجهي الذي أضعتُه في هذه الأرض. أبغي لباساً أنبعث به على أبدان الرجال والنساء والأطفال المنتظرين". ثم راح يتوارى عنه في تلاشٍ بطيء. فهتف من خلفه "سنَزفّ لك هذه الأرض لتكون ذاكرتَك".

لحظةَ تأمله الآن، داخل الكازمة المعتمة، في ما سيكون عليه يوم آخر من أيام الإصرار والخوف،

استوطن نفسَه صوتُ قدَر. في الفجر، جدده لنفسه. قاله لمسئولي أفواج فصيلته "حرب ذات طبيعة ثورية فرضناها على العدو فرضاً. نعاهد على أن تظل مشتعلة بأجساد الرجال والنساء. فلا مخرج منها صار ممكناً غير حسمها بما مات عليه رفقاؤنا". ثم أصدر إليهم "إنها أوامر القيادة. سننفذ المهمة. هيئوا الجنود".

وعلى خيوط الصبح الأولى، بين جذوع أشجار صنوبر وعرعار منتصبة كعوامد لصحن مقام في قلب الزبَزبر، خاطب جنود فصيلته، بما أحب أن يخاطبه به ضابط أو قائد، لو كان جندياً بسيطاً، بما شعر يقولُه لنفسه أولاً "الواجب ينادينا. نحن نقاتل بشرف الرجال. العالم كله يستمع لأخبارنا، يقدّر شجاعتنا. وهذه الأرض تُنصت لمطلبنا: الحرية! أنتم لا تعتدون على أي قانون. نحن نحارب من أجل إزالة القوانين الظالمة في حقنا. أنتم لا تريدون سوى تصفية هذا الاعتداء المتواصل على بلدنا منذ مائة وخمسة وعشرين عاماً. نعم، قرن وربع، الآن! هل هناك شعب في الدنيا قام لاسترداد حقه المغتصب لم ينتصر؟ نحن، بعزيمة رجالنا ونسائنا، هناك خلْفنا، بتضحيتنا القصوى من أجل هذه الأرض، سنوقف الزمن لينظر إلينا بقدر ما نحقق نصرنا، نحن!"

مثلَ ومضات برق من وراء غيم، ها هو يرى نظرات المستعدين أمامه، في شكل هلال، أشعَت "ستحفظ لكم

ذكراً مجيداً كلُّ شجرة وكل ورقة وكل نبتة في هذا الجبل وكل طير وحشرة وكل حيوان. كل روح من حولكم يحسكم ويراكم". أوقف نظره عند الجندي الشيخ، في نصف الهلال في استعداده بكبرياء الصخر، كما قبل كمين "پاليسترو" إذ نطق "حضرة القائد، نحن لا نملك نوعية أسلحة جيش فرنسا. لكننا نملك ما ينقصهم في المعارك: إيماننا بالنصر!" نقّل بصره من وجه جندي إلى آخر، في نصف الهلال الباقي. قال، تلك كانت قناعتَه "سنكون أكثر عدداً. سيحس كل واحد منا أن في ذاته أكثر من واحد". ثم أوعز إلى قادة الأفواج الثلاثة، بجنبه، رابح زواوي ولوناس خياط والحسين منصر، بالتحرك نحو الهدف.

مولاي بوزقزة، في ضُحى بداية هذا الشتاء الرابع ١٩٥٨، وقد وصل بفصيلته إلى حدود الموقع لفتح جبهة قتال على العدو لفك حصاره على سَرية من الناحية الأولى كانت تعبر للقاء سَرية ثانية قادمة من الناحية الثالثة لانتخاب قيادة لتنسيق العمليات العسكرية، يصدر أمره "جنود! سنمنعهم من إحكام الطوق على يمين ميدان المعركة".

دقّق بمنظاره انتشار العساكر هناك في السفح كجراد، مقدَراً أن مصالح العدو تكون علمت مسبقاً بلقاء السريتين المرتقب وإلا ما كان لهذه القوة أن تصبح هنا.

ها هي مجموعة من المشاة، ثلاث فصائل بالتقدير، أخذت في الصعود نحوهم. إنه هو وجنوده في موقع يعلو كل تحرك، متحصنون خلف الصخور، في الخشاشيب، فوق الأشجار.

تجنّب أن يتبين وجه هذا العسكري المتقدم نحوه أمام ثلاثة آخرين مطأطئين، إذ أطلق. أصابه. مال العسكري جانباً هامداً. اشتعلت نيران الأسلحة. هلَعَ الجنون. استمر التبادل للحظاتِ عشوائياً في الاتجاهين المتقابلين قبل أن يصير محدداً مدققاً مصيباً.

سمع صرخة هنا: أحد جنوده سكت موقعه. وأخرى هناك. وثانية. ونداء في الطرف المقابل "مَخمل! مُمرض!" فمدفعية الميدان المنصوبة في السفح كانت تدخلت منذ لحظات. انفجارات قنابلها خلف خط الفصيلة قادت "ت ٦"، الطائرة الصفراء كما ينعتها الأهالي، من بين الطائرات المقاتلة الأخرى، لاستهداف موقع التحصن. أطلقت في التحليقة الأولى زخات من رشاشها الثقيل قلمت تقليماً أغصان الأشجار الفاصلة بين الطرفين، وفي الثانية رمت روكيت انفجرت جانباً.

رفع صوته، فموقع الهدف الذي أمامه كان سكت نهائياً "الطيارة لا يمكنها أن تفعل أكثر من هذا. لن تعود. رابطوا!" وفيما المسافة بين الطرفين ضاقت إلى أقل من المائتي متر، فلم يعد في مقدور مدفعية الميدان

أيضاً أن تدك الموقع، كانت طائرتا "ب ٢٦" تتناوبان على صلْي قلب جبل الزبَزبر بقنابل النابالم حيث يتحصن تعداد السرِية المحاصرة.

صرخ نحو لوناس إذ خرج من وراء صخرته لأخذ سلاح قتيله "عندك، وراك!" فاستدار مواجها عسكرياً نفدت ذخيرته حمل عليه بحربة بندقيته نحو بطنه فتجنبه بمقدار شعرة في ربع حركة إلى الشّمال وعاجله بأخمص سلاحه على قفاه فتعثر وإذ نهض تلقى طلقتين في الصدر. جيوب المعركة الآن، مع تقدم النهار، إن هي سكنت هناك ازدادت ضراوةً هنا حدَّ الالتحام.

ثم ها هو ركض نحو لوناس، الذي خرج عليه عسكريان آخران بحربتيهما، فأصاب أحدهما بطلقة في البطن فألقى الآخر سلاحه ورفع يديه فصرخ فيه المصاب "يا غبي!" وبحركة يأس خاطفة استل خنجره وحز رقبته؛ فيما كبّل لوناس يدي العسكري الآخر وقاده إلى الخلف.

إنه الآن يراقب بمنظاره هذا الضباط يصرخ، كان صوته لا يصله، محركاً يده بإشارة التراجع، بعد أن لم يتمكنوا من زحزحة الفصيلة بهذا الهجوم أو ذاك مخلفين كل مرة قتلى وجرحى.

في اللحظة، اعتبرها لنفسه صدفةً، بل لمنطق الحرب، قدراً أنْ لم يطلب الضابط الفرنسي، الذي كان في

مواجهته، مدداً. لو فعل كانت الفصيلة لن تنسحب. ولكن لا أحد من الباقين منها كان سينجو. فثُلُث تعدادها، كما قدمه قادةُ الأفواج في تقاريرهم، كان قضى نحبَه؛ إضافة إلى مفقودين من بينهم محمد الجامعي – فإن القصف كان توقف بانكسار النهار. وخفَت حدة الترامي؛ إلا لعلعات متقطعة هنا أو هناك، قبل أن يتنفس الصمت. كانت السرِية الأخرى، التي دخلت ميدان المعركة من الجانب الآخر، شارفت الهلاك المبرَم على يد مشاة اللفيف الأجنبي والمظليين، قبل أن تؤمن انسحاب بقايا السرِية المحاصرة تحت قصف جوي جهنمي.

فمع من تبقى من فصيلته، خلال انسحابهم ناقلين هذا الجريح على الظهر مسندين آخر على المشي للعلاج في الموقع، كان مولاي بوزقزة اقترب من قلب موقع المعركة، الذي طاله القصف وامتص جحيم النابالم فيه كل حي وبدّد كل جماد، فهاله هو وجنودَه مشهدُ المتفحمين والمنقولين من المحرَقين على حمالات تقليدية من عيدان الأشجار المقلمة موصولة إلى بعضها بعضاً بحبال الدوم وببقايا قشَابيات وألثمة وعمائم؛ فوجوه الجنود الآخرين الناجين المسودّة بدخان المعركة وأذرعهم وصدورهم بدت أحلك تعبيراً، من

مشاهد الموت الأخرى والجروح، عن شراسة المواجهة وبشاعة الحرب.

في موضع تخييم عابر، قال لجنوده المتعبين الواقفين في استعداد "كانت ساعات بليغة القسوة هذه التي عاشها الزبَزبر. ولكن ها أنتم تَشهدون أنه قبل أربعة أعوام كان شَنبيط واحد يُذل مائة جزائري. واليوم، رأيتم فرنسا بكل تعدادها وسلاح مدفعيتها وطيرانها لم تستطع أن تزحزحنا. هذا يعني شيئاً واحداً، برغم خسائرنا: سننتصر!" ثم أوعز "استرح!"

بعد يوم، إذ عاد مع فوج من فصيلته إلى موقع المعركة الجانبي، فوقف على جثث رفاق واجهوا الزحف بصدورهم، عايَن، بألمٍ عصر قلبَه، مَن منهم مزّقتهم القنابل اليدوية خاصة. إثر دفنهم جماعياً، أنشد جنود الفوج، في استعداد، "من جبالنا".

أتخيل وجه مولاي بوزقزة الصارم. إني أردد معه "طلَع صوت الأحرار ينادينا"؛ كأني بجثبه ثمة في الزبزبر!

"هذا وظنك ولّا جِيث بَرّاني يا راش المحنة لله كلمني"

٣

يسجل مولاي بوزقزة أنه بعد مراسم حفظ العلم آخِرَ المساء، كان سأل في الكازمة العسكريَ أنطوان، الذي أسر خلال المعركة، لماذا رفض زميله الاستسلام، فأجاب "سيدي القائد. جون ماري، كان أحدَ الذين أذعنوا للدعاية". وردد، كما في هلوسة ""هل ترضون أن تجهز على أحدكم امرأة فلاقي بفأس تغرسها في رأسه؟ إنكم، حين تقعون بين أيديهم أحياء، يُحضرون نساء قتلاهم لفعل ذلك. إذاً، رصاصتك أو خنجرك لك أرحم!"" وصرف نظره إلى فراغ "بمثل تلك الكلمات كان القائد يحفزنا".

منقبضَ الملامح، شارد الذهن، تحدث أنطوان، كما لنفسه "كثير من رفاقي كانوا يقتلون للقتل بسبب الذعر، لا يميزون. بعضهم كان لا يزال تحت وطأة كابوس ديانْ بيانْ فو. يرش ناره في كل اتجاه على أي شيء يتحرك، كسراً لحصار الرعب من حوله". راجعاً إلى من كان لا يُزيغ عنه نظره، مضيفاً، بنبرة مَن استعاد رشده "سيدي القائد. ذاك كان إحساسي أنا أيضاً. شعرت دائماً أني أتحرك على أرض معادية لا شيء فيها يوحي بأمان. حيثما سرت رأيت الموت من حولي مكشراً. كنت أراه

في البشر والشجر، يأتي من تحت الأرض، من طفل من امرأة من الحجَر!"

ثم شد بيديه على رأسه العاري الحليق، مطأطئا "قادتنا.. هم الذين أدخلوا إلى أذهاننا أنكم مظهر من البؤس والموت، لذا وجب أن نبيدكم"، فنطق له الآخر، ببرودة "ومِن قبلهم اعتبرَنا الغزاةُ الأولون منهم مجرد مخلوقات على غطاء نباتي يمكن إزالتها ببرودة ضمير". رفع أنطوان رأسه، متلاشي النظرة "عجيب أن نُدين ما ارتكبه النازيون في حقنا ونأتيَ أفعالهم ذاتَها مع غيرنا!"

يذكر مولاي بوزڤزة أنه يوم سلّم الأسير أنطوان إلى مسئول الناحية النقيب حطابي الطويل، الذي كان سينقله إلى مقر قيادة الولاية لأنه مكلف أيضاً بمثل تلك المأموريات، قال له "أتمنى، إن كُتبت لك النجاة، أن تبلّغ مواطنيك أننا لا نعتدي على أحد. نحن، مثلكم مع النازيين، نحارب لنتحرر، لنستقل". كان أنطوان قبل ليلة تحدث أيضاً عن الاغتصاب الممنهج.

ها هو مولاي بوزڤزة، راجعاً طريقه نحو المخيم، يحدّث نفسَه أنه إنْ هو وأنطوان قرّبتهما إلى بعضهما بعضاً مشاعرُ إنسانية فإن العسكري الألماني هانس، وقد أصبح في حل من مسئوليته بعد أن حوله بيد النقيب حطابي نفسه قبل أشهر إلى مقر قيادة الولاية، إنما تسرّب إلى جيش التحرير، فراراً من فيلق اللفيف

الأجنبي؛ ليس لاقتناعه بشرعية حرب الجزائريين وعدالة قضيتهم، ولكن ليقف على معنويات التعداد، ويقترب أكثر من قيادة الولاية ليفتح وسطها ثغرة اقتناع بسياسة الجنرال.

كان هانس، الذي سبق للوناس مع ثلاثة جنود آخرين أن التقطه من بيت أحد الفلاحين التجأ إليه بعد أن رصده قايد بن عمر، قدم نفسه "حضرة القائد. أمامك العريف هانس فرانكل، من سلك اللفيف الأجنبي". فسأله "ضيعت طريق عودتك بعد عملية التمشيط؟" فتبسم بثقة، بدت زائدة، تثير الشك.

"– اخترت أن أقف إلى جانب أصحاب الحق.

– وما الذي حوّلك؟

– لا أذكر إلى الآن أني قتلت أحداً من الجزائريين.

– كان يمكنك أن تستقيل.

– جئت أعرض على المسئولين معلومات تهمهم.

– فقط؟

– يمكنكم الاستفادة من خبرتي.

– طبيعتها؟

– أفضل أن أقترحها على قائد الولاية.

– سيكون لك ذلك".

حينها، لم يملك سوى أن يهمس في ظهر هناس "ليس لدي دليل ولكن حسي يقول لي إنك في مأمورية

تخريب". فالتفت إليه وفي نظرته عبارة بقيت في حلقه "أعرف أنك تعرف. ولكن قائد الولاية نفسه لن يصدقّك". كان في قشّابية عاري الرأس بشعره الأشقر، بين جنديين، أمامه ثالث، وخلفه النقيب حطابي.

أهي ظروف الحرب هذه، بمخاوفها ونارها وآثارها النفسية، كما ناجى مولاي بوزقزة نفسَه، بعد أن فرغ من هانس، هي التي تُوهمه أحياناً أنه يقرأ في سريرة من يقابله بقناعٍ خلْفه وجهٌ آخر. ثم عزَا الأمر إلى إرهاق يبلغ منه غالباً درجة الهلوسة الصامتة بفعل الحرمان كله وانتظار لحظة حلول السلام البعيدة القريبة.

فشكُّه في هانس ظل، مثل دودة، يأكل من مخه إلى أن تخلص برفع هذا إلى قائد الولاية "إن كانت هناك سلْم يريدها الجنرال فهي التي تُحقَّق بإرادتنا. وإن وُجد شجعان يعرفهم الجنرال فهم من لن يضعوا السلاح أبداً إلا ببلوغ حربنا التحررية غايتها". واجداً إياها خيانةً التفاوض مع السلطة الاستعمارية بشكل انفرادي ومن غير موافقة القيادة السياسية، مهما تكن رتبة المفاوِض ومسئولياته. قال ذلك أيضاً لقادة أفواج فصيلته الثلاثة.

ها هو في اجتماع عسكري لاحق، يعتبر لقائد الولاية "الانفراد بالمبادرة السياسية هو ما ينبغي ردعه". وتأسف له على الحكم على جندي بالذبح، لأنه أقام علاقة مع جندية أخرى. أو بقطع أنف أحدهم أو شفتيه،

لأنه دخن سيجارة أو شرب خمراً. أو بحزٍّ أذن آخر، لأنه اتهم زوراً بتلقّطه أخباراً للعدو. أو أن يحاكَم ضابط، بناء على وشاية كاذبة، لتصفية حساب. ثم يعدم آخر، لاتهامه بضلوع في مؤامرة، لأنه ناقش رأي قيادته في أولوية من أولويات الحرب. فرد القائد، بنبرة تحذير "ولكن ها أنت تناقشني في ما هو أكبر من أي أولوية: صلاحية الأوامر". قال الآخر "أفعل هذا بعد تنفيذها". فاكتفى القائد بهزة رأس إيجابية.

"يا ذا الراش الفاني غْريبتك صهدتنا يهديك الله
كما صاز خبّرني"

٤

"حربك، حرب شعب: نهايتها لن تكون مختلفة عن نهايات الحروب العادلة كلها". لأن مولاي بوزقزة يرى نفسه يتعدد؛ إنه وجه الآلاف، مئات الآلاف، هؤلاء الملايين الذين يصمدون. سجل ذلك في لحظة استلقائه القصيرة في الكازمة، إثر عودته صباحاً مِن تفقُّد حال جرحى الإصابات غير البليغة بعد أن راقبها الطبيب الطاهر، الذي كان قايد بن عمر ينقله من المدينة مساء السبت غالباً فيعود به مساء الأحد ليصبح في عيادته، ووصف للممرضة زهية الأدوية والنصائح التي تلتزم بها تجاههم في الكازمة أو في الخيمة المنصوبة للغرض – أياماً من قبل، كان الطبيب الطاهر في الكازمة قد أثار مولاي بوزقزة بُغية الاطمئنان على فعله هو: يبدو أبيض البشرة وسيماً أخضر العينين؛ نموذج المولَّد الجزائري.

"– في الأحياء المحيطة بالمدن، العاصمة خاصة، يلاحظ عند إخواننا روح تضامن متينة. يبدون مستعدين جميعاً للتضحية من أجل الهدف النهائي.

– هذا أمر يزيدنا هنا عزماً.

– قلت هذا لرفقائك في نواحٍ أخرى: وحدتكم أمام العدو هي التي تصنع تلاحم الشعب.

– لو حدثتني عنك.

– أنا؟ الطاهر سنوسي. ولا شيء خارق في حياتي.

– ولو!

– درست الطب في جامعة الجزائر. غادرت إلى فرنسا. ثمة تزوجت. وقبل سنتين رجعت. كان علي أن أختار موقعي.

– إخواننا وأخواتنا وأطفالنا في كل مكان متروكون لقدرهم، حقاً. العول عليك وعلى أمثالك.

– كلما فحصت أحدهم، وأنا أسأله بلغته العربية أو الأمازيغية، رأيت في عينيه نور أمل وعلى شفتيه سؤالاً "هل سيكون لنا أطباء من جلدتنا؟" ذلك من بين ما كان يلهمني مزيداً من الشجاعة.

– من دونهم يذوي لهيب هذه الثورة.

– منهم ترسخت قناعتي بأن هذا الظلم يجب أن يزول بقوة السلاح أيضاً.

– ما نخشاه أن يصيروا مركز جذب بيننا وبين العدو.

– أبداً، ولو أن العدو يسخر لذلك وسائل دعائية ضخمة. هناك شيء في داخلهم تحول نهائياً. يمكن أن تقول إنهم تخطوا عقبة الخوف. وحلمهم بانتصار القضية صار أكبر وأكثر قرباً من الحقيقة.

– بفضل سند أمثالك.

- واجب! الطب، في حرب تحرير كهذه، لا يقل أهمية عن السلاح. والطبيب في خضمها يمنح الثقة في شرعيتها.

- وبتضحيته أيضاً؛ لأنه يمكنه أن يفقد في لحظة واحدة امتيازاته إن لم تكن حياتَه.

- لا مفر من ذلك لتحقيق ما قام من أجله شعبٌ وُلد الطبيب بين أحضانه وسط هذه الآلام.

- ألا تخاف؟

- قليلاً؛ لأن زوجتي فرنسية وهي تعلم ما أقوم به.

- أتركك تخلد قليلاً للنوم. أمامك، بعدَ ساعتين، مسافة مشي.

- تعودتُ. ثم إني سأعوّض."

فإن المصابين الآخرين غالباً ما يُنقلون إلى عمق التراب التونسي حيث مستشفى الجبهة في غارديماو؛ خاصة أولئك الذين تستدعي حالاتُهم الجراحةَ، كالكسور والاستئصال، أو تتطلب الاختصاص النفسي، كحالات الهذيان والصرع والهوس والاكتئاب - هذا جندي لم يفتأ لأيام يردد في غفواته كلمات مضطربة وينطق بما لا يراه إلا هو من صور مشوشة "دم، دم. ذبحوه. انهض.. يا كلب. سيقتلني. اهرب. الوادي، الوادي حامل".

قبل أيام، كان رابح هو مَن لفت انتباه قائده "حضرات، الجندي عادل وردي صار لا يبادلنا الحديث. كأن شيئاً ما خارجَ ما يحيط بنا يشغله. أعفيته من أي عمل، لأني وجدته نائماً في مداومة حراسة. وجردته من سلاحه، لأنه قام ولاحق به شبحاً صاح خلفه ثم أطلق طلقتين".

كان عادل شاباً، في الثامنة عشرة، ذا عينين قاسيتين وفك عريض وبشرة بلون القمح الصلب، يوم أدّى أمام قائده اليمين لدى التحاقه بفصيلته "أقسم بالله العظيم أن أقاتل حتى الاستشهاد من أجل تحرير الجزائر وأحفظ السر وأصون الأمانة". إذ سلمه السلاح، بعد فترة تدريب مع الجندي الشيخ مقْري، بدا له شيء في نظراته يشده إلى أمر عالق، تكون صورٌ منه ثارت في ذهنه لحظتها. لكنه سرعان ما ابتهج وهو يقلّب بندقية من نوع العشارية.

ها هو الجندي عادل يقعد على حجرة منزوياً مكتئباً فاقداً كثيراً من ملامحه إثر نوبة هيجان ثانية مفاجئة أصابته، صدم خلالها كل ما كان أمامه، صارخاً "ذبحها.. أقتله!" باحثاً عن سلاحه فطوقه جنديان لتحقنه بجرعة مورفين الممرضةُ زهية؛ هي التي أخبرت القائد "مسكين، عادل ولد الوردي. يا لَجمال أمه! كان في الخامسة عشرة لما اغتصبها أمام عينيه أحد العسكريين،

بعد أن قتل والده برصاصة في الجبين لأنه هجم عليه بمذراة، وذبحها من الوريد إلى الوريد، لأنها ضربته في الظهر بفأس. وبمعونة عسكري ثانٍ، قيّد عادل، بعد عراك، إلى جذع كرمة الحوش ليغتصبه لولا تدخل ضابطهم. جدتي، التي كانت حاضرة، روت لي ذلك. كانت قريبة لوالدة عادل من ناحية الأم". وقع ذلك في حملة تمشيط أعقبت هجمات العشرين أوت ١٩٥٥.

عادل يبحث بنظرات شاردة عن شيء ما حوله؛ كأن قائده، الذي قرر، قبل حين، تحويله بناء على فحص من الطبيب الطاهر، ليس بجنبه.

"– أين أنا؟

– معنا، هنا في الزبَزبر.

– في أي تاريخ نحن؟

– في العام الرابع.

– كان سيغتصبني أنا أيضاً. كان سيغتصبني.

– أنت معي.

– ها هو. ذبحها!

– نحن نلاحقه.

– لماذا لم أقتله؟

– ستفعل.

– سلاحي؟

– انظر إلي. أنا قائدك.

– سي بوزڤزة!

– وأنت عادل ولد الوردي.

– لماذا أنا تعبان؟

– أنت في حاجة إلى نوم.

– هل نحن في رمضان؟

– قريباً سيكون العيد.

– البارح، أمي ربطت لي الحناء في كفي.

– ما ذا تحب أن تأكل.

– أريد أن أتمشى.

– ياالله".

"هذا وطنك ولّا جيت براني يا راس الهَانَا[12] لله جاوبني"

12 المهانة.

في الغد، لم يكن وجد ما يعوض به عن قساوة الحرمان غير الكلمات. خلال استراحة مسيرة، تكلم، لشد أزر جنوده "نعتبر أنفسنا في سفَر طويل محفوف المسالك بالمهالك ملزمون بقطعها نحو غايتنا". واستدار بخطوتين، رافعاً وجهه للسماء. ثم تولى إليهم "حربٌ نفسية شرسة هذه التي تُشن علينا بوسائل لا قِبل لنا بها غير الاتصال المستمر بالأهالي لانتزاعهم من قبضة مصالح المكتب الخامس، لجعلهم في حال انتباه دائمة للاستماع لرسائل ردنا؛ تلك التي لا بد أن تصلهم من الميدان عن عملياتنا المسلحة". وادّخر على لسانه أن واقع الحرب النفسية مؤلم ناخرٌ أشد تأثيراً من أي إصابات في الصفوف؛ واقعٌ يُفقده اللغة، ينهش قلبَه ويظرق عقله ليفتحه لشبح الشك في انتصار قضيته.

ها هو أنّى أطلق بصره عبر المنظار، خلال نهاية هذا النهار، تقاربت إليه آثار الحطام والحرائق والصمت "ها يد السلام، كما تنشره الدعاية، لا تبسط على الطبيعة والأهالي إلا حديداً وناراً، حزناً وخراباً". إنه ينزل بجنوده، بعد تأمين المسالك، لخبرته بأن العدو لا يغامر غالباً ليلاً، ليتفقد أحوال السكان ممن لم يُرحّلوا بعدُ من دواويرهم[13] في المنطقة.

13 مفردها دوار. تجمع سكني ريفي متناثر.

٥

سجّل مولاي بوزقزة، يبدو ذلك مثل نبوءة، أن فدية هذه الحرب ستكون أكبر من أي توقع وأن الناجين منها لن يحفظوا لضحاياها عهداً، إلا قليلٌ منهم. ذلك ما جدد له الشعور بالكآبة، أكثر مما كانت أصداء الحرب الأخرى، ذات التخريب النفسي، تشغله. إنه ينصت، وسط ظلمة الكازمة، لقزقعة قلَقِه. إنه لا يذكر أنه نام عميقاً ساعة واحدة حتى في هذا الفراش أو ذاك، عند هذا الفلاح أو ذاك أحياناً؛ مثلَ جنوده، لا يفترشون في الجبل غالباً غير التراب وأوراق الشجر والتبن، ولا يتوسدون غير الحجر وقِطع الجذوع؛ إن دهمهم جوع، وقد نفد خبزهم اليابس، عوضوه بالبلّوط، وإن ناموا فعلى عين واحدة، كما تفعل حيوانات ليلية تعرفهم ويعرفونها.

مؤرَّقاً بتفكيره، كما في ليالي سزيِه مع فصيلته عبوراً أو لتحضير عملية أو انتقالاً تمويهياً من موقع إلى غيره أو استظهاراً فحسب لوجود فصائل جيش تحريرٍ بعدده وعُدته، بات ليلة أخرى منشغلاً أيضاً بثنائية هذه الحرب التي تحرمه، كما جنود جيش التحرير جميعاً، ما يسند التوازن: النوم والأكل والحب.

بالوجع في روحه، يقابل الآن هؤلاء الرجال، أولئك النساء. يسمع أصواتهم الواثقة، في هدوء، عن أحوالهم. هذا كبيزُ العرش، عزوز بن علي، الذي يبدو كلُّ مَن مِن حولِه قهرَ مِن على ملامحه أيَّ تظلم، يقول "نحن بخير، لا تخافوا علينا. نحن ننتظر النصر". فمظاهر عوزهم جميعاً تنوب عن أيّ شكوى. وهذه المرأةُ، غير الشابة غير العجوز؛ امرأة فحسبُ، بوشم جذع بفرعين بين عينيها المشعتين بشرارتين من قبس الميلاد وطائر هو حمامة ونصف دائرة هو هلال على خديها المتأبيتين عن الضمور وبين شفة امتلأت لعشق وبين ذقن نُحت لهِمَة خطّان تعاقفا مثل كلمة "لا"، تُعلي ثقتها "بطني لا يزال قادراً على إعطاء جندي آخر". إنها تلتفت خلفها في ثبات ووقار "وفي هؤلاء من يستطعن ذلك أيضاً. ومن ينسجن لكم القشّابيات والثّقاشيز[14]. ومن يفتلن الكسكسي ويعصرن الزيت ويجففن الزبيب والتين!"

14 جوارب.

وهنا، في ما يشبه ساحة الجماعة، تقابله وجوهُ هؤلاء الأطفال، برغم أعراض السل الفاتك على بعضها، انشرحث. عيونهم تتبسم له ولجنوده. خرج منهم واحد، متقدماً منه. أدى، مستعدّاً حافي القدمين، تحية عسكرية. مد له بندقيته فصوّب نحو عدو قادم.

إنه يتمتم ما حدثته به نفسه "فلتصبك الآن رصاصة. لتمزقك شظيةُ قذيفةٍ! سترحل مطمئناً".

فثَمةَ، أريكته، حدّ أنْ تعرّق برغم برودة الخريف، كلماتُ عزوز بن علي فتمنى لو أنها كانت موجهة إلى الجندي رابح زواوي، فهو يشبهه؛ وكان هو من قال ذلك في حقه "هكذا يعتقد كل من رآك في الدوار، حتى الحريم من خلف الستائر، حتى الأطفال: طلعتك فاتنة. لشعرك لون الخرّوب. وجهك أبيض كما بدر الصيف. قوامك رشيق. وفي لباس الجندية هذا أنت أكثر جاذبية. في عينيك نور يثقب سُمك أي ظلمة. من أمامك ينسحب الخطر. من حظنا العظيم أن يعطّر دُوارنا مجاهد مثلك". فنطق، على خجل "بلاغتك ساحرة. أنت شاعر!" ثم أوعز إلى جنود الفصيلة فتفرقوا على الجيران للعشاء وقضاء جزء من الليل.

على نور كانكي، كان سي عزوز بن علي جاء يوقظه قبل الفجر كما أوصاه، وكان استيقظ، فهمس له "فيكم، يا سي بوزقزة، من نور الملائكة". فرد عليه، عامر الصوت "ما دامت قلوبكم مشتعلة للحرية!"

لما ثبّت مولاي بوزقزة سلاحه على كتفه كان ذهنه انسكن بالاشتباك الحتمي، قبل حدوثه على بُعد ساعات قليلة، بين فصيلته وبين رتل قافلة عسكرية محملة بالمئونة وبالذخيرة، حسب المعلومات التي أوصلها له

خيط الاتصال – قايد بن عمر الذي سبق أن اقترحه النقيب حطابي على رفيقه مولاي بوزقزة في بداية العام الثالث ١٩٥٧ لكونه يملك قدرة استثنائية على الانسلال من رقابة العسكر وعلى مغافلة المخبرين كعفريت يتلون ويتموه لا يحمل أي سلاحٍ حيطةً بينه وبين الفصيلة كيلا يكتشف في حال توقيفه فهو يدخّن ويخمّر من حين لآخر لدرء الشبهة عنه ويتكلم الفرنسية لحيازته الشهادةَ الابتدائية بلكنة الأقدام السوداء[15] الذين يدوّرون حرف الغين إلى راء ويتحرك في محيط يعرف تفاصيله كما جيبه.

15 خليط المدنيين المهاجرين من الأوروبيين، خاصة الفرنسيين والإسبان والإيطاليين والمالطيين واليهود الوافدين، الذين استوطنوا الجزائر خلال الاحتلال (١٨٣٠ – ١٩٦٢).

كان مسار القافلة العسكرية يمر إلزاماً عبر طريق الكمين، المبرمج نصبه في "مسلك الموت"، نحو المركز الأحمر: للون قرميد سطوحِه، الذي من رأس جبل الزبَزبر يمكن، كما كان مولاي بوزقزة فعل قبل أيام بالمنظار الميداني، رؤية ساحة بنايته المستطيلة، وسط مربع كروم داخل حقل زيتون شاسع، يتحرك فيها عسكر "كومندو كوبرا" من اللفيف الأجنبي.

إنه الآن وسط جنوده يقدّر لهم، قبل بدء المسير نحو موقع الكمين، أن خسائر فصيلة الجيش الفرنسي

المرافقة، إن نجحت المباغتة، ستكون مؤلمة.

كانت أشعة شمس ذاك الصبح الخريفي تسقط في عيون سائقي مركبات القافلة العسكرية لما تشظى زجاج الأولى منها وانفشت عجلات مركبتين أخريين واشتعلت النار في محرك ثالثة، فيما تراجعت أخريان، على إطلاق نار كثيف متقاطِع وتفجيرات قنابل يدوية، وسط صراخ المباغتة وفوضى الرد وأنين الإصابات والركض هنا وهناك وسقوط هذا وذاك قبل الاختباء أو أخذ موقع للدفاع. كانت المفاجأة دامية ماحقة.

الآن يضبط مولاي بوزقزة في تقريره إلى القيادة "مذياع وصندوق من الذخيرة الحية وآخر من قضبان الديناميت وقنابل يدوية ورشاش FM من عيار ٢٤/٢٩ ورشاشات خفيفة من نوع ماط ٤٩ وطومسون وبندقية تدقيق من نوع ماص ٥٦ وبنادق أخرى من صنع أميركي من نوع كرابين؛ ما حاصله اثنتان وعشرون قطعة، بعدد المقتولين، سنحتفظ بها". فإن قادة أفوج فصيلته كانوا أجمعوا على استبدال تلك القطع بما لدى الجنود من أسلحة غير متطورة، أعادها للقيادة، التي كانت توزعها غالباً على المسبّلين[16] والفدائيين.

16 مفردها مسبل. مدنيون يعملون لصالح جيش التحرير وجبهة التحرير.

غداتها، حمل بندقية من نوع ماص ٥٦ إضافة إلى مذياع مزود بهوائي؛ عبر أمواجه صارت تصله أصوات تلك الحرب الأخرى، حاملة في نبرتها انتصارية "نحن نعرف أنكم تلتقطوننا. انظروا من حولكم. قواتنا من ورائكم ومن أمامكم ومن فوق رؤوسكم. لا حل لكم غير إلقاء السلاح"، معبِّئة جيشاً نظامياً "ضباطَنا، جنودَنا! أنتم الذين تنشرون السلم في الجزائر، جزائركم الفرنسية. استعملوا كل وسيلة، كل سلاح، للقضاء على المتمردين قطاع الطرق. لا تترددوا تجاههم هم ومن يؤويهم. فأحياناً تفرض الحرب منطقها. من أجل الجزائر الفرنسية تدمرون العدو ومحيطه ومجاله الحيوي. نحن نعرف بسالتكم هناك في الجبال وفي "البِلاذ" حيث تواجهون قوة الشر. اطمئنوا: عدالتنا ستتركّكم تقومون بحربكم. لا تنسوا هذا: أتلفوا، مقابل كل عمود تلغراف مقطوع، خمسين شجرة زيتون أو تين أو لوز. واحجزوا ألف رأس غنم وماعز عن كل سكة حديدية مخربة. وكل مشتة[17] أو دُوار تواطأ مع الفلاقة وجب دكُّه. بالجزائر فرنسيةً، تعظم فرنسا الأم!" فتعجب لنفسه "حدٌّ هذا الحقد!"

17 كلمة معروفة في الشرق الجزائري. تجمع سكني ريفي من الأكواخ، غالبا.

وليلاً، خارج الكازمة، كما كلما صار ذلك ممكناً، وجه المذياع غرباً وأدار زر المحطات على شريط الموجات القصيرة، فنبع الصوت الجهوري النحاسي النبرة في الثامنة ليلاً بالضبط: "هنا إذاعة الجزائر المكافحة، صوت الجزائر الحرة، صوت جبهة التحرير، تخاطبكم من قلب الجزائر". وارتج المذياع، في أقصى درجة صوته، لارتفاع نشيد "من جبالنا" فثبت مولاي بوزقزة واقفاً استعداداً إلى أن عاد صوت المذيع ممتلئاً فخما "وفي ما يلي فقرات برنامجنا التي ستستمعون لها: كلمة اليوم عن دعم الدول العربية في الأمم المتحدة للقضية الجزائرية. أنباء من ميادين المعارك ضد العدو. شخصية اليوم التاريخية: تاكفاريناس مقاوم الرومان. قصيدة اليوم: "وتكلم الرشاش جلّ جلاله"[18]". كان ذلك بعد سنتين على البث الأول في العام الثاني ١٩٥٦.

18 لشاعر الثورة الشهير: مفدي زكرياء.

أتخيلني أشعلت المذياع. سرّيتُ إلى تلك اللحظة فسمعت رنين ذاك الصوت النحاسي الخالد. أنا الآن أعرف أنه كان صوتَ السيد عيسى مسعودي.

أياماً على حملة التمشيط، التي تعرضت لها مناطق "پاليسترو" الريفية إثر كمين "مسلك الموت" فهدم العسكر وأحرق البيوت ورحّل سكانها، كان مولاي

بوزقزة، على إنهائه قراءةَ رأي أحد المستشارين في جريدة **فرنسا الجديدة** "يجب أن نحاول المستحيل من أجل القيام بترقية السكان المتخلفين؛ ليس بأن نقترح لهم وسائل الرفاهية للحياة العصرية التي نفخر بها، والتي لا ينشغلون بها في بؤسهم الحالي، ولكن من أجل أن نعيد تشكيل بِنيتهم الذهنية بصفة متدرجة". تَعجب لقايد بن عمر، الجالس مثله على حجرة، مسنداً ظهره إلى جذع عرعارة "الآن يفكرون في استئصال أدمغتنا واستبدالها بأخرى يحضّرونها في مخابرهم". فابتسم الآخر "قبل ذلك، عليهم أن يلقوا القبض على عشرة ملايين جزائري!" فسرح عنه ممسّحاً عينيه بأشعة شمس الضحى المتلألئة خلال الأغصان "النازيون، قبلهم، حاولوا شيئاً من ذلك مع شعوب أخرى".

كان قايد بن عمر قدم له ليلاً في الكازمة، زيادة على بعض الجرائد، ما جمعه من شعارات تلك الحملة منقولة بالحرف أو كما هي منشورة على كل حائط قائم "ربع الساعة الأخير" وعلى الصخور "سلم الشجعان" وبرشم "صليب الجنرال" المسمر على جذوع أشجار الطرقات، فأضافها إلى مناشير أخرى كانت طائرات الاستطلاع رمتها مثل ندف الثلج حاملة "في الولايات الأخرى يتم تجميع السلاح استعداداً للاستسلام. لم يبق غيركم أنتم".

فقد زادته قلقاً أصداءُ لقاءات ضباط الفرقة الإدارية المتخصصة SAS "لاصاص" والمتعاونين الأوفياء لهم، يتقدمهم الحزكي[19] قئون، مع الأهالي في المحتشدات وفي الأسواق الأسبوعية وفي القرى المطوقة بالتحصينات العسكرية، لتثبيط معنوياتهم، كما نقل له قايد بن عمر. وتململ لضآلة ترتيبات الرد المنتظر. وأشقى روحه أن يساور أولئك الأهالي شعورٌ بالتخلي عن قضيتهم.

19 الجمع منها حركى. صفة أطلقت خلال حرب التحرير على الخونة؛ خاصة من الذين حملوا السلاح ضد مواطنيهم من الجزائريين.

في اجتماع لقادة الفصائل، كان بلَع، على مضض، إجابة قائد الولاية "نحن لا نملك الوسائل والموارد الضخمة التي يوفرها العدو لمكتب الدعاية الخامس". فإنه كان استنجده مَدداً لمواجهة قلة الفعالية وبطء الرد على الحملة.

ولأن مسئول الاستعلامات والعلاقات العامة تأخر عنه أيضاً في الرد على طلبه معلومات أمنية، كان جمع قادة أفواج فصيلته "خيط الاتصال متأكد من أن مركز الحراسة في قرية هِني سيُموّن غداً أو بعد غد. لا يمكن أن يمتد الفارق المعتاد إلى أكثر من ذلك. حضّروا الجنود للتحرك. عند أول الصبح سنكون أخذنا مواقعنا على جانبي الطريق عند نقطة عين العسل".

لما راقب ساعته اليدوية، مشيرة إلى الحادية عشرة وثلاث دقائق في يوم مشمس، كان شخير المحركات صار أكثر قرباً. قام مموِّها، كبقية جنوده، بأغصان متماثلة مع غابة الموقع الكثيفة. تلقى إيماءة تأكيد بخرقة حمراء من رابح الراصد فوق الهضبة. أشار إلى لوناس. ارتفع مرتين نعيق غراب. أطلق. أصاب سائق سيارة الجيپ، التي كانت تتقدم القافلة، فحادت هاوية بثلاثة عسكريين آخرين تشتتوا في كل اتجاه، فيما خرج من المركبة الأخيرة المصفحة، تحت وابل نيران متقاطعة وقنابل يدوية مفجرة وأخرى حارقة، أربعة عسكريين أُخمدت حركتهم قبل أن يطلقوا رصاصة واحدة؛ مثلهم مثل سائقي شاحنتي المئونة الوسطانيتين ومرافقيهما.

كان التقرير الذي أعده مولاي بوزقزة عن العملية، التي استمع في الليلة التالية لِنبئِها على أمواج "إذاعة صوت الجزائر الحرة" وسط حلقة جنود فصيلته، هو ما حفزه على أن يختمه بملاحظة "ولكننا نملك الإيمان والعزيمة وروح التضحية". فكلفه ذلك من قائد الولاية توبيخاً "لاحقاً، امتنعوا عما لا يدخل ضمن اختصاص مسئوليتكم". ابتسم "حضْرة القائد، اطمئنوا، فليس يحركني أي طموح". وكتب يُخبره "كما كنتُ أتوقع، فقد التحق بصفوفنا تسعة شبان وكهول من الدواوير القريبة

من محيط مسرح العملية. يجب أن أنوّه لكم بعمل خيط اتصالنا في هذا الصدد". وأرفق الرسالة بأسمائهم.

"شرقي ولّا غربي يا كثير المحنة ولّا قبلي[20]
جِيث مسافز لوظني"

20 جنوبي.

٦

لاستقلاليته النسبية في الحركة وزهده في التقرب من قيادات الجبهة، طمعاً في استحقاقٍ ما، أمكن لمولاي بوزقزة أن يأخذ مسافة أرثه أن بعضهم، بصرف النظر عن شجاعتهم وذكائهم وإخلاصهم، إضافة إلى وقوعهم تحت تأثير إملاءات جهات تطلب مقابل مساعداتها ولاءً أيديولوجياً، ظلوا أسارى نظراتهم الضيقة، حبيسي نعراتهم الجهوية ومعطوبي النفوس بحسدهم وغيرتهم. فقد سجل أنه تحدث بذلك أيضاً مع النقيب حطابي.

في الكازمة، ها هو يقول لهذا الطالب الجامعي، الذي التحق بصفوف فصيلته بعد سنتين من إضراب ١٩ مايو ١٩٥٦، بِيدِ قايد بن عمر.

"- عاشور، ما جمعته عنك يؤكد حسن سيرتك ونقاوة تاريخ عائلتك. هذا وحده يجعلني لا أشك لحظة في قناعتك.

- حضرة القائد، اخترت أن أحصل على شهادة وطن، كان يمكن لي أن أحصل على غيرها من جامعة تركتها بإرادتي.

- أقدّر ذلك.

- أحس بالاطمئنان إليك، حضرة القائد.

– يجب أن تثق أكثر في القضية العليا.

– كل القضايا الكبرى، حضرة القائد، يثيرها ويموت من أجلها رجال أمثالكم.

– كما أنتم أيضاً، لأنكم هنا تتعلمون ما معنى أن يكون لك وطن تموت من أجله.

– أنتم الذين تصنعون هذا التاريخ.

– وأنتم هم رجاله للغد. المستقبل لكم.

– حضرة القائد، كنت أحسّ أني تخلفت كثيراً.

– المشكلة هي أن لا نحاول أن نستدرك.

– بدأت مسيري، حضرة القائد، نحو هذه الغاية يوم عدت آخر مرة من دار جدتي في الريف. كنت أشعر بغصة في الحلق وعضرة في القلب، وأنا أرى الحال التي عليها أهالينا من الفقر والمرض والضياع.

– لذلك لم يعد الغضب وحده يكفي.

– قلت: لا بد أن يتوقف هذا الظلم!

– عزيمة أمثالك هي التي تعجّل بإنهائه الآن.

– الكولون[21] بغطرستهم والأقدام السوداء بعنصريتهم والبوليس والعسكر بقمعهم يُظهرون تحالفاً

– لأنهم جميعاً يدركون الآن أنهم هم الغرباء في الجزائر.

– إضراب ماي لم يكن سوى القدحة التي أشعلت في روحي أن أكون في صف شعبي.

– لأنها ثورة لا تترك أحداً في حياد".

شغلني أن أقرّب إلى ذهني صورة هذا الطالب الجامعي أكان يحمل القلب نفسَه الذي حمله طلبة ما بعد الاستقلال، وحملناه نحن الذين زلزلت المحنة الوطنية في وجداننا كثيراً من أساسات يقيننا؛ ما ذا كان يلبس ويقرأ؟ بم كان يحلم؟ ومن كان يحب؟ وكيف كان يواجه، لا محالة، عنصرية الأقدام السوداء؟ ومَن مِن أولئك كان المفترض أن يكونوا أصدقاءه؟ وماذا كان مصيره خلال الحرب، بعدها. يا إلهي! كم هي مرعشة لمفاصلي أن أتصور طالباً مثله غادر الجامعة طوعاً ورفع السلاح من أجل تحرير بلده!

كان مولاي بوزڨزة كَلف عاشور حمداش تعليم الجنود الأميين القراءة والكتابة والحساب. وفي لحظات الاستراحة كان يستمع له يحدثه عن تاريخ جنرالات الاحتلال وعن الآداب العالمية والكتاب الإنسانيين، الروس منهم خاصة، ويقرأ عليه غالباً من شعر لوركا وأراغون ونيرودا وناظم حكمت. ويبدي له ولعاً بالمتنبي أيضاً.

وفي رسالة رد محمولة لقائد الولاية، كتب "إن كنت لا أملك غير تنفيذ الأوامر الصادرة إلي بتحويل الجنود الخمسة الملتحقين من الثانويات: سليم، حسيبة، مراد. ومن الجامعة: لعربي ونذير، فإني ألاحظ أن مثلهم هم الذين يضطلعون غداً ببناء دولة الاستقلال". ثم سحب نفَس اطمئنان عميقاً، لأن الجندي عاشور لم يكن مطلوباً ضمن القائمة. فبعد أيام قليلة كان حوّله، برسالة، إلى قائد الولاية السادسة الذي، بحسب ما بلغه عنه من النقيب حطابي مرة، كان يفتح ذراعيه للجنود المتعلمين.

عاود قراءة الفقرة التي حذفها، متخيلاً مصير أولئك الطلبة المحتمل "تمنيت لو أن الوقت أمهلني كي أتحدث معهم لأعرف نواياهم. فلِسنّهم، حتى ولو أُعتُبروا مندسين من أنصار الجنرال لزرع فكرة "سلم الشجعان"، كان يمكن تطهير أدمغتهم. سيظل ذنبهم هم وغيرهم، ممن يحملون تعليماً عالياً، هو أنهم وجدوا أنفسهم أمام قيادات لا تستوعب أحياناً أسئلتهم ولا وجهات نظرهم، كلما تعلق الأمر بمشروع بناء دولة ما بعد الاستقلال".
ثم أحرقها.

وفي نهاية هذا العام الخامس ١٩٥٩، كان سجل، إذ أبلغه المحافظ السياسي مآل الطلبة الخمسة "تعذيبُهم إلى حد إقرارهم بما لم يكونوا أبداً فعلوه أو فكروا فيه،

طلباً لاستراحتهم بموت يخفف عنهم ما لم يكن جسد أو روح يتحمله، عملٌ غير إنساني يمس بمصداقية أخلاق الثورة ويوهن الصفوف ويفتّ في المعنويات".

ثم تمدد لإغفاءة، بشعور أنه رهن لمحراب الحرب جسده وعقله وروحه، مثل راهبٍ لدير. لم يُجدِه أنه واسى نفسه، بأنه لا ريب في أن تكون هناك التحاقات أخرى بصفوف الجبهة، كما ارتدادات منها إلى العدو. سحب ڨلمونة[22] قشابيته على رأسه "يا لَهذه الحرب القاسية!"

22 الجزء الأعلى من الجلابة، في شكل مثلث، يطلق خلف الظهر. يستعمل لتغطية الرأس عند الضرورة.

تحول بجنبه يميناً وشمالاً من غير أن تأخذه غفوةً لِمَا أحسه مثل أذرعٍ آلية تنقر مخه بصورة هذا الجندي الذي فر من عذاب ذاك الجحيم. ها في سكون الكازمة وعتمتها، يقف عليه شبحه بهيئةٍ كان ودّعه عليها مبتسماً، غير تلك التي استقبله عليها، قبل أيام، في حال قصوى من الإعياء والجوع والهلع - كان ذا مولود آيت زاهي أحد مرابطي زواوة[23] وسليل هذه العائلات الجزائرية التي صانت شرف أجدادها وواجهت الاحتلال أباً عن جد. كان يُسمَع به معلماً في مدرسة الحاكمية قبل أن يختفي بعد عام من اشتعال الحرب.

23 مفردها زواوي. تعين سكان منطقة القبائل الأصليين.

بعد عشاء على فطيرة من خبز الشعير وتين مجفف وقهوة، في ضوء قمر صيفي، بعيداً قليلاً عن بعض حلقات الجنود في المخيم الصغير وسط الزبربر، روى مولود لمولاي بوزقزة مبحوح الصوت، أن محفوظ مساعد قائد الولاية كان في حصص التعذيب بحبل دوّار على عجلة معدنية، من تلك المستعملة لإخراج الماء من الآبار مشدودة إلى فرع شجرة صنوبر وسط الغابة، يأمر بتعليق المشتبه به من أولئك الطلبة الملتحقين ومن غيرهم من الجنود البسطاء ومن ذوي الرتب أنفسهم، عارياً إلا من سترة لعورته، مربوطاً إلى الخلف من معصميه وكاحليه في قبضة واحدة وقد وضعت حجرة ثقل فوق عموده الفقري.

وبنبرة كبسها أسىً رمادي، أضاف مولود أن كمال، الطالب الملتحق من جامعة الجزائر، لم يردد خلال الاستنطاق سوى عبارة "صعدت لأشارك في تحرير بلدي"، إلى أن تحولت على لسانه ما يشبه الهذيان "بلدي..بلدي". فأعطى محفوظ أمره بأن يعلق. ثم أشار إلى الجندي، الذي يمسك بالطرف الآخر للحبل، ببدء رفع الجسم المعلق مثل دلو إلى حوالي متر ونصف، على وقع صرصرة العجلة. وبعد تثبيتٍ لثوانٍ راح ينزله ببطء إلى أن غدا البطن يكاد يلامس جمر حطب البلوط المستعر في الكانون المهيّأ. فأنّ كمال، إذ عاود الجندي

الحركة الأولى، ثم أطلق صرخة حادة للألم المزدوج: شعور بتفكك في مفاصله وحرارة شاوية جلد بطنه وجهازه التناسلي سارية إلى صدره ووجهه، بينما محفوظ، ومِن حوله بعض الجنود الآخرين الذين يقيمون الحراسة على من ينتظرون دورهم من التعذيب، يكرر سؤاله بين كل حركة رفع وأخرى "والآن، هل تتكلم؟" كان على كمال أن يقرّ بأنه أحد عناصر "الزُّرقان". لم يفعل. لم يستطع أن يثبت أنه منهم وأنه مدسوس. لذلك أبقاه محفوظ فوق الصهد، بعد أن أمر الجندي بربط الحبل إلى جذع الشجرة، حتى تفسخ بطنه وتقاطر شحم أحشائه. فتصاعدت هذه الرائحة التي تدفع أمعاءك إلى الحلق.

جلدي يتشوك. أشعر بدوار. أتغثى. تلك الرائحة تغمر علي المطبخ. أتخيل كيف سيقابلني وجهي لو أني قمت إلى مرآتي.

على زفرة، برجة في الصوت "وكنت رأيت بعيني هذا الجندي الذي غلّق من معصميه إلى فرع شجرة عارياً فأشهر جندي آخر حربة بندقيته وراح، كأنه يتدرب على قتال الالتحام، يدور حوله، داغراً إياه دغرات فينزّ الدم من الصدر من البطن من الفخذ من الظهر وعند الكليتين؛ لأنه أقام علاقة مع جندية ربطت من رجليها حتى رقبتها نصف عارية إلى جذع شجرة فأخذ جندي

ثانٍ ينغز بإبرتين جبهتها فحاجبيها وخديها وشفتيها فذقنَها فرقبتَها نزولاً. وهذا الذي فقئت عينه، لأنه يقرأ الصحف. وذا الشخص المدني الذي بكُلابة اقتلعت أظافر يديه، لأنه اتهم بالزنى بالمحارم، ثم ذبح من القفا. وذا الذي نتف شاربه نتفاً لأنه لم ينته عن تخزين الشمّة[24]. والآخر الذي جُذع أنفه، لأنه شوهد مع متعاون مع مكتب "لاصاص". وهذا الذي جُبّت حشفة عضوه التناسلي، لأنه كان يتردد على ماخور في المدينة. لا شيء كان للعين أن تراه غير الدم. وكل صرخة موت كان يمتصها عمق الغابة".

24 نوع من التبغ، يخزّن بين الشفة واللثة.

لم أقاوم. تقيأتُ أحشائي في صحن المرحاض. إذ رفعت رأسي في المرآة وجدت وجهي تحول أكثر من وجه؛ إنهم أولئك المعذَّبون في أقسى درجات آلامهم.

شهق مولود. مسح بسبابتيه دمعتين "آخ! رأيت محفوظ أخذ بين يديه سلكاً رقيقاً ودار خلف جندي مكبّل واقفاً. وبسرعة خاطفة مرر السلك حول رقبته وجذب إلى الخلف حتى تفصد الدم. ثم فك يداً واحدة فتهاوى البدن هامداً. كان ذنب الجندي أنه نزل من غير إذن ليلاقي زوجته ثم عاد. كان محفوظ حين يأمر

برمي جثث المعدَمين في حُفر، من غير ردم، يكرر أن للذئاب والضباع نصيبها فيهم".

مغصوصاً بعجزه أن يفعل شيئاً أو أن يجهر بإدانة، شد مولاي بوزقزة على يد مولود، كازًا فكيه. نطق هذا، بصوت ملتاع "كان ذلك أفظع عذاب يمكن أن يسلط على آدمي. كان الجلاد لا يدري غالباً لماذا يفعل ذلك في حق غيره ممن عرفهم أحياناً وقاسمهم شظف الحياة في الجبل وهول الحرب. لكنه كان يعرف أنه لا يبقى له خيار، حين يعيّن للقيام بالمأمورية، غير التنفيذ وإلا دفع حياته ثمنا لتردده. كنت رأيت صالح، الذي كُلف مرة ذبحَ ثلاثة من رفقائه بتهمة محاولة الارتداد لنزولهم من غير إذن عند عائلاتهم في الدوار، كيف خرج راكضاً، في بداية اشتباك مع قافلة عسكرية للعدو، نحو حتفه صارخاً مطلقاً من سلاحه كيفما اتفق فمزق صدرَه وابلُ رشاش من الاتجاه المقابل. كنت قلت له، لما أخبرني بنيّته في إنهاء حياته بيده، كيلا يتعذب أكثر، إن خبر انتحاره ستعلمه عائلته يوماً، وحينها ستعيش عليه عاراً. سكت. كان لا بد حينها قرر أن يؤجل ذلك ليموت بتلك الطريقة العاصفة".

للحظات، تظاهرت متداخلةً، ثم توارت في ذهن مولاي بوزقزة، وجوه أخرى أفقدها ملامحَها البشرية رعبٌ أسود؛ إنهم رفاق حرب أو أشخاص عاديون

جميعهم لا يعرفون غالباً لماذا هم يتعرضون لتلك القسوة كلها؛ وكان يمكن، كما كانوا لا ريب تمنوا أثناء تعذيبهم، أن يُقتَلوا بشكل إنساني إن كان في قتلهم عدل.

شابكاً أصابعه، لاوياً يديه، قال مولود "وبرغم ذلك، كنا نؤدي الواجب. نستنزف العدو. نواجهه حين يحاول الصعود إلينا. تلك هي الحال. فحرب تحرير، خاصةً، تحمل معها أيضاً قذاراتِها". وبعد صمت قطعته شهقته "أقدّر أن عدد الذين تعرضوا للتعذيب ثم الموت يفوق المائتين في ناحيتنا وحدها".

ما الذي كان بوسع مولاي بوزقزة أن ينطقه لمولود؛ أيعزيه أم يواسي نفسه؟ إنه يسحق كزبته بين أسنانه.

مولود، بعد انجلاء انفعالاته، ينطق.

"– خشيث فقط أن مناقشتي مع بعض الجنود حول بناء دولة ما بعد الاستقلال على أسس اشتراكية قد تكون تسببت في تصنيفي في القائمة الحمراء، وأن الدور لذلك سيكون علي.

– لا أحد في هذه الحرب يملك الحق في الرقابة على الضمائر. ثم، أنت لست من الملتحقين حديثاً. قريتنا كلها تحدثت عنك يوم لم تعد تظهر في مدرسة المنطقة. ورتبتك الآن ومسئوليتك من المفروض أن تكونا عاليتين.

– وبرغم ذلك.

– شيء مؤسف.

– التجأت إليك، لأني أسمع عن شجاعتك وشهامتك.

– قلت لك، تستطيع أن تبقى ضمن فصيلتي في أمان.

– لا، شكراً. سأجلب عليك الشك.

– خذ باقتراحي الثاني.

– لا أستطيع أن أتحول إلى العمل في المدينة.

– إذاً، تأخذ هذه الرسالة إلى سي مفتاح مسئول الناحية الأولى في الولاية الأولى. شرحت له فيها وضعيتك. أثق فيه. إنه من أوائل رجال قبيلتنا الذين التحقوا بجيش التحرير. سيكون خيط اتصالي الشخصي دليلَك".

إذ كان مولاي بوزقزة، كما سجل، قال، بإيماءة توديع "ستكتب لك السلامة". نظر إليه مولود، مبتسماً "سي مولاي، أدرك أنك تعلم أني أعرف أن سي مفتاح هو الذي نظَم والدك سي المهاجي بأن هيأه ليمنحك مرضاته قبل صعودك إلى الجبل".

كان سي مفتاح، في بداية الحرب، يزور من ليلة لأخرى بيت سي المهاجي، هنالك في الحاكمية، ويحدثه هو وابنه مولاي، عن تنظيم الجبهة وعملياتها المسلحة فيبدي له الابن حماسا، اتقد في عينيه شرراً ليلة أن

دعاه بعد العشاء إلى خارج الحوش، وكان بسلاح ماط ٤٩، وأخرج له من تحت قشابيته قطعة مشابهة، مطوية المشط مدحية الأخمص، وضغط بها على صدره "لنحرر الجزائر! بندقية صيد العائلة نحتاجها لجندي غيرك. احملها معك!"

مولاي بوزقزة في الكازمة الآن يتسلم من جندي الاتصالات آخرَ بريد لقائد الولاية في مظروفين منفصلين. إنه لا يزال متوتر النفس لشهادة دّا مولود آيت زاهي. على ضوء شمعة، فتح الأول "أيها الإخوة، أدعو الله أن تصلكم هذا الرسالة في الوقت. من واجبي أن أخبركم أني اكتشفت مؤامرة واسعة في ولايتنا حاكتها، منذ شهور طويلة، المصالح الفرنسية المضادة للثورة الجزائرية. الآن، وبفضل الله استطعنا أن نُبعد كل خطر؛ لأننا تدخلنا بسرعة وبقوة. وفي الوقت نفسه، ومنذ المؤشرات الأولى، اتخذنا إجراءات مشددة: توقيف التجنيد ومراقبة الأشخاص الذين سبق تجنيدهم، توقيف القومية والعسكر الفارين، توقيف كل الأشخاص القادمين من ولايات أخرى، توقيف كل الجنود المنحدرين من الجزائر العاصمة، توقيف جميع المشتبه بهم، كل الأشخاص المبلّغ عنهم مهما تكن رُتبهم، وتشديد الاستنطاق مع كل الذين لا تبدو وضعيتهم طبيعية".

تنهد. ملامحه تنقبض. إنه يردد "هذا النخر ينهش مني القلب والعقل". قرّب لعينيه قصاصة مرفقة عليها ملاحظة: "يجب الحذر من الأشخاص المتعلمين والطلبة والأطباء والمدرسين، وكل بوعرّيفو25". إنه يتبسم "لا! لا يمكن أن يصدر مثل هذا عن قائد. ما الذي جرى؟"

25 أصحاب المعرفة والمثقفون.

رأسي تغلي. أي معجزة هذه التي جعلت حرب التحرير تبلغ نهايتها باستقلال!

أما المظروف الثاني فكان إشعارَ مولاي بوزقزة بترقيته إلى رتبة ضابط ثان، نقيب. صباحاً، لما أبلغ ذلك قادة أفواج فصيلته أسدلوا نظراتهم. طمأنهم "سأطلب أن نبقى مع بعض حتى النهاية". فإن فصيلته كانت متحركة، كفصائل أخرى، تستنزف العدو بعمليات مفاجئة خاطفة وتضمن الاتصال مع الأهالي. وهو يكتب برقية التماس بذلك لم يكن يدري أن قائده كان سقط قتيلاً في كمين نصب له. وقع ذلك في ٢٩ مارس ١٩٥٩.

"هذا بَرّك ولّا جيث برّاني يا راس المحنة لله جاوبني"

٧

مولاي بوزقزة، كما يذكر في كراسته، لم يشغله الجانبُ السياسي من الحرب إلا نادراً؛ فجنوده يعرفون ذلك. وإن هو اهتم به فإنما فحسبْ في تلك اللحظات التي يُبدي خلالها رأيه لقائد الولاية، إنْ طلبه إليه، كغيره من مسئولي الفصائل. ولو أنه، كما سجله، ظل يشعر أن حرب تحرير تُحتم أن لا يكون الفصل بين المسئوليات بتلك الصرامة؛ إنه يسميها الجمود.

لم يكن قال ذلك للقائد، تقيةً لتأويل خاطئ قد يهلكه. ولكنْ ها هو يؤكد له، في هذا الاجتماع، رداً على طلبه تقديرَه "خوض الشق النفسي من هذه الحرب يستدعي وسائل مختلفة لكسب مزيد من التأييد للأفعال والخطابات، إن لم تكن للإقناع بالإسهام بالفعل والقول". القائد يُميل وجهه نحو المحافظ السياسي فيسأل هذا "وكيف لنا بتلك الوسائل يا سي بوزقزة؟"

كان عليه أن يختزل في داخله لحظة التفكير في الرد إلى أقصى حد كيلا يبدو مرتبكاً، حتى لا يخرج على لسانه ما يندم عليه إلى الأبد "نحن ملزمون ليس فقط بأن نكسب إلى صفوف المعركة مزيداً من أبدان الشابات والشباب ولكنْ قلوبَهم أيضاً وأرواحَهم. ومنعاً

لوقوعهم في مصيدة الدعاية المضادة التي يوجهها المكتب الخامس، نحن نُضطر إلى أن نحرك فيهم إيمانهم بقضيتهم حتى لا يتخلوا عنا". فقال القائد "ونعرف أيضاً كيف نزرع فيهم الخوف الأقصى من التفكير في أي تخلٍّ".

فلم يكن مرّ على مولاي بوزقزة أكثر من أسبوع، منشغل الذهن أيضاً بمعنى "زرع الخوف الأقصى"، حتى أبلغه ڤايد بن عمر أن أهالي دوار مشتة القصبة من الرجال، خاصة، أبيدوا عن بكرة أبيهم. حدث ذلك في العام الثالث، ٢٨ مايو ١٩٥٧.

سأله.

"– من؟

– تداخلٌ، مثل المطر مع البرَد والرعد والبرق.

– متى حدث؟

– مع منتصف النهار.

– التقديرات؟

– حوالى ثلاثمائة.

– ما ذا يُشاع؟

– اليد الحمراء.

– هي منظمة تسيرها استخبارات العدو. تشن عملياتها التصفوية والتخريبية في المدن وفي الخارج أيضاً.

- وربما..
- بلا ربما!
- جيش العدو.
- تقول تمت الإبادة بالسلاح الأبيض أيضاً، وفي وضح النهار.
- ربما الإخوة.
- لماذا هم؟
- لقطع دابر الخيانة.
- خيانة جماعية؟
- لأن أهالي المشتة كانوا، حسب الأخبار، موالين للمنشق بَلونيس ومنظمته العسكرية الموازية.
- دون تمييز، وبتلك القسوة؟
- حتى يكونوا عبرة لغيرهم... هكذا يمكن أن يُفهم الفعل إن كان موجهاً ضد الخونة.
- فقط؟
- بعد يومين حمل العدو بالطائرات العمودية صحافيين إلى مسرح العملية.
- أتوقع ماذا سيصورون ويكتبون ويقولون.
- ستعرف الجبهة كيف ترد على ذلك كله.
- إن لم تكن سَبقت.
- إنها الحرب".

لمن أهمس "وويلاتها!" فأنا في نزاع مع نفسي أنْ لا يتدحرج إحساسي بأني أقرأ رواية أو أشاهد فيلماً. إنها، فعلاً، قذارات الحرب أيضاً.

بعدها، كان مولاي بوزقزة تلقى برقية محمولة تأمره بالالتحاق بصف "كومندو عز الدين" في الولاية الرابعة.

في بداية ذاك العام الرابع ١٩٥٨، سجل مولاي بوزقزة داخل الكازمة على ضوء شمعة "معارك هذه الحرب النفسية لا تقل بأساً عن المعارك المسلحة ذاتها؛ لانتشار آثارها في الزمان والمكان ونفاذ تقويضها إلى العقل والروح". وفي ما كان سيرفعه إلى قائد الولاية، ضغط قلمه الحبري على "ما يريد العدو تحقيقه هو إظهاره أن التعاون معه بلغ درجة الخيانة الجماعية والشاملة. ولا مفر، إذاً، من الاستسلام".

ها هو قائد الولاية الجديد في الاجتماع اللاحق يرد عليه "مقاطعة الاستفتاء المزعوم حول مصير الجزائر ستكون الجواب". حدث ذلك في بداية خريف ١٩٥٨، خلاله كانت آخر المنشورات وبرامج الراديو ومقالات الصحف رددت في تناغم "نعم، التي تُدلون بها في الثامن والعشرين سبتمبر حول مصير الجزائر، تعني أنكم تريدون أن تكونوا مثل الفرنسيين بدرجة متساوية، في إطار فرنسي".

كان مولاي بوزقزة ملزما بمراقبة رد فعل سكان القرى، في المنطقة، إن كانوا استجابوا لنداء الجبهة بالمقاطعة، لما مر، بعد يومين، على قرية آيت زلال، فقاده الدليل عمي موح، عجوز من السكان، نحو دوار سيدي علي بوناب. ثمة أوقفه على بقايا كوخ أسفرت له عن إحدى عشرة جثة متفحمة، كانت سلطات الفرقة الإدارية المتخصصة "لاصاص" منعت الاقتراب منها ليوم كامل. كان هو وعمي موح أول المصعوقين بفظاعة المشهد – مثل غيره من سكان القرية، كان عمي موح، غداة التصويت، شاهد الجنود الفرنسيين، مدعمين بحركى، حشدوا في ساحة "أفني"، بناء على قائمة أعدها ڤنون لضابط "لاصاص"، كل من قاطع الاستفتاء. ومنهم أخرجوا ثماني نساء وثلاثة رجال من بينهم عميرات، الذي كان ڤنون حدّده بصفته المحرض على المقاطعة، لأن بقية الرجال الآخرين القادرين على حمل السلاح كانوا التحقوا بأفواج الجيش في الجبال، وكذا الطفلَ علي، لرفضه الاعتراف بأنه، وهو يرعى في سفح الجبل، سلّم أحد المجاهدين شيئاً رآه ڤنون بمنظاره، لم يكن سوى مبلغ اشتراك سكان المنطقة. ثم قيدوهم بالسلك وأدخلوهم كوخاً في طرف القرية أغلقوه وأحاطوه بالحطب ونبات الديس ثم رشوا البنزول وأضرموا النار.

قال عمي موح مختنق الصوت راعش الشفتين "حتى إن الجبال توجّعت لصراخهم. كان انبعاث رائحة اللحم البشري المتصاعدة مع الدخان واللهب من أفظع ما يمكن لإنسان أن يشمه".

مولاي بوزقزة يخاطب الآن قادة أفواج الفصيلة "اغتيال أهالينا ببرودة دم وبطريقة أشد بربرية من أساليب النازية، لأنهم عبّروا عن إرادتهم بالرفض، دل على الفشل الفظ للعدو في سياسة السلم التي يدعيها". ورداً على المذبحة ها هو يصدر أوامره "دورية تبديل مركز الحراسة المتقدم في قرية فعالة هو أفضل هدف. أنتما، رابح ولوناس، تتكفلان بتفجير الجسر المؤدي إليه. يجب أن نَحول دون تراجع الدورية إلى الخلف ونمنع وصول المدد".

مثل قدَر ساحق كان الهجوم على الدورية، بعد انفجار الجسر. لم يسعف حراس برج المركز غير مشاهدة الصمت الذي ران على المركبتين الناقلتين للجند وسيارة الجيپ؛ بفعل انفجار القنابل اليدوية والنيران الكثيفة المتقاطعة على طرفي الطريق في صباح ماطر. على انسحاب الفصيلة، كانت مروحية حربية حلقت في الأجواء. لم يكن لها أن ترصدهم وسط الغابة. كان مولاي بوزقزة بمنظاره يشاهد عسكر المركز خرجوا لسحب قتلاهم.

بعد ثلاثة أيام، كان نقيب "لاصاص"، محاطاً بأفواج من الحركى واللفيف الأجنبي المدججين، جاء إلى موقع العملية، وقد أحضر زوجتي رابح ولوناس: فرّوجة وتَسغدِيث. فأشار إلى ڨنون. فألقى بهما، مكبلتي اليدين تباعاً، من مهوى طرف الجسر المنهار، على ذهول سكان من المنطقة كانوا نُقلوا غضباً.

ليلة نزول مولاي بوزڨزة بالدوار، مع ڨايد بن عمر، لمواساة أهل القتلى في المجزرة وتقديم معونة نقدية لهم، استقبله عمي موح؛ فإنه كان من بين المحوّشين. وأخبره في بيته على كسكسي بالحليب "ولما عاين ڨنون أن تَسغدِيث كانت لا تزال تحرك يديها لتنهض جمع الحجارة وراح يرجمها إلى أن تهرشمت رأسها".

في الكازمة، ها هو مولاي بوزڨزة يقول لرابح ولوناس "أهل الشهداء لا يُعزّوْن. زوجتاكما ماتتا من أجل الحرية. فخرّ ينضاف لكما". لم يثلم ملامحهما انفعال. كان يعرف أنهما يبكيان في أعماقهما "أترك لكما تصفية الخائن ڨنون بأيديكما. سنثبت، مرة أخرى، أننا نستطيع أيضاً أن نضرب من نشاء من الخونة متى نشاء وحيث نشاء. تنزلان هذه الليلة مع خيط الاتصال. ستجدون أحد الإخوة في انتظاركم. تبيتون عنده".

رابح يقول للوناس، بعَبرة، على مسمع من قائدهما الذي كان خرج خلفهما.

"– فروجة.. كم..

– لا تبك يا رفيقي.

– الحقير.

– تَسغدِيث كانت لا تزال تُرضع الطفل.

– العار للخونة".

كما عادته كل مساء، كان ڨنون عائداً من مكتب ضابط "لاصاص"، لما وقف أمامه رابح مموها في قشّابية فقير وسأله عن شارع في المدينة، فيما كان لوناس خلفه أخرج من تحت جلابته الشاقور[26]، وبقوة، كأنما يفلق قطعة خشبية، ضرب فتطاير على وجهه خليط الدم والمخ. فمسح بطرف كمه، على تهاوي ڨنون على وجهه بالشاقور مغروساً في رأسه.

26 فأس حطب.

لم ير مولاي بوزڨزة من قبل على وجه ڨايد بن عمر غبطة كما رآها وهو يضيف "وجرى خلف رابح في اتجاه سيارة من نوع سيفكا أقلعت بهما في جنون وسط ذهول المارة".

وسرى في وجدانه، كما رائحة من نسغ الصنوبر والعرعار، بأن روحي فروجة وتَسغدِيث تنعمان بطمأنينة على فدائهما.

"ارفذ ذاك الراس وقال ندّيه انا حطة في صندوق
وغاب يا قضانة[27]"

27 يا حسرتاه.

٨

يشعر بها مولاي بوزقزة عزاءً شمسُ أول نوفمبر هذه التي تدفئ صدره في هذا العام ١٩٦٠. إنه يسجل لو كان يستطيع أن يتواجد في كل مكان في اللحظة ذاتها ليفدي كل ضحية من الأهالي في الريف، في المدن!

ومثلُ توهَم، مجرد توهم لا يرقى إلى قناعة، يُداهمه الآن بأنه الوحيد مَن حظّه القدَر لينشغل بمآل هذه الحرب، خشية أن يخسرها، أكثر مما ينشغل به الضباطُ الآخرون والقادة. بل، إنه يجده إحساساً ظالماً مغرياً بالكفاية "لعلني متعَب. فمتى كنتُ أنا لولا هؤلاء الجنود!" إنهم هنا وهناك في حلقات، جميعاً خارج الكازمة والخيام، يتحدثون، يشربون القهوة، يأكلون فطائر من طحين القمح حُضرت للغرض على جمر الفحم، تجنباً لدخان النار، فوق آنية فرّاحٍ من طين مضليّ، يتذكرون لبعضهم رفاقَهم الذين فقدوهم وأهليهم وأراضيهم وديارهم، يحلمون بالعودة في اليوم الموعود فيضحكون متجادلين متراهنين أنه سيحل قريباً مخضبّاً بدمِ مَن ذهبوا: إنها ذكرى أول نوفمبر ١٩٦٠ السادسة.

على وجهه كان جنوده يستطيعون رؤية طيف سعادة، وهو يقف عند هذا أو ذاك منهم. هو، كان يتذكر. يحلم "طلقة رصاصة، في ليل، في منتصفه بالضبط، دام إلى الآن قرناً وثلاثين عاماً، ها هي توقظ شمسنا. غدا ستشرق أخيراً".

ووحيداً، عند جذع عرعارة وضع الكراسة جانباً وسحب، من بين ما كان قايد بن عمر جلبه له، جريدةً قديمة من جرائد العاصمة "ألا تجدون أنه من الجبن أن تستعملوا قفاف نسائكم لنقل القنابل التي تقتل ضحايا أبرياء؟" بَهرته ابتسامة العربي بن مهيدي، بين مظليين، والحديد في يديه.

تلك الصورة الخالدة، لانتشارها إلى الآن أكثر من غيرها من صور أبطال حرب التحرير، هي التي مثلَ أيقونة تُخيّل لي أطفالاً بناتٍ وبنين بعدد شجر الزبَزبر ستظل عيونهم تحملها لذاكرتهم عزّةً!

ووجدها إجابة خارقة هذه التي أنهى عليها العربي بن مهيدي رده على الصحافي، قرب العقيد بيجار الذي لا يظهر "وأنتم، ألا يبدو لكم أشد جبناً أن تلقوا على قرى، بلا دفاع، قنابل نابالمكم التي تقتل من الأبرياء ألف مرة أكثر. بالطبع، بواسطة الطائرات يكون ذلك مناسباً لنا أكثر. أعطونا، يا سيدي، طائراتكم نعطِكم قفافَ نسائنا!"

ومن افتتاحية عدد قديم من صحيفة "المجاهد" السرّية قرأ "لم ينظر العدو جيداً إلى بَنْ مهيدي. كان يمكن لجلاده أن يرى أنه لا جدوى من تعذيبه. كان يستحيل خلخلة عقيدة هذا الثوري. عذب الفرنسيون بن مهيدي لأيام وليال. عرّضوه لجميع اختراعاتهم المنكّلة ولكل تقنيات جلاديهم السادية. انهار جسد بن مهيدي منكسراً ومفككاً. لكننا نعلم اليوم أن كرامته ظلت مصونة. وأن شجاعته وحزمه ألبسا العدو عاراً عظيماً".

سفح دمعتين في خلال رحلته الذهنية مدى المسافة بين الضياء المخلل للزبربر وبين غياهب "فيللا سيزيني"، "دار النخلة" المشئومة. ثمة كانت ابتسامة بن مهيدي صعقت، مثل إشعاع نووي، وجه جلاده أوساريس. لذلك، كان ردد بحقد "لن تعرف لك أمك ابتسامة أخرى. لن تراك أبداً". وأمر أحد الزبانية فضرب بقبضتيه على الوجه على الصدر على البطن على الكبد، وبحذائه في الحجر.

في منتصف الليل قرأ أوساريس برقية التنفيذ المحمولة من تراتبيته العسكرية مرفقة بتقرير الانتحار المعَد سلفاً. كان الرابع من مارس سيبدأ انسلاخه من ليله لما دفع مظليان بن مهيدي داخل المركبة العسكرية.

في مزرعة مهجورة، خرج أوساريس من سيارة ثانية مدنية. على أضوائها تقدم من بن مهيدي، ممدداً بين يديه العصابة السوداء. أشاح عنه. فرطن نحوه.

"– إنها القوانين.

– أعرف قوانينكم. لذا نرفضها.

– وما زلت على إصرارك؟

– الآن أكثر.

– مدهش منك هذا الهدوء!

– لأنكم مرتبكون".

أشار أوساريس إلى المظليين، فأصعدا بن مهيدي فوق مقعد مكبل اليدين إلى الخلف ووضعا في رقبته الحبل المدلى من عارضة سقف خشبية، ولم يفعل أكثر من أنه ركل المقعدَ بحذائه ثم ولّى، مردداً ما كان سيعلنه "لقد انتحر في مركز الاستنطاق!" كان فجر الرابع مارس من العام الثالث ١٩٥٧ يزفر حزنه.

في بداية صيف هذا العام السادس ١٩٦٠، يلتقط مولاي بوزقزة ليلاً من مذياعه صدفة أن الجنرال يكون أجرى، في الإيليزي، اتصالاً سرياً مع أحد قادة الجبهة بشكل انفرادي تنفيذاً لسياسة "سلم الشجعان". فانتظر، لاحقا في اجتماع قادة الفصائل، من قائد الولاية إشارة بالتأكيد أو النفي فلم يأته غير الصمت؛ فإنه كان، منذ بداية شهر يناير، يتابع حملة "عملية تيلْسيت" الدعائية،

مما يأتيه به ڤايد بن عمر ومما يسمعه من قادة الفصائل في الأحاديث الجانبية على هامش الاجتماعات مع قائد الولاية.

حملةٌ، لحبكة منشوراتها، مثلَ نُدف ثلج تسَاقط فوق الرؤوس في الزبَزبر وفي سفوحه، خلَّفت في نفسه، كما بلا ريب في غيره من الضباط والمسئولين، رضوضاً أليمة. فإنه، بعد تفقُّده لمواقع الحراسة الأربعة، دخل الكازمة على نور لمبة ذات بطارية أطفأها وسكن في العتمة لحظات، مستعيداً صورة بن مهيدي، كما قبل ثلاث سنين "وقفتك، بسمتك سندٌ روحي في هذه الظروف الحالكة". ثم أشعل شمعة ثبتها على حجرة بجانبه. ومن حافظة أوراق جلدية، أخرج ما جمعه فيها مما ألقته الطائرات.

فرَز المنشور الأول. "قائد الولاية الرابعة انتقل إلى باريس ودخل في مفاوضة مع الجنرال لتطبيق سلم الشجعان".

والثاني. "الولاية الخامسة أوقفت إطلاق النار".

والثالث. "جنود الولاية الثالثة يستعدون للنزول، بعد مقتل قائدهم، تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه في اجتماع دار قاضي مدينة المدِيَة، ليضعوا أسلحتهم في ثكنات الجندرمة ويلتحقوا بذويهم أو ينخرطوا في صفوف قوات حفظ الأمن أو يعودوا إلى الحياة العادية" –

سبق أنْ كان مولاي بوزقزة التقط، عبر المذياع، كلاماً مهولاً عن سقوط قائد الولاية "بعد مقتل آيت الرهيب، يكون كل شيء انتهى. ومن بقي من قادة الفلاقة هو الآن يستعد للنزول". وقع ذلك في ربيع العام الخامس ١٩٥٩.

وفي الرابع. كان يمكن، باللغتين، قراءة "كانوا فلاقة واليوم راهم محابيس ومسلسلين".

تأمل مولاي بوزقزة وجوهاً لبوعزة والزهرة ولعرج وميلود، كما أراد لهم مصور مكتب الفرقة الإدارية المتخصصة "لاصاص" أن يظهروا بأسمائهم، تحت صورهم، بالقيد في أيديهم، منكسرين في ألبسة الجنود التي أسروا فيها. سمع صدى لصوته "أيها الجنرال، أنتم الاستعماريون! سجون الدنيا لن تسعنا ولا سلاسلها تكفيكم لنا. سيكون هناك دائماً فلاقة آخرون".

الخامس. داعبت عينيه ابتسامةٌ لقراءته العنوان باللغتين وبلونين أحمر وأسود "جيش المسالم هنا" – قصد المترجم (l’armée de pacification est là). من مشهده الأول يُظهر قوات من العسكر تلاحق مجموعة من الجنود الفارين نحو الجبال، إلى تعليقه "الألسنة تَتحل تنطق بالخبر والفلاقة يهربوا" إلى المشهد الثاني يصور أهالي دشرة[28]، وسطهم طفل، يَدلّون عسكرياً بمنظار ميداني، على الطريق التي سلكها

جنود آخرون. وفي أسفله باللغة الفرنسية فقط "الجزائر ستبقى فرنسية".

28 جمعها دشر ومداشر. تجمع سكني ريفي من الأكواخ.

وفي السادس. باللغة الفرنسية وحدها باللون الأصفر: "دخّل هذي في راسك".

تحت ذريعة الحرية والعدالة،

هناك قطاّع طرق يحضرون لهلاكك:

إنهم يريدون أن يسلّحوك بالعصي

ويدفعوك أمامهم

مهددينك بأسلحتهم.

هذا شيء نعرفه

ونحن نعرف أيضاً

متى، أين وكيف

يفعلون ذلك...

إنها آخر ورقة لهم يلعبونها

قبل وقوعهم بين أيدينا،

لأنهم يعلمون أنهم

خسروا المعركة نهائياً.

وفي سابع. باللغة الفرنسية وحدها: "دخّل هذي في راسك".

لا تنتظر شيئاً من الأمم الأجنبية،

ولا أكثر من الشرق الأوسط،
ولا أيضاً من الشيطان نفسه...
إن هؤلاء لا يستطيعون شيئاً
ضد الطائرات الآتية من السماء
والبواخر القادمة من البحر
والعساكر الأكثر عدداً من رمل الصحراء.
كل يوم، وبالعشرات
يُقضى على الخارجين عن القانون
لا تضع نفسك بجانبهم
لا تتبع توجيهاتهم
لا تكن متواطئاً معهم...
– سيكون محكوماً عليك بالإعدام.

وفي ثامن، يحمل في جانبه الأيسر صورة لرأس قتيل، كُتب بخط يد تقليدي.

من بعد حيبارة فرغول
علي بوكوشيخ
لم يضركم أبداً
بفائدة الأخبار اللي أعطوهم السكان من
جهة تقيقست العسكر قتلوا
علي بوكوشيخ
وهذا المجرم كان يقول لكم باللي كان
عنده البركة وعلى كل حال بركته ما

دافعت شي عليه مدة طويلة

اعَوْنُوا العسكر وتربحوا العافية.

زفر لوجه عليّ "قصدوا بلغتهم الركيكة "لن يضركم"، لأنك أوجعتهم". كانت العين اليمنى، لأن الثانية تبدو منتفخة، تلقي، من خلف برودة الموت، نظرة ساخرة على المصور، فيما تظهر الشفتان المفتوحتان، بميلان بسمة ساخرة نحو الشمال قليلاً على أسنان بيضاء، تكادان تنطقان "وتحسبون أنكم قتلتموني!"

تذكّر كيف أن مصالح المكتب الخامس الخاصة كانت استنسخت عدداً من جريدة "المجاهد" ركّبته بأنباء عن خسائر جيش التحرير وعن الدعوة إلى التحاور، وبرسائل بين القيادات عن وجهات نظرهم المتناقضة حدَّ النزاع حول جدوى العمل المسلح، من بعدما كانت قوات المظليين، دهمت مقرها السري في العام الثالث ١٩٥٧ وخربت وسائل طبعها وآلاتها فبات تداول أي عدد منها محظوراً، قبل أن يتم نقل طبعها إلى تيطوان المغربية ثم إلى تونس.

وتبسم، لنفسه "مَن تسقط على رأسه مثل تلك المناشير فيقرأها لا بد أن يشعر بأن أثرها يكون عليه عكس المنتظر". ثم أخرج الكراسة "أقدّر أن هناك شيئاً ما في وجدان الواحد منا يحوّل تلك الدعاية إلى ضدها بأنْ لا يرى بُغبع الإعدام سوى تتويج لموت شريف

بالرصاص، أو بمقصلة بربروس الرهيبة كما واجهها بإباء الملحّم أحمد زبانة في نهاية ربيع العام الثاني ١٩٥٦ والكيميائي طالب عبد الرحمن في ربيع العام الرابع ١٩٥٨؛ فسجلا بدمهما عار فرنسا الاستعمارية ضد الجزائريين".

أضاف، بصوته أيضاً "المستعمرون، برغم قرن وثلاثين عاماً الآن، ظلوا لا يعرفون عقلية هذه الأمة. ولا قدّروا رد فعل هذا الشعب، أو أدركوا لديه سرَّ هذا المَعين الذي لا ينضب لمقاومة الدخيل".

بعد لحظة تردد "لم يُفس خافياً علي ولا على قادة الأفواج، ولا حتى على الجنود، بعد أن سرّب المكتب الخامس الخبر، أن وحدات كاملة من جيش التحرير في الولاية الخامسة كانت وُجِّهت إلى أماكن نصبت لها فيها قوات العدو كمائن ماحقة؛ بفعل الاستيلاء على جهاز راديو إرسال وشفرات وجدت في حوزة القائد سي لطفي لدى وقوعه قتيلاً في بداية ربيع هذا العام السادس ١٩٦٠".

ولوقْعِ ذلك، مزدوجاً عليه مغصاً وقلقاً، رفع لنفسه "ذلك أشقى ما يمكن للمعنويات أن تتحمله، بعد آثار إضراب الثمانية أيام، بداية شتاء العام الثالث ١٩٥٧، التي إن كان هناك شيء واحد من آثارها تم الاطمئنان

إليه فهو أنها أسقطت جدار الصمت المذنب فانكشف للعالم أن الجزائريين ليسوا فرنسيين".

"هذا وظنك ولّا جيت بكراني يا رايس الهانة الله كلمني"

٩

بعد اجتماعه مع قادة أفواج فصيلته الثلاثة، لسبر معنويات الجنود وضبط مدخرات المئونة ومهمة التزود بها، ها هو مولاي بوزقزة يحرر مشاعره على كراسته "طالما أوجدت كل مرة ذريعة جديدة أسدّ بها في قلبي منفذاً آخر للحقد على الفرنسيين بلا تمييز، على العسكر الذين نتوقع أن كثيراً منهم إذ يوجهون أسلحتهم نحو صدور الجزائريين وظهورهم إنما يفعلون بأمر قيادتهم قبل أن تأتي حملة "بسط السلم" براً وجواً لتغيّر مزاجي وأحكامي؛ ليس لشراسة وقْعها فحسب، وما كنا لننتظر من عدو مهادَنةً، ولكن للتعدي، الذي رافقها، على الكرامة الإنسانية باتخاذ الاغتصاب سلاحاً آخر أشد فتكاً بمعنويات الأهالي".

فقد غصّه، ما كان قايد بن عمر نقله إليه عن اللائي هجرن عائلاتهن فسقطن في شباك الدعارة ومَن هِمْن على وجوهن يحملن آثار رضوض نفسية لا تندمل وأولئك اللائي اخترن إنهاء حياتهن بشنق أو شرب أي ماد سامة أو ارتماء على الرأس في بئر؛ لأنهن أُنتهكن أمام أنظار محارمهن أو أزواجهن.

وها هو الآن، في بداية هذا العام السابع ١٩٦١، نزل على من تبقى من فلاحين في منطقة إيغيلْ إيزَفانْ، غير منتظر أوامر القائد، لأن المحافظ السياسي كان تعذر عليه الانتقال. سأل سي بن عمارة كبير الجهة إذ استقبله "وإذا علم العدو فاستنطقوك؟" فابتسم "سأعترف أني دعوت هؤلاء الفقراء إلى طعام صدقة لولي البلدة الصالح". إنهم حوالى ثلاثين، تأكد لوناس ورابح من هوياتهم، تحت تأمين جنود فوجيهما.

واثق النبرة، هادئ الملامح، ها هو يخاطبهم "ذلك، من المعتدين، لردع بناتنا عن دعم حربهن التحريرية وانضمامهن إلى صفوف جيشهن وخلايا الجبهة الفدائية. ذلك، لطعن آبائنا وأمهاتنا في أعز ما يملكون: كرامتهم وشرفهم! ذلك، لكسر إرادتنا. فهل سننكسر؟ لا، أبداً! جيش التحرير هو الجدار الواقي لشرفنا. أنتم إسمنته. سنزيل ظلم المستعمرين بقوة السلاح. الموت للمعتدين! العار للخونة!"

ذلك، فيما توقع مولاي بوزقزة أن كثيراً من أولئك الفلاحين سيواجه بصبر وصمت العقاب الجماعي لقوات اللفيف الأجنبي والحركى والمظليين، على رجْعِ لصدى أزيز الرصاص ودوي الانفجارات وصراخ الجروح وصمت الموت لا يبرح ذهنه.

كان في مسراه الليلي هذا، خلف ڤايد بن عمر لمعرفته بالمسالك عائدين إلى الزبَزبر، توزّعَ خاطرَه تذكارُ هذا الرفيق وذاك، وقد شغلته أسئلةُ غدٍ عن طبيعة الضربات الممكنة لفَلّ إرادة العدو في أن يطمئن إلى انتصاراته الظرفية. كما ألَحّت عليه صورةُ هذه الفتاة التي نمنمتها له، كما رسِم، كلماتُ أنطوان، الشاهِد على بعض حلقات تعذيبها لأنه كان أحد مساعدي جلادها.

بعد ثلاثة وأربعين عاماً – نحن في سنة ألفين ٢٠٠٠، ها هو مولاي الحضري يقرأ في جريدة باريسية مرموقة شهادة تلك الفتاة "ممددة عارية، عارية دائماً. كان في إمكانهم أن يأتوني مرة، مرتين وثلاث مرات في اليوم. كنت أرتجف بمجرد أن أسمع وقع أحذيتهم. كان الوقت بعد ذلك لا ينتهي. كنت أحس الدقائق ساعات والساعات نهارات. كان الأصعب أن لا أنهار خلال الأيام الأولى. كان علي أن أتعود على الألم. بعد ذلك، حدث انفصالي عنهم ذهنياً. إنه شيء يشبه الإحساس بكون جسدي صار يطفو".

كانت لويزة، في ربيعها العشرين، ضمن كومندو مسلح، لما وقعت جريحة، إثر اشتباك مع مظليين كانوا نصبوا لهم كميناً، قريباً من القصبة. حدث ذلك في العام الثالث ١٩٥٧. إذ وقف على رأسها العقيد بيجار، قذفت

في وجهه، لأنه تفحص بطرف صولجانه جرح ساقها النازف ”لو كنت رجلاً حقاً لأجهزت علي!“ فضغط ”لست سوى عاهرة صغيرة“. لم تصرخ. اعتصرت، ألماً ”أنذال. أُقتلوني!“ وهو يولّيها ”ما زال أمامنا وقت لذلك!“

في اليوم التالي، كانت ردت على الجنرال ماسو ”أنت، لك وجه سفاح“. كان قال لها بعد أن يئس من مراودتها عن كشف مسئول خليّتها، واقفاً عليها مرمية، نصف عارية، أرضاً على بطانية متسخة، ملفوفة الساق بضمادة ”بنت بونيول![29] سترين. نملك من الوسائل ما سيجعلك تتكلمين“.

29 وصف عنصري وشاتم أطلقه المستعمرون على سكان شمال إفريقيا إبان احتلال (تونس، الجزائر، المغرب).

إثرها، كان الأمر صدر إلى النقيب ڤرازياني، مساعد الجنرال ماسو والعقيد بيجار، بأن يعمّق الاستنطاق مع الأسيرة. كان ڤرازياني من الأقدام السوداء. وكان لا يستعمل ”الخرّارة“[30]، كما يسميها الأهالي، أو حوض الماء في تعذيب لويزة. كان لا ينطق لها غير الكلام الفاحش. لا يواجهها، عارياً، إلا بحركاته الفاجرة. كان، فحسب، يغتصبها. يغتصبها كلما حان وقت استنطاقه إياها. كان كرر لها سؤاله في أول صباح من يومها الثالث ”هل عادت إليك ذاكرتك؟ مسئولك التراتبي، من

هو؟ أريد اسمه الحقيقي". أشاحت عنه، منهكة. قهقه، ينزل سرواله "إصرارك على السكوت يعني أنك تجدين معي لذة. عدت خصيصاً لأُشبعك".

30 آلة تعذيب، استعملها الاستعمار الفرنسي خلال حرب التحرير.

تخيلتُني إياها. ربي، أيّ جسد كنتَ ستصورني عليه وأي روح كنت ستنفخه فيه كي أتحمل كل الذي تحملته لويزة!

كان الطبيب العسكري ثار على النقيب "السيد ڤرازياني، أنت تفُوق نازِيّي الجيستاپو وحشية!" وقبل أن يحصل على إذن تحويل لويزة إلى المستشفى، كان ڤرازياني أطلق عليها ثلاثة من بولدوڤاته البشرية للتناوب عليها. أنطوان، كان سمع صراخ مقاومتها من الرواق.

خلال أسره، كان أنطوان روى أيضاً، أنه هالَه أنْ رأى المظليين، خلال مداهمات البيوت وأثناء التوقيفات في الشوارع، ينتقون جزائريات لحاجاتهم الجنسية لإشباع غريزة الانتقام عندهم. وقال لمولاي بوزڤزة "لا أخجل أن أقول لك إن ذلك كان أشد إهانة من فعل الاغتصاب التناوبي على الموقَفات المشتبه بهن"، كاسراً نظرته "في أماكن الاستنطاق كلها، صار فعل الاغتصاب أمراً مبتذلاً جداً. شيء شنيع!"

أثناء إحياء ذكرى عيد الاستقلال الثانية في قصر الشعب – نحن في الخامس جويلية ١٩٦٤، كان مولاي بوزقزة، وقد عزا الأمر إلى القدر ثم إلى صدفة التاريخ، صافح لويزة. كان المقدم نعيم رزاز، مثله في لباس مدني، إذ عارَف بينهما.

"– الأخت المجاهدة لويزة! كنتَ حدثتني عن شجاعتها بحسب شهادة العسكري أنطوان.

– شرف كبير!

– مولاي الحضري.

– الشرف كله لي.

– ولكنه معروف بكنية بوزقزة. من خيرة ضباط الجيش.

– كنث، يا حضرات.

– سعيدة بمعرفتك.

– ماذا صار ذاك الطبيب الفرنسي؟ وجدته، حسب رواية العسكري أنطوان، على درجة من الإنسانية.

– تذكار مؤلم، مؤلم جدا!

– آسف.

– لأن جراح نسائنا أعمق.

– لا أحتفظ من ذاك الطبيب إلا بجملة نطقها وهو يرافقني في الرواق نحو مخرج مركز التعذيب السري الأسود. قال لي: "لأنك تذكرينني بابنتي".

قلبه مع التغطيسة الأولى لرأسه في حوض التعذيب "ذزفُ دمعةٍ كفيل بالسلام على روحك".

"اعّطالك مولاك وُكنث مولَى رُجْلَه[31] عديانك
مقهوره راهبين ازهيبْ"

31 شجاعة.

الفصل الثالث

١

البارحة، صلّى مولاي بوزقزة لربه في ظلمة الكازمة، وهو في أشد لحظاته ضعفاً، أن يهتدي إلى كلمات جديدة لا تكذِّبه في ما جعل فريقاً من جنوده يموتون من أجله وفريقاً آخر ما برح مستعداً لذلك، أو أن يحظى بنهاية جليلة، كمن استشهدوا جميعاً. ثم ما لبث أن انساح في حزمة نور "وإن أخّرني قدَري إلى أجلٍ أراه قريباً لأشهد الفرحةَ العظمى".

لسرحاني إلى تلك اللحظة، أرانِيَ طفلة ملَكث قوة سحرية فأوقفتْ بيدِ الحربَ وبيدِ أفسحت طُرق البر والبحر والجو إلى الفرنسيين فعادوا من حيث أتوا فاستراح الجزائريون من عبء مائة واثنين وثلاثين عاماً من الظلم والقهر!

صبحاً، هنا في الزبربر، منهمكاً مثل جنوده، بعد رفع العلم، في حصة تنظيف الأسلحة وتزييتها، اخترقتْ حصنَ قلب مولاي بوزقزة كآبةٌ؛ إنه يقول لشعوره بخفْقة خوف من قلة تدفق السلاح والذخيرة وندرة وسائل الاتصال، ومن جفاف كثير من مصادر المئونة؛

– لولا مثل تلك الضمائر لانتصر الظلم.

– مشاعر ذاك الطبيب كانت ثارت لمشهد نازيّين يمزقون، مقهقهين، أثواب أخته الصارخة، للتناوب عليها".

كان مولاي بوزقزة، إذ سرّح قايد بن عمر، بعد أن قدم له تقريراً عما خلفته عمليةُ التمشيط التي طالت منطقة أولئك الفلاحين، تلبّسه حزنه في عتمة الكازمة "في الخامسة عشرة! لا تزال طفلة. هناك حيوانات نفسُها لا تتناوب على أنثى. وحوش!"

كانت المراهقة حدّة لا تعرف فعلاً في أي جبل كان يوجد والدها. وكذلك كانت لن تعرف أبداً، مَن من بين العسكريين الفرنسيين الخمسة أو العشرة المتناوبين عليها، الذي قذف في بطنها مَن حملته ذلاً لتضعه نُكراً ثم تهيم، لا تذكر من وجوههم اللاهثة فوقها غير عيونهم الفارغة، كما حالِها لاحقاً بين القبور موئلاً لها من مأوى البشر.

وسجل على شمعة "ها هم قادة جيش الجمهورية الفرنسية، مثل أي عصابات منظمة، يتخذون من الاغتصاب حرباً أخرى ممنهجة لكسر كرامة الجزائريين".

إنه يبتسم لابتسامة السيد بن عمارة. إنه يتخيل شموخه وقد قاده العسكر إلى الثكنة لاستنطاقه فسكت

بعد حشر مزيد من الأهالي داخل المحتشدات الشائكة المكهربة المذكِّرة بأساليب النازية، ومن قلة الراحة ونقص الألبسة لمواجهة الشتاء القاسي بأمطاره وثلوجه وصقيع لياليه المقمرة؛ وفوق ذلك كله، من آثار هذه التصفيات الناخرة في معنويات التعداد منذ العام الرابع ١٩٥٨، إلى اليوم ١٩٦١؛ بفعل تأثير سمّ شائعات النقيب ليجي، رئيس مجموعة الاستعلامات والاستغلال، ودسائسه وتسريباته. فأنباء جبهات القتال الأخرى أمست تأتي مقلقةً؛ للقوة النارية الجوية والبرية المسخرة لتدمير تنظيم جيش التحرير في الجبال، بعد الضربات الموجعة التي تلقتها خلايا الجبهة في مدينة الجزائر.

وكان، إذ أحضر له لوناس الجنديَ قايش فرحات المنتمي إلى فوجه ثم تَنَحّى وانصرف، دخل الكازمة. نظر إلى من أكبّ على رأسه أمامه، وفي ذهنه تثور صورة للنقيب ليجي كما رآه قبل ساعة في إحدى الصحف العاصمية في لباس المظليين وقبعاتهم المائلة على الأذن اليسرى بملامح وجه لا تُخفي رمادَ الشك. ابتسم "كعارض أزياء للسياحة الحربية!" ونطق نحو الجندي، الجالس مثله أرضاً "أيها النقيب، وبأحد جنودي تحاول الآن أن تخترقني!"

لم يطلب إلى قايس، إذ رفع رأسه، سبباً لغيبته المفاجئة من غير إذن ثم عودته الغريبة. تفرسه، فحسب، على الضوء المتسرب من فم الكازمة. فراح هذا، بصوت ندم، يُقرّ أنه، لكونه عاش في مدينة الجزائر، مثل كثيرين من الهُزّية[32] والقوّادين، لم يستطع أن يتحمل ما تفرضه شروط مقاتل في الجبل. لذلك نزل إلى حي باب الواد من غير إذن مسبق، مجروف النفس بولعه بالحياة الرغدة؛ شغوفاً بالنساء يعاقر الخمرة ويبرم الحشيشة، فألقت عليه الشرطة العسكرية القبض في ماخور ربيكة، خلال نزلة مباغتة.

32 مفردها هزي (تفخيم الهاء) نوع ممن يستغلون قوتهم العضلية أو طبيعتهم العنيفة في الابتزاز الجنسي أو المالي، في الأوساط المنحرفة.

لاطمئنان قايس إلى قائده، لا ريبَ، أنه لن يحيل قضيته على قيادة الولاية حفاظاً على حياته، سرّد مثل "غجاجبي"[33] أن النقيب ليجي، بدل أن يأمر بتعذيبه لانتزاع المعلومات الممكنة، طمأنه وقدم له سيجارة وقهوة. ثم خيّره بين أن يغوّله، كما بلغة الزبانية، في الزنزانة المنفردة في انتظار تعريضه لحصص التعذيب والاغتصاب والموت الحتمي الذي يَلي، وبين أن يتعاون معه – سجل مولاي بوزقزة أن النقيب ليجي عرَض لقايس مسحاً تشسطياً عن تفككك شبكات التنظيم في

مدينة الجزائر. ووسوس له أن الجبهة تعيش آخر لحظات احتضارها.

33 حكواتي.

وكان النقيب ليجي قال لقايس "لولا أني أعرف أنك تشتهي أن تعيش، وأعرف أيضاً أنهم ساوموك على حياتك لتصعد معهم إلى الجبل، وأعرف أخيراً أنك تريد أن تكون فرنسياً كما هو طموح بقية المسلمين من أمثالك، لكنث أحلتك على ڤرازياني. إنه شخص ذو قدرة استثنائية على كسر كبرياء من يستنطقهم، بإذلالهم والذهاب معهم حتى النهاية، كما مع النساء. أنت تفهم قصدي؟ إنه يفعل ذلك أيضاً مع الرجال. إنه حصان. ههههه! تستطيع أن تقول أيضاً إنه ابن قحبة وسخة!"

فقد ظل النقيب ليجي كلما أفلح في تحويل أحد المقبوض عليهم إلى "الزُّرقان"، كان مولاي بوزڤزة يعلم ذلك أيضاً من تقارير ڤايد بن عمر، شعر أنه أسكت في روحه المعذبة هاجساً آخر من هواجس هزيمته في فيتنام.

من مقعد في الرواق، حيث كان ينتظر إدخالَه، سمع قايس.

”– عزيزي پول، لوحدك، بعبقريتك أنت العسكري ابن العسكري، استطعت أن تنمّي هذه المشتلة البشرية؟

– وهي تتحول الآن، يا حبيبتي بريجيت، إلى آلة مدمرة. تعدادها أكثر من ثلاثمائة من ”الزرقان“.

– باهر!

– سأزرعهم مثل سرطان في جسم تنظيم الفلاقة، ليُنبتوا الشك فيه؛ الشك في النفس ذاتها، في الرفيق، في المسئول، في القريب.

– ثم يتطور الشك فيصير هوساً؟ ههههه!

– عند ذلك الحد، لن يعود في مقدور أي مسئول عسكري منهم أن يرى في محيطه غير خونةٍ مندسين.

– يجب تصفيتهم؟

– ههههه! هؤلاء العرب أعرفهم. جسست عقليتهم. رأسي خرجت من بطن أمي، في المغرب، بين أمثالهم، هنالك عند شاطئ الأطلسي.

– منذ حوالي أربعين عاماً. أعرف يا عزيزي، أعرف. ما أجمل أزمّوز المحصنة!“

وما ذا لو أن الجدران، التي كانت تؤوي أولئك الجلادين، ذُوّبت طلاءاتها وقُشرت تلبيساتها لتفوح من حَجَرها وطوبها وآجُرها ومن خرسانتها نفسِها رائحةُ عنصريتهم ويندلع زعيق همجيتهم! سأغدو من الآن

كلما عبرت شارعاً من شوارع العاصمة تهيأت لاستقبال بقايا أصوات المعذَّبين من خلف تلك الجدران.

قبل أن يرتب النقيب ليجي عملية فرار قايس، خلال نقله من مركز الاستنطاق إلى سجن سَزكاجي ليقفز من السيارة عند أضواء التوقف في شارع غاص بالمارة ويجري تحت طلقاتٍ خلْفه في الهواء لتكون المقاهي كلها في المساء لا تحكي سوى عن البطل الذي غافل يقظة المظليين، كان حدد له أن يكسب ثقة القيادة؛ بدءاً بقائده. وأن ينسج شبكة من المستعدين للتعاون. وأن يجمع ما يمكن من المعلومات. وأن يقبل تأدية أخطر المأموريات، إبعاداً للشبهة.

اعترف قايس لقائده بذلك وسلمه رسالة، على أساس أنها صادرة من قائد الولاية إليه، مزورة الأختام والإمضاء، بمضمون عن أسماء المندسين، الذين يجب تصفيتهم في فصيلته، وكان من بينهم عاشور حمداش، ورسالة أخرى منه هو موجهة إلى قائد الولاية بأسماء مندسين يعرفهم في نواحي الولاية. ثم قال "كان النقيب ليجي سينتظر مني أن أسرب له اسم المسئول الذي كان سينزل إلى مدينة الجزائر من أجل إعادة بناء هيئة التنظيم لبعث المقاومة الحضرية". وكشف "مراسل النقيب ليجي في المنطقة، والذي سيكون صلة وصلي، هو المدعو بوسيف".

لم يرتّب مولاي بوزقزة في أن قايس سينجز مهمة تصفيةِ بوسيف تبرئةً لذمّته مما كان سيعرّضه للقتل في كل حين؛ فقد فعل ذلك بمسدس في سوق المدينة، تحت مراقبة رابح ولوناس مموهين في قشابيتين للتدخل في حال إخلاله أو تراجعه.

في الغداة، وصلت مولاي بوزقزة من النقيب ليجي نفسه رسالة، يكون بوسيف، قبل القضاء عليه، هو من سلمها شخصاً بلّغها بدوره إلى قايد بن عمر "السيد مولاي بوزقْزة. تكاد تبقى الوحيد مَن لا يعي أن تنظيم الجبهة مختَرق. وأن من قد يصفّيك قد يكون واحداً من صفوفها. لأمنك، أدعوك إلى الالتحاق بسلْك "الزرقان"، هنا في العاصمة. سأنصبك قائداً لهم. وأجعلك تحظى بامتيازات ضابط برتبة رائد في الصفوف النظامية. أعرف قتاليتك وأقدر شجاعتك. أحترم الرجال مثلك".

مساء، كان مولاي بوزقزة أوصى قايد بن عمر بأن يرمي الجواب في البريد "حضرة النقيب پول - ألان ليجي. وتعدني بأنك ستقلدني رتبة رائد، مثلما قلدت إياها خونةً من أمثال عبد الله! تدهشني أيها النقيب بمناوراتك التي لا تنطلي على أمثالي. أسمع عنك أنك أنت شخصياً من يبرمج عملياتنا الفاشلة ويسيرها عن بعد. إنْ أنا أذكّرك بهزيمتك في ديان بيان فو، فإنما

لأؤكد لك أنك، هنا في الجزائر أيضاً، ستذوق هزيمة ثانية أشد مرارة".

فمن المعلومات التي التقطها مولاي بوزقزة أو وصلته من القيادة في برقيات أو بلغته من قايد بن عمر عن عمليات مسلحة في المدن خاصة تلك التي أصبحت لا تسفر عن ضحايا، وقد أسرّ بذلك للوناس إذ أمره بإعادة إدماج قايس في فوجه، تأكد أن النقيب ليجي هو الذي دبرها وأعدّ قوائم بأسماء ضباط في جيش التحرير ومسئولين في خلايا المدن، لا تشوبهم شبهة، بصفتهم متعاونين معه. وسهّل تمرير دفعة سلاح هرّبها أحد الفارين من الجيش. ورتّب عملية استيلاء أحد موظفي البريد على مبلغ العشرين مليون فرنك قديم ليدسهما للقيادة. وصدّر وثائق تظهر مراسلات بين ضباط ومسئولين لا يمكن أن يفكروا لحظة في الارتداد أو الاستسلام أو التفاوض انفرادياً؛ مستغلاً صعوبات الاتصال بين قيادات الجبهة الميدانية. وبذَر كثيراً من الخوف والشك حدّ أن أمسى الاتصال اللاسلكي، حتى بأجهزة "AN/GRC ٩" الأمريكية الصنع المحمولة، أو البريدي المنقول، من المخاطر الكبرى؛ نظراً إلى عتاد الرصد والتصنت المتطور الذي كانت مصالحه تستخدمه.

”هذا وطنك ولّا جيت برّاني ياراس المحنة الله جاوبني“

٢

لدهشته، فقد بقي مولاي بوزقزة لساعات لا يصدق ما كان التقطه ليلاً من جهاز الراديو. في اجتماعه صباحاً مع قادة أفواج الفصيلة، كان حذر "نحن نعيش فعلاً أخطر مؤامرة. يجب أن تنتبهوا إلى ما قد يصل الجنود من تضليلات".

ثم كان سجل أنه انتشر أيضاً بين مسئولي النواحي وضباطها، بالغاً الجنود أنفسهم، مضمونُ مكالمة قائد الولاية الرابعة عبر الراديو إلى مسئول في قيادة الخارج بمدينة وجدة، كانت مصالح النقيب ليجي رصدته وسرّبته ليردده هذا اللسان لتلك الأذن "أنتم هناك لا تقومون بأي شيء. أنتم ثمة في الخارج مرتاحون. لكن احذروا. الجنود هنا في الجبال متذمرون من ذلك ومتعبون. الجنرال يقترح "سلم الشجعان"، المساواة الكاملة للكل. نحن، ذاك ما نطلبه. المساواة هي الغاية التي سعينا إليها دائماً. إن لم تمدونا بالوسائل التي نواصل بها الحرب سنقبل الاقتراح. لن نستطيع أن نطلب شيئاً آخر".

وتبسم "بهذه البساطة، يا حضرة النقيب! لا يمكن لقائد، هنا، أن يتحدث عن المساواة بدلَ الاستقلال".

يوم وقف على جثث مرمية على تباعد بينها، في أحد المعابر إلى جبل الزبّزبر، تيقّن لجنوده المحيطين به، حتى قبل إجراء التحري، أن الفعل من تخطيط النقيب ليجي للإيهام بوقوع القتلى ليلاً في كمين، مع الإبقاء على أسلحتهم الخفيفة. وسجل أنهم لم يكونوا سوى معتقلين أُلبِسوا لباس الجندية ثم صُفّوا جماعياً ووُضعت في جيوب بعضهم وثائق بأختام الإدارة من مثل رخص مرور وتكليف بمهمة، ورسائل خِيط عليها بين ثنايا ألبسة بعضهم الآخر، من النقيب ليجي نفسه إلى بعض ضباط النواحي يعلن لهم فيها استعداده لاستقبالهم.

الآن، في اجتماع لقادة الفصائل في مجلس الولاية بأحد المنازل الجبلية المهجورة، يتساءل مولاي بوزڤزة للقائد بعد تقديمه تقريرَه "هل يعقل أن يقتل العدو أحدنا خلال معركة أو اشتباك، ولا يأخذ منه الوثائق التي يكون يحملها؛ خاصة تلك التي تحتوي على أهمية سرية؟" يرد القائد "أعرف أن يد النقيب ليجي وأعوانه ليست غريبة عن تحرير بعض تلك الوثائق ولا عن دخوِها في جيوب بعض الضباط ومسئولي الاتصال والجنود المستشهدين، أو وضعها في حاملات ملفاتهم مرمية غير بعيد عن جثثهم. ولكن هذا لا ينفي نية الخيانة الممكنة ولا فعلها الحتمي عند بعض الإخوة".

مولاي بوزقزة لا يُخفي تذمُره ”هل وهنت عقولنا إلى حد أن يُدخل إليها العدو هذا الارتيابَ في مَن هم أوثق عندنا، ويزرع هذا الشك حول مَن هم مِن خِيرة شبابنا الملتحق بصفوف ثورة شعبهم؟“ قائد الولاية ينبّه، ببرودة ”ليس هو الشك. إنه الحذر. اليقظة“.

ولمسئول جهاز التسليح والاتصالات العامة، يبدي مولاي بوزقزة قلقه ”أتفهّم أنْ يسقط شهيداً جندي، فدائي، مسبّل، خَيط اتصال؛ أو أن تهن عزيمة أحدنا فيرتدّ. لكنْ، كيف يقع، مثلَ طريدة، قائد في كمين؟ كيف يلقى القبض على ضابط أو مسئول فلا يقاوم ويُسدي للعدو خدمات تهدم ما بناه الجهد والتنظيم والتضحية؟“ فيَسُوق له ”أولئك نعرفهم فنحتاط عند وقوعهم. الخطر يأتي من داخل صفوفنا، من بعض هؤلاء الفارين من الجيش الاستعماري. إنها المؤامرة!“ ويحذّره قائد الولاية ”وهي لا تستثني أحداً“.

إنه يستدرك، على مضض ”لكني أقدر أن للحرب صُدَفها أيضاً. وأزعم أن من يقعون أسرى، من إخوتنا من الجنود والفدائيين وأعوان الاتصالات، في المدن خاصة، لا يملكون جميعاً، وقد أكون منهم، روح بن مهيدي ولا صمود الفدائيات، مثل جميلة، أمام وحشية الجلادين وانتظار المقصلة، مثل زبانة وطالب. لذلك، كان يمكن أن نجد في أنفسنا هذا العذر أو ذاك لبعضهم

إذ يقبل بمغريات مالية ووعود مادية أو بسراح مقابل تعاونه لاحقاً". القائد ينظر إليه، بعينين زجاجيتين "لولا أني أعرفك لقلت إنك تمهد لأمر ما". ويلتفت نحو كاتبه "لا تسجل هذا الكلام!" ثم يقول بعصبية "انتهى الاجتماع!"

أسرّها مولاي بوزقزة بمغص قابض. قاوم أن لا يُفلت منه على لسانه ما كان سيسجله في كراسته "يُعدَم سي مسعود شيهاني في العام الأول: ٢٥ أكتوبر ١٩٥٥، غيرةً من وسامته وذكائه؟ تصفيةً، كيلا يكون خليفة القائد المقبوض عليه؛ لأنه آتٍ من ناحية أخرى؟ مضحكٌ محزنٌ أن تلفَق له تهمة تعاطي الشذوذ. وكيف لقائد محنك مثل بن بولعيد أن يقتله، في العام الثاني: ٢٢ مارس ١٩٥٦، جهاز راديو مفخخ ألقته طائرة العدو جيء به إليه، في كازمة، ليجرب تشغيله؟ وبعده يقع القائد زيغود يوسف، في العام الثاني: ٢٥ سبتمبر ١٩٥٦، في كمين نصبته له هو وسبعة من رفاقه دورية معادية في أحد المنازل المعزولة؟ وأيّ أخبار عن القائد عبان رمضان نصدق، أاستشهادَه في العام الثالث: ٢٦ ديسمبر ١٩٥٧، كما بلَغنا عبر جريدة "المجاهد"، أم تلك التي تشاع عن أنه قُتل لربطه اتصالات مع العدو، لم يكشفها للرفقاء، أم أنه اغتيل تصفيةً لحسابات؟"

الذي يكونون تعرضوا له أثناء أسرهم، بدعوى أنهم فارون من المعتقلات ومن التجنيد، فإن مولاي بوزقزة ظل مطمئناً إلى أن مجنَّديه، على قلتهم، هم على إخلاص نقيّ لكونهم ريفيين يحملون جميعاً في أرواحهم هذا الاستعداد الفطري للتكيف والتحمل، ويُظهرون شراسة في المواجهة. وإن هو، كما سجله، اعتبر قايس من الاستثناءات فإنه، مع ذلك، حذِر منه أن يكون يتصرف معه بازدواجية؛ للحملة الإعلامية المشهِّرة بعملية فراره، كما بعمليات سابقة مشابهة لممرضات وفدائيين التحقوا بنواحٍ أخرى. لذلك، كان أمر لوناس أن لا يغفل عن قايس لحظة.

في حديثه الجانبي إلى المحافظ السياسي، خلال ذاك الاجتماع، مثّلها بهلوسة من النقيب ليجي أن يسرّب إلى إحدى صحف العاصمة أن الطلبة الملتحقين بالجبال هم من صنيعة الاستخبارات لاختراق صفوف الجبهة. وقال له "لا يمكن بأي حال أن يكون الطلبة، الذين شنّوا الإضراب قبل خمسة أعوام دعما لثورة شعبهم، جميعاً عملاء جندهم المكتب الخامس". فرد المحافظ "تقول: "جميعا"! نسبة البعض اتركها لنا، يا سي بوزقزة".

"امْطَيّش[34] وبقيت في الأرضْ العريانه حتى جاوْ
اصحابْ النحز دفنوني"

[34] مرمي.

٣

بتشنجٍ في أصابعه، كما وصف مولاي بوزڨزة، واعتصارٍ في قلبِه "نحن نواجه من داخلنا تصفية حقيقية. وقيادة الخارج، في تونس كما في وجدة، يبدو أنها لا تولي هذا الأمر ما يكفي من الاهتمام لتجنب الانهيار. الظرف يستدعي تعيين لجنة تقصّ لكشف خيوط المؤامرة، يا حضرة مسئول التسليح والعلاقات العامة".

ولنفسه، رافعاً رأسه في فراغ الكازمة ليلاً، يحس وحش الحيرة ينهش فيه الروح "كيف أتحمل أن أرى هذا التدمير يطال جيش تحرير شكّله الرجال بأعصابهم ودمائهم ونثاراتهم! إلهي، ما أشدها ساعات عصيبة!"

فأخبار تجنيد الاستعلامات الفرنسية عشرات من المرتدين ومن المتعاونين إن كانت، مثل طالع نحس، أغامت هذه المرة حالَ مولاي بوزڨزة، فإنها ذكّرته بميليشيات فيشي، كما قال لقايد بن عمر، إذ تفحص في الليلة الموالية صوراً فوتوغرافية، كان جمعها له، لمن صاروا يعرفون باسم "لابَلْويث".

أولئك هم "الزرقان" المتميزون بزيهم الأزرق عن بقية الأسلاك العسكرية وشبه العسكرية، ولهم صفة

من أين لي أنا، وريثة الهم والدم والفخر أيضاً، أن أفك خيوط هذا التشابك كله؟ كيف يمكن خزق هذا الصمت الصخري عن تلك الملابسات الفعلية والحقيقية؛ ولو كانت مؤلمة، ولو كانت مخجلة!

في الكازمة، الآن، يضيف مولاي بوزقزة "وكيف يسقط القائدان عميروش وسي الحواس في العام الخامس: ٢٩ مارس ١٩٥٩، في كمين قاتل نصبه لهما العدو، لدى محاولتهما عبور الحدود الشرقية؟" – لسمعة قائد الولاية عميروش الرهيب، كما وصفته وسائل الإعلام وأظهرته صورها مقتولاً منخل الصدر بالرصاص، كان أفراد الحركى خاصة يتزاحمون، في توجّس، ليتأكدوا من موته أكثر منه أن يُشبعوا فضولهم، مثل العسكر الآخرين.

أنا، لا أعرف غير شارع باسم العقيد عميروش. أذكر أني تغذيت في مطعمه الجامعي مرة مع حكيم. إني لا أنسى دوي تفجير السيارة المفخخة في قلبه يوم اثنين في ٣٠ جانفي ١٩٩٥ في الساعة الثالثة والربع بعد الزوال: اثنان وأربعون قتيلاً وحوالى ثلاثمائة جريح من الجنسين في كل الأعمار! كنت في الثانوية إذ أحسست الهزة.

برغم توجسه من أن تصيب فصيلتَه عدوى مَن ضُحّوا في صفوف الأفواج القتالية الأخرى، بعد الغسيل

الحركى؛ ها هم يجوبون الشوارع والزناقي يقودهم عبد الله المْرانْدي.

هنا تَذخل زمرة منهم مقهى النجمة. يتهامس عنهم الزبائن "ها هم جاو الزرقان كلاب النقيب ليجي وسيده ماسو". جلسوا ودخنوا ولعبوا الأوراق والدومينو وقرأ بعضهم الجرائد، وبعضهم قام فأشعل المذياع؛ تحدّياً لأوامر الجبهة بحظر ذلك كله على الأهالي.

وهناك زمرةٌ أخرى، منهم، تؤدّب مِن أصحاب المحلات، مَن اكتشفوا عنهم أنهم كانوا يلتقطون بأجهزة الراديو إذاعة القاهرة أو "صوت الجزائر المكافحة" وكذا من ألزموا زبائنهم بعدم التدخين واللعب والاستماع إلى راديو الجزائر وقراءة الصحف.

وهنالك ثالثة، منهم، تنزل في مطعم الهلال ورابعة في حَمَام البرَكة؛ لملاحقة المبلّغ عنهم أو المشتبه بهم وكذا الفدائيين والمسبّلين ومسئولي الاتصالات من رفاقهم السابقين أنفسِهم، الذين يعرفون حياتهم الشخصية وسلوكهم وممكنات تحركاتهم.

مولاي بوزقزة يسمع حسيس القلم على الورقة "مثل هؤلاء، على رأسهم عبد الله المرتدّ، هم الذين يجب تعريضهم للعقاب على خيانتهم، لأنهم أمسوا يشكلون خطراً قاتلاً لما تبقى من الخلايا".

زوالاً، كان قرأ في تقرير قايد بن عامر "لمواجهة لابَلْويث، زُرع شوّافون وشوّافات ومنهم أطفال، يخبرون عن تحركاتهم وأفعالهم خيوطَ الاتصال الذين يبلّغون المسئولين في السرّية. فبين يوم وآخر صار يُسمَع سقوط هذا "الزرقان" أو ذاك في هذا الشارع أو ذاك، بمسدس، بخنجر أو بشاقور؛ أشهرهم كان عبد الله الفْراندي برشاش فلم يقترب منه أحد من الأهالي إلى أن تجمد تحته دمُه".

وعلى أرَق الليلة الماضية، لمشقةِ غلق باب الارتداد إلى العدو من الجنود ومن الضباط أنفسهم، تسلم مولاي بوزقزة مساءً برقية محمولة أبلغته نزول النقيب حطابي الطويل بسلاحه ملتجئاً إلى فصيلة الجندزمة في پاليسترو.

إنه يزفر. يسترجع وجه رفيقه في السلاح "سي حطابي! عرفتكَ وسيما منحوت التقاسيم. كنتَ من الأوائل الذين أقاموا قواعد التنظيم في المنطقة. وأشرفت على تدريب المجندين. وخضت معاركك بشرف".

وخارج الكازمة، ليشهق حسرته خلف جذع شجرة بلّوط، نشج "ما الذي جرى؟ كنتَ متعلماً شجاعاً ذكياً، من عائلة ميسورة. كان يكفيك دفع الاشتراك وتأدية

الزكاة لتبقى تسيّر تجارة والدك. آه، من هذه الحرب يا رفيق! يا لَهذا القدر!"

انتبه لهذا الجندي الذي اقترب منه. كان يقيم الحراسة الليلية.

"- حضرات، ثمة مشلكة؟

- لا، أبداً. وعنك، أنت؟

- حضرات، كل شيء هادئ.

- التحق بفوجك. سأقيمها إلى ساعة التبديل.

- حضرات؟

- استرح!"

لم يبحث مولاي بوزقزة عن سبب آخر أشعل في ذهن النقيب حطابي التفكيرَ في إنقاذ حياته، بعد استدعائه إلى قيادة الولاية، غير مساءلته عن اختفاء مبلغ مالي معتبر "من أين لك يا رفيق إجابة سحرية في ظل هذه الظروف العصيبة من الانفراد بالقرارات واستشراء الحزازات واستيقاظ وحش الجهوية في الصدور وضغط الحرب عسكرياً ونفسياً؟"

كان مخططاً للمبلغ المالي، المحصّل من التبرعات والاشتراكات، أن يوصله إلى هيئة القيادة مَن كلّفه النقيب حطابي بذلك. غير أن الشخص، الذي يبدو صفّى خلال الطريق مرافقَه، يكون غيّر الوجهة.

احتمل مولاي بوزقزة أن سي الناجي سيتخذ ذلك ذريعة بأن يتهم النقيب حطابي بتدبير الخطة للاستيلاء على المبلغ، ومن ثمة أن يتخلص منه؛ منعاً لترقيته، بدلاً منه، إلى رتبة رائد.

إنه يُحدّث نفسه، واقفاً في موقع الحراسة. لاحقاً، سجل أن النقيب حطابي كان سيحول مظاهر التراخي إلى فعالية في إنجاز العمليات الجانبية لتخفيف الضغط المسلح على الزبَزبر، الذي يشكل مركز دائرة لكل العمليات العسكرية في المنطقة، ويضع حداً للأخطاء القاتلة في تكتيك التحرك، كما حدث يوم محاولة اللقاء الفاشلة بين تَينك السريتين.

فمثلَ هاجس ظل يلح عليه أن سي الناجي هو من يكون غزل خيوط الدسيسة ليقضي على منافس مفترض كفء ويستحوذ على المبلغ المالي. للتحقُّق من ذلك، كان، لإحضار الجندي مُعيزي الذي أُوكل إليه إيصال المبلغ، بعد التأكد من وجوده في أحد منازل أصهاره، كلّف الجنود الثلاثة الشيخ مڤري والمجدوب عنتر وواغلي حدّاد، الذين يشكلون في الفصيلة طليعة صدامية، قادهم ڨايد بن عمر إلى ضاحية المدينة حيث نزلوا عند فاطمة الفدائية، التي أوصلتهم إلى المنزل المعين.

ولأن قائد الولاية كان أنظرَ مولاي بوزقزة طويلاً، قبل أن يستمع لأقوال الجندي مْعيزي، فإن سي الناجي في الأثناء كان أرسل خمسة من مقرَّبيه ليحضروا له النقيب حطابي. ها هو حطابي، لحنكته وكفاءته القتالية، يتخلص بمسدس كان يخبئه تحت جلابته من اثنين منهم تقدّما لأخذ رشاشه من نوع ماط ٤٩ كان ركنه قريباً من فراشه. ويجرح الثالث، فيما طارد في الظلمة لأمتار الاثنين اللذين كانا أقاما الحراسة أمام باب الدار، التي كان نزل فيها ليلتها عند الفلاح عزوز بن علي.

يوم مقابلة الجندي مْعيزي بسي الناجي فأقر أنه تلقى منه الأمر بتخبئة المبلغ في حفرة وسط منزل هدمه قصف، كان النقيب حطابي لبس بزة مظليي العقيد بيجار وبعث رسالة اعتذار سلم مولاي بوزقزة إياها قايد بن عمر "رفيقي في الكفاح، الوطني النقيب سي بوزقزة. سلام الله عليك وحفظه. لن أقول شيئاً آخر غير أمرين: أولهما أني أعتذر لك ولبقية الرفقاء الشرفاء عن قراري الذي أعرف أنك ستضعه في مكانه. وثانيهما أني أقسم لك أني سأتعقب، ما بقيت حياً، الانتهازي الجبان قائد الناحية المدعو سي الناجي ومن معه من المتواطئين علي".

حرص مولاي بوزقزة على أن تؤخذ صورة لسي الناجي، بعد إدانته وتنفيذ حكم الإعدام فيه رمياً بالرصاص تلبية لرغبته الأخيرة، هي التي أوصلها قايد بن عمر يداً بيد إلى النقيب حطابي؛ على خلفها "اطمئن. عدالتنا أخذت مجراها في حق من تألّب عليك. رفيقك مولاي".

لشهامة باقية له، كان النقيب حطابي الطويل، بعد ذلك، طلب أن يُنقل إلى وهران. فثمة كان طُعن حتى الموت، بعد قتله عسكرياً وجرحه آخر بالسلاح الأبيض، في شجار نشب بينه وبين مظليين من اللفيف الأجنبي في إحدى الحانات، رداً على إهانة "أنت، لست سوى فلاقي خائن"، لأنه كان جرّد أحدهم من عاهرته ليصعد معها. كان مولاي بوزقزة قرأ ذلك صدفة في ركن أحداث متفرقة لجريدة "صدى وهران".

شهراً بعد ذلك، كان مِن قدَر مولاي بوزقزة، وقد سجل أنها من مفارقات أي حرب تحرير لا تترك مثل إعصار ضميراً إنسانياً على حياد ولا تُبقي على هشاشة موقف، أنِ التفت لصوتٍ مِن خلفه، بين نيران الاشتباك المتقطعة "لا تطلق! لو شئت كنت أرديتك". كان العسكري يرفع بيمناه بندقية من نوع ماص ٥٦ وبشماله حركة سلام، وقد حاصره ثلاثة جنود صوبوا أسلحتهم إلى ظهره وجنبيه.

قال العسكري، على فيض من الشقرة تحت خوذته "كان علي أن أتجنب موتين. أريد مقابلة قائدكم". ومد سلاحه مقلوباً لمن كان لا يعرف أنه هو القائد، فيما قرعت رصاصة على الصخرة وأخرى قطعت غصناً من شجرة قربها فطأطأ الجميع، على طلقات رد من الجنود المنتشرين خلف الجذوع والصخور.

"هذا برّك ولّا جيت برّاني ياراس المحنة الله جاوبني"

٤

"القدر!"

سجل مولاي بوزقزة ذلك. إنه يردده في داخله غبطةً، وهو يتمشى المسافة بين مواقع حراسة المخيم الأربعة "أجل، هو القدر الذي بعث بين يديّ الرقيب جُويل".

ذلك ما زكّى له اليقين بأن عسكرياً في صفوف العدو، مثل جُويل، وكان في ذروة شبابه في الثلاثين، لا يجرده من صفة كونه من أولئك الفرنسيين الأحرار المناوئين لسياسة دولتهم الاستعمارية.

وبراحة ضمير "رفض جُويل إعدام الجندي محمد، إثر وقوعه أسيراً تعبير عالي الدلالة عن إنسانيته".

كان جُويل تعرّف في الخيمة على مولاي بوزقزة بصفته هو قائد الفصيلة، وفاجأه بأن سحب طرف سرواله إلى أعلى حذائه الأيمن فظهر مسدس من نوع بيريطا مربوطاً إلى ساقه، ونظر إليه مبتسماً "ستقبله مني هدية". ثم اعتبرها له قوة خارقة أنطقت محمد "لا تكن نازياً!" لما كان سيصدر إيعازه بإطلاق النار عليه. فثار في شعور مولاي بوزقزة شبح طالب العلوم السياسية في جامعة الجزائر، التي غادرها بعد الإضراب

في العشرين من العمر، كما كان أُدخل عليه كاملَ الرجولة ظاهر الهيبة برغم آثار الإرهاق ورضوض الضرب وندوبه، قائلا في نهاية سرد عودته، وكان في عداد المفقودين في فصيلته "ذاك القاوري[35] هو الذي أنقذ حياتي مرتين. لو أجبِر مرة أخرى على أن يقتلني سامحته".

35 جمعها القُوَز (مؤنثها: قاورية، قاوريات) . صفة يعين بها سكان المغرب العربي الأجنبي الأوروبي.

وقال جُويل "عندها، كنت تذكرت مشهداً من إعدامات النازيين لفرنسيين من أهلي ومن غيرهم من المقاومة. كنت مراهقا، حينها".

خارج الخيمة، يتقابلان قاعدين على حجرين، قال جُويل منشرح الملامح للضياء الناثر على الخضرة المحيطة لَألآتٍ انعكست بريقَ أمانٍ في عينيه.

"– لن أندم أبداً على فراري. جيش بلدي يخوض حرباً غير عادلة ضد شعب آخر لا يطلب سوى حريته.

– اعتقدت دائماً أن في صفوف الجيش الفرنسي مخلصين كثيرين مثلك للمبادئ الإنسانية.

– نعيش، أيها القائد، لنذهب بقناعاتنا حدّ النهاية.

– لأن أمهاتنا ولدننا أحراراً.

– مثل حلم سعيد، سأظل أراه، أن يصبح يوماً الشعبان الفرنسي والجزائري صديقين.

– وتنتهي هذه الحرب.

– ويسود أرضَكم السلام".

كان لا بد لمولاي بوزقزة، بعد تلقيه برقية من قيادة الولاية، من أن يضمن لجُويل طريقا آمنة حتى تونس العاصمة. ويوم وصله خبر سفره إلى أميركا، قال لقادة أفواج الفصيلة، محيطين به وسط المخيم، بين حركة الجنود "ها هي ثورتنا تكتسب مسانداً آخر! مثلُ جُويل نحن ملزمون بصيانة صداقتهم إلى الأبد".

وبخاطر زاهٍ، سجل إذ عاد إلى الكازمة "تجد في جُويل، الرجل الوسيم الطيب السريرة، نموذجَ الفرنسي الإنسان. يجب أن تكون على درجة عالية من الشجاعة، أنت العسكري، أن ترفض تنفيذ اغتيال خصم لك بدم بارد. يا له من مثَل في الشرف أن تختار الحقيقةَ والعدل!"

فلِليالٍ، مثُل له وجه جُويل الطفولي الجميل. ثم تخيل طيفه في هيئة محمد إذ جاءه يخبره أنه سينوب في الحراسة عن جندي آخر أصيب بوعكة وخرج من الكازمة، مخلفاً له منه تلك الصورة التي كان جُويل، وهو جالس قبالته في قشّابية بنية وشاش أشهب كواحد من الجنود، رمّمها له عن لحظة إنزاله من مزكبة "هالف – تراك" نازف الرأس والوجه مهزوم البدن. فتسارع نحوه، في ساحة الحامية، أكثر من عشرة

عسكريين هائجين "فلاقي! بونيولْ!" كلٌّ يريد الظفر به لتمزيقه. فسارع أحدهم إلى شجرة، ومن أعلى أحد فروعها دلّى حبل مشنقة، صارخاً "قرّبوه!" فيما ربط آخر إلى مؤخرة المركبة سلكاً "لا! من هنا. نسحله، أفضل!" على فزع محمد كطريدة وسط ضوارٍ تَتهاصر الانقضاضَ عليه. في لحظة النزاع حول طريقة قتله، كان قائد الحامية خرج من مكتبه فأمر باقتياد الأسير إلى الزنزانة. خلال الطريق إليها، كان العسكري الذي نزل من على الشجرة حمل قطعة سلك شائك. جرى خلف محمد. ركله في أسفل ظهره فسقط. انهال عليه ضرباً، تمخر مخراً نواتئُ السلك الصدئة البدنَ الملقى، تُمزق نسيجه، حدَّ أن بقّع الوجهَ الهائج رذاذُ الدم.

كان جُويلْ قال "بعد أيام، تم تعييني لتأدية "سخرة الغابة"، كما هو شائع. ذلك يعني إعدام محمد من دون محاكمة، مثل مَن سبقوه، رمياً بالرصاص، بعد أن كان رفض أن يقرَ بأي شيء. لا محالة، لأني كنت أنا من أوقف ذلك العسكري عن ضربه بالسلك الشائك حتى الموت. كان قائد الحامية كلف عسكرياً بسيطاً من المجندين لإسنادي".

فإن جُويلْ كان وقف خلف العسكري على أهبة أن يُصدر الإيعاز لما صاح محمد نحوه، مقيد اليدين إلى الخلف "لا تكن نازياً!" فامتص الصيحةَ ضبابُ صبح

ذلك الشتاء إلى أعماقه، فيما رنّت كلمة "نازيا!"، مثل وقع ناقوس جنائزي، في ذهن جُويلْ، الذي كان قال للعسكري "عليك أن تفكر جيداً قبل أن تفشي هذا السر. هذه ليست حربَك. إنها قذرة وخاسرة". وأمره أن يفك قيد الأسير ويطلق في الهواء طلقتين.

محمد، لدهشته، كان تعثر في خطوتين قبل أن يتوقف ملتفتاً إلى جُويلْ، مثل طريدة. وفيما دار، مختفياً في الضباب، تنهد العسكري البسيط، شعوراً بخلاص، لا ريب. ثم نطق "لماذا؟" فقال جُويلْ، رامياً قدَم الرجوع "ليعلم الآخرون أننا لسنا جميعاً قتَلة".

ليلة سفره نحو الحدود الشرقية ليصل تونس، كان جُويلْ سلّم أوراقاً سبق أن طلبها بيضاء مع قلم "حضرة القائد بوزقزة. عربون صداقة مني. شكراً لك". أخذها منه، بابتسامة، على ضوء شمعة الكازمة. ونطق "تستطيع أن تدخل". على قدر مفاجأة جُويلْ من التأثر حد أن شهق، إذ رأى محمد انتصب أمامه في شاش أخضر وقشابية سوداء وعلى كتفه سلاحه الآلي، كانت حرارة لحظة العناق بينهما.

أتخيل جدي رأى، من غير مرآة، بريق سعادة غمر وجهه؛ كذاك الذي رأيته منه، قبل عشرة أعوام، يوم سبقتْ أمي باية ووالدي جلال وفاجأته بالدخول عليه

في صالة بيته، هنالك في الحاكمية، حاملة له باقة ورد من جنينتنا!

"لعبت بيك النفس وجاي في لشحَانه[36] ولّا من صغرك امتبغ الفاني"

36 المشاحنة.

٥

لم يكن جُويلْ قدّم اعترافاً، تبرئةً لضميره، ولا رسالة، طلباً لغفران، إنما يد إنسان لإنسان. فبتأثر، بانفعال أحياناً، كما سجل مولاي بوزقزة، ذكر جُويلْ أيضاً أنهم كانوا، خلال عمليات التمشيط، ما أن يدخلوا قرية أو مشتة أو أحد الدواوير، حتى يوجه كثير منهم إلى من يصادفونه أمامهم من الأهالي صفعات ولكمات وركلات وضربات بعقب السلاح حيثما اتفق ورصاصات في الظهر لمن حاول الهروب؛ لا فرق بين رجل وامرأة أو طفل وصبية "كان ذلك من بين ما وُجهنا إليه لإذلال الآخر، لكسر أي تفكير لديه في أي مقاومة".

وهز جُويلْ رأسه بحركة من لا يصدق "حضَرتُ عملية تعذيب. رأيت بعيني ما كان يحدثني عنه فابيان". كان فابيان أحدَ رفاقه المكلفين باستنطاق المشتبه بهم أو الواقعين في قبضتهم جرّاء المعارك. كان يقول له "لتعذيبهم لذة تفوق مواقعة إحدى نسائهم. وأنت ترى أحدهم يعتصر، كما عندما نُبركه على قنينة أو على مقبض فأس، ينتابك إحساس بأنك تدفع في دبره قضيبك إلى مداه".

أحسُّ رعشة تَخطّ جسدي.

كان جُويلْ تحدث من قبلُ لمولاي بوزقزة عن الأسير زياد. ها هو يروي عنه أنه كان على الأرضية، مكبل اليدين والرجلين، عارياً تماماً. ذقنه يصطفق من شدة برد القاعة الرطبة، لا رعباً من المرحلة الثانية من التعذيب؛ فإن عينيه كانتا لا تزالان تشعان إصراراً على الصمت. أدخل له فابيان الأنبوب في فمه وأشار إلى أحد العسكريين بفتح صنبور موصول إلى صهريج مملح. تخبط خبطاً شاهقاً شهقات الاختناق على نزّ الماء من فمه وأنفه وعينيه أيضاً، إلى أن ذوى "كان المشهد من الحيوانية بحيث أصابني غثيان فدُوارٌ. اعتذرت لفابيان إذ عرض علي أن أدير ذراعي المولّد الكهربائي الصغير، بعد أن رُمي زياد فوق سرير ميدان متسخ رُبط إليه ثم أوصِل مِفسك أحد السلكين بسبابته والثاني بعضوه التناسلي".

كان العسكري الآخر شرع يدير الذراعين بنشوة، كما يلعب طفل بآلة، لما راح صراخ زياد ينفذ إلى قلب الحجر، وقد خطا جُويلْ خطوة الخروج فقهقه من خلفه فابيان "إنهم دون البشر، أقرب إلى الحيوانات. هم لا يحسون إحساسنا".

مساءً، كان جُويلْ رأى زياد معلقاً من معصميه المربوطين خلف ظهره إلى عارضة مرمى ملعب ساحة الثكنة "في الصباح، بدا مفصلاه انفصلا، لا يشد بقية

نقيب فصيلتهم، خلال حملة التمشيط، أمراً بأن يتأكدوا من العضو التناسلي لأي امرأة تقع بين أيديهم؛ من الشابات خاصة وغير كبيرات السن، بذريعة كشف الذكور المتموّهين بهن "كان ذلك، لكثير من رفاقي مثيراً جداً. بل إن بعضهم رأى أمر النقيب ترخيصاً ففتحوا لحيوانيتهم أن تحفر نهشاً في أجسام أولئك النساء اللائي كنّ سيلبسن إلى الأبد ثوب الحزن على عفتهن، فاقدات سعادتهن، منكسرات الروح، منسحقات

فقليل من العسكر، في فصيلة جُويلْ، مَن كان يكتفي بتنفيذ ذلك الأمر دون تمادٍ. هو، كان يعرف القائدَ جوبير، في فصيلة أخرى، يُعرّض للعقاب العسكري كلَّ واحد أقدم على أي اغتصاب "لكن كيف يمكن، في مثل هذه الحرب، أن يكون العسكريون جميعاً على تخفُّظ جوبير. كنا نحس أن الالتزام بالقيم الإنسانية، حتى مع عدو كلاسيكي آخر، لا يعنينا مع الجزائريين. إنه نزوع رهيب رُكّب في أذهاننا. الآن أدرك فظاعته. كان ذلك ذروة ما يمكن أن يبلغه الكزه. الآن أرى وجهي بصورة الوحش الذي كان يمكن أن أكُونه".

جُويلْ يذكر أيضاً أنه يمر في ذهنه أكثر من مشهد لصور الوحشية؛ تلك التي رآها تصدر من أفعال الحركى، الذين كانوا في صفوف فصيلته يؤدون دور الكشاف والجلاد المكلف بالذبح، فاقت كل تصور لتخريب الكرامة الإنسانية "تجاه النساء، خاصة، حين نحاصر أحد الدواوير، نعلم أنه يُؤوي الفلاقة"، عازياً ذلك إلى شعور بعض أولئك الحركى بأن كل نظرة من أي امرأة تقاطع نظراتهم هي إدانة لهم؛ فكانوا لذلك أشد شراسة في أفعال الاغتصاب المصحوبة دائما بالضرب وبالشتائم؛ حسَب ما كان جُويلْ يفقهه من الترجمان مردداً له، كما في تلك المرة، مخففاً بلا شك، من فحش العبارة كما سمعها ممن كان يزكب، مثل حيوان، امرأة لا

تصرخ، لا تتألم، وهو ما هيّجه "قلت لَرَبّك اصرخي، يا رخمة! اصرخي للفلاقي بن فريحة زوجك، اصرخي! قولي له ها هو حقو ينيـ...ني وينيـ... الجبهة!" ثم ربط ذراعيها وقدميها عارية إلى جذع شجرة لوز وسط بَيدر الدوار. وبخنجره، كما يفصل ضرع شاة مذبوحة، حزّ نهدها الأول فالثاني "تقيأت. كان النقيب يتابع ببرودة. تلك كانت أفظعَ لحظةِ هولٍ عشتُها".

في الورقة الأخيرة الملحقة، كتب جُويلْ أن الملازم أول فابيان في جلسة الاستماع الأولى، كان نطق "سيدي القاضي، أنا أرغب فعلاً في الإجابة عن ظروف موت العرب الثلاثة"، لأنه كان متهماً بقتلهم بالسلاح الأبيض واحداً بعد آخر ببرودة دم داخل زنزاناتهم "ولكن إذا ما وصلت القضية إلى المحاكمة فسأقول أمام المحكمة إنه بجانب الحفرة التي ألقيت فيها الجثث الثلاث كان يوجد مدفن جماعي حيث تتعفن خمس وسبعون جثة قتلت في ظروف مشابهة. وسأكشف عن أسماء المسئولين". فانفعل القاضي "انتبه! أنا لم أسمع شيئاً مما أنت ذكرته الآن. واطمئن على أني سأبذل المستحيل لإخراجك من الورطة". وطوى الملف بدعوى أن الملازم أول، مثلما أثبته تقرير الخبرة النفسي المحبوك، لم يكن في كامل قواه العقلية، حيث تسقط عنه المسئولية الجنائية.

كان مولاي بوزقزة، إذ تأكد من أن الحركي حمّو هو ذاته، بعد أن تمكن كومندو آخر، مكون من رابح ولوناس وجندي ثالث، من اختطافه لدى خروجه من حانة في مدينة پاليسترو، نادى على بن فريحة، زوج المغتصبة المقتولة.

"– خوفَ أن يؤثر عليك هاجس الثأر، فتتهور فتفشل العملية، رفضت طلبك المشاركة فيها.

– فعلا، حضرات.

– الآن، أضعُ الخائن بين يديك.

– لا شيء يشفي غليلي فيه مثل هذا، حضرات.

– حتى موتُه؟

– إلا إذا كان بطريقة يذوق بها أقسى الألم.

– أبعده عن أنظار الجنود".

بدا حمّو، على أرضية متربة صلبة، عارياً مصلوباً إلى أربعة أوتاد خشبية، موثوق الرجلين والمعصمين بضفائر من نبات الدوم، لما وقف عليه من لم ينطق له سوى "أنا هو بن فريحة زوج رخمة. وأنا الجبهة". ثم أشار إلى جنديين بالاقتراب، متراجعاً خطوة. فشرط الأول بشفرة خنجره شرطة مركزة بالعرض من الثدي إلى الثدي فتمزق الجلد وتشلح اللحم وانبجس الدم وانبعث صوت ألم ادّخر مدّه لِما يلحق، فيما ذرّى الجندي الثاني، بحركة بذر، الملحَ بطول القطْع فارتفع الصوتُ بمقدار ما

تحولَ القنؤ والبياض إلى الزهريَ. وعمودياً، كأنه يكمل رسم صليب، شرّط الجندي الأول من قبضة القفص إلى السرة. فتفسخ الشحم على جانبي المزق مثل ثُلْم لوّنته الحمرة القانية. وذرى الثاني الملح فأكل الصراخ من مدّخَر التحمل. وبتفريع الصليب نزولاً من بداية الفخذ اليمنى فالشمالية إلى نهاية الساقين امتص الدم المسحوقَ الحارق والتهم الصراخ مزيداً من المدّخر. بيد أنه كان لا يزال في عيني حمو بقية من نظر، لم تذهب بها نهائياً تموجات الألم المتعاقبة في مفاصله ودماغه، كي يرى بن فريحة تقدم منه سالا خنجره فاستغاث له بصوت عبد مملوك آتٍ من السحق "أنا كلبك آ سيدي!"

فبحركة صارمة من شِماله، كمش بن فريحة كمشة واحدة ذكر حمّو وخصيتيه ثم حز باليمين من الجذر، على ما أفزع الطيور من الأشجار المحيطة، ودك له كل شيء في فمه دامياً. ثم تولى نحو موقعه، في عينيه أشعة غروب تتوارى بين أغصان أشجار الصنوبر والعرعار.

إعصار يُلولب أعماقي. يمتص مخي. لا وصف لي عما ينتابني اللحظة.

"هذا برك ولّا جيت براني يا راس المحنة لله جاوبني"

٦

بوجهٍ حزين وصوتٍ مذبوح، سأل مولاي بوزڤزة، بعينٍ دامعة أيضاً، ڤايد بن عمر، عند مخرج الكازمة، إن كان رأى على جسد الحسين منتصر علامة. فقال "وشم كلمة "حب" على ساعده".

كان الحسين مطعون الصدر مثخن البطن، كما دلت على ذلك آثار الخنجر عاوية بحقد على جسده العاري إذ فكه ڤيزا من أنف المركبة العسكرية وتركه يسقط أرضاً في ساحة المدينة. حدث ذلك إثرَ كمين مهلك نصبته، لفصيلة مولاي بوزڤزة التي كانت في حال عبور، فرقةٌ من الحركى مدعومة بمظليي بيجار، في سفح جبل الزبَزبر، قادها ڤيزا نفسه.

عقب اشتباك لاحق، رداً على الكمين بكمين مثله في "مسلك الموت"، كان الحركي صوان البخّ، الذي أُسر في الأثناء، أقرَ لمولاي بوزڤزة، عند مدخل أحد مخابئ جبل الزبَزبر، أن ڤيزا هو من كان مثّل بجثة الحسين.

عرف مولاي بوزڤزة، كما كولونيل الزبربر كان سيعلم أيضاً من إحدى الوثائق التي كان الجنرال نعيم رزاز سلمه إياها عن العملاء والمتعاونين، أن ڤيزا، الذي هو ليس سوى شقيق لمن قتله مولاي ولد المهاجي نفسه

في مبارزةٍ غريماً له في رقية بنت المعاشي، انضم في العام الثاني ١٩٥٦ من الحرب إلى سلك المجموعات المتنقلة للحماية الريفية، الملحقة بالجيش الفرنسي، ومنها إلى الفرق الخاصة.

في ذاك العام، كان باشا أغا المنطقة راهن على ڤيزا لضابط الاستخبارات وقائد الفرقة الإدارية المتخصصة "لاصاص"، قائلاً له في بيته على شاي، بعد مشوي وسقّة كسكسي بالعسل والرايب "جيش فرنسا العظيمة يستطيع الاعتماد أيضاً على واحد مثل ڤيزا ولد القايد في تعقب الفلاڤة، لقدرته على العيش مثلهم في أقسى الظروف وعلى خوض حرب عصابات ضدهم بأساليبهم"، على صوت الجنرال شال، عبر أمواج جهاز راديو "ت. س. ف" موضوع فوق صوان فاخر، يملأ صالة الضياف المفروشة بالزرابي الحمراء "لن نستطيع بسط السلم في الجزائر من دون الجزائريين. نحن في حاجة إلى الحركى كي نقوم بالحرب ضد المتمردين. ذلك ما يضمن الفعالية".

وذكر البحّ أن ڤيزا، بعد أن شوّه وجه الحسين، الذي كان أسر مجروحاً جروحاً بليغة، بشرطات من خنجره ثم ألصقه نازفاً بأنف مركبة "هالف – تراك" لتجوب به شوارع المدينة في المساء، قال له هو شخصياً، لأنه كان مساعده "بقي لي بوزڤزة".

عقب ذلك، كان ڤيزا، وهو يشحذ شفرة خنجره على حزامه الجلدي في ساحة الثكنة قبل صعودهم إلى الجبل لتنفيذ مهمة مطاردة جديدة، قال أيضاً للبح "سأشرّح للمدعو بوزڨزة بيضتيه وأطعمه إياهما نيئتين واحدة بعد أخرى ثم أغلق فمه بما يفخر به مع رقية". يومها في الجبل، لم يُفد ڤيزا غير الانسحاب من الاشتباك، تاركاً وراءه ثمانية قتلى ومساعده البح أسيراً. كان مولاي بوزڨزة، ضمن فصيلته، فاجأهم عند مدخل الغابة في فجر يوم بارد، تأخر فيه القمر كأنما انتظاراً لأولى زخة رصاص ليأفل.

ففي مقر فرقة مظليي العقيد بيجار، كما نقل البحّ، كان ڤيزا تباهى للملازم أول جورج بالخسائر التي ألحقها بفصيلة بوزڨزة. وأقسم له أنه سيوجع أفواج جيش التحرير في المنطقة. ووعده بأنه سيحتفل برؤوس بعضهم في شوارع المدينة. وبثقة، على ابتسام، محوّماً إلى أيام آتية "وسأطهر جبل الزبَزبر منهم. وأجبر أعوانهم في المدينة على التزام جحورهم ليموتوا فيها كما الجرذان أو يخرجوا مستسلمين".

سجل مولاي بوزڨزة أن ڤيزا أحب أن يؤكد لجورج أنه رجُلُه؛ فبرغم المعلومات الأولية التي استصدرها من سعيد الملّوكي، فكانت باعث شعور له بنشوة، رجع مرة أخرى إلى قاعة التعذيب. وجد الحزكِيِين لا يزالان

متناوبين، ببولاَلتين[37] مضفورتين من عصَب ذكَر ثور، ضرباً على ظهر المعلق من رجليه، عارياً كشاة للسلخ. ولإشارته، في بزة المظليين المموهة مشمرَ الساعدين بالقبعة المشهورة بظُلّة خلفية مفروقة وبالمسدس يميناً والخنجر شمالاً، فكّا الحبل فتهاوى الجسد مرتطماً بالأرضية المبللة بمزيج من الماء والدم والبول "هم جميعاً هكذا. يُظهرون عناد الأبطال. ازبطوا ربّة إلى الخرّارة!"

37 مفردها بولالة، نوع من السياط.

أوصل الحركي الأول، بخصيتي سعيد الملّوكي المربوط فوق سرير ميدان متهرّئ، ممسكَ أحد الخيطين الكهربائيين الخارجين من آلة مولد التيار المتردد المنصوبة على ثلاث قوائم مثل حشرة بغيضة، وممسكَ الخيط الثاني بصيوان أذنه، فيما جلس الحركي الثاني على مقعد الآلة، وكما يقبض على مقود دراجة هوائية، حرك، لإشارة ڤيزا، الدواستين اليدويتين المتصلتين بعلبة الدينامو، الذي على غمغمة صوته تصاعد أنين الألم من رعشات الصعق المتوالية هزاتٍ مخلخلة لكل أمر يصدره الدماغ لرد فعل إرادي مُنْزلة كل مقاومة إلى درجة العدم؛ كان ڤيزا يعرف ذلك، كان

يبتسم لأنين معذِّبه الذي تحول صراخاً لا يصدر عن بشر، مُخدثاً رجْع صدى لعواء ذئب.

عاود ڤيزا الإشارة إلى الحزكيين بالتوقف. أشعل سيجارة. جرع من قنينة بيرة "باڤ" وطاف بجسدٍ بدا تخلى عن صاحبه، متيقناً من أنه لم يعد لمعذَّبه من الإحساس بوجوده غير ما يشعره بالألم. لكنْ كان يدرك أن فيه بقية تجعله يسمعه "فكّوا ربْ ربّهْ!" رموه أرضاً. فبمقدمة جزمته العسكرية، من نوع رنْجزش، ضرب ڤيزا ضربةَ جسٍّ على جنب سعيد الملّوكي. كانت البرودة خرساء. وبضربة أخرى أشد من أختها على جنبه الآخر "هل تتكلم؟" فأطبقت آذان الجدران على الصمت. بصق ڤيزا على وجه غائب. ثم نحو الحزكيين "اربطوا ربْ ربّهْ إلى الكرسي!"

كانت رجلا سعيد الملّوكي مقيدتين بحبل متسخ إلى قائمتي الكرسي الحديدي، مثل معصميه إلى الخلف، لما وجّه له ڤيزا لكمة مفاجئة مباشرة في الفم فترشّش الدم وامتصت الصرخةَ جدرانُ القاعة الرطبة الكابية الضوء، على ارتطام أخرس من لحم وحديد "أعرفك يا ولد الملّوكي، يا الراعي. حملت السلاح ضد أسيادك. واليوم ترجع لتقول لي إنك تبت. مثلك لا يرتدّ. تبحث عن الشهادة؟ أنا سأعطيك رخصة الحصول عليها. تريد أن تدخل الجنة؟ أنا سأعجّل لك إليها. ولكن قبل أن

تطمث حورية من الحور، أنا سأنيـ... أختك، هنا أمامك!" وأومأ برأسه نحو الحركيين، مثل كلبين متأهبين لأدنى حركة منه "ثم أتركها لهذين ولمن سيحضرونها مثل دجاجة".

وبعصبية، قطع ڤيزا حبل الربط بخنجره وأعاده إلى غمده. غرس يديه في شعر سعيد الملّوكي، مشهراً تكشيرة حقد. جرجره إلى حافة الحوض الملطخ ماؤه ببقع الدم والعفن. غمر له رأسه فيه إلى حدّ انقطاع الأنفاس. عاود وعاوَد. ثبّته من مفصلي ساعديه على حافة الحوض. تناول قضيباً معدنياً به ضرب على الظهر بقوة. تهاوى سعيد الملّوكي على جنبه قاذفاً من فمه قطعة حمراء داكنة سميكة التخثّر.

وضع ڤيزا أسفل جزمته على خد سعيد الملّوكي وضغط "أرسلوك في مهمة اختراق مضادة؟ كنت ستكون عميلاً فاشلاً! الآن أريد أن أسمعك تحدثني بالتفصيل عن عددهم. أين سينزلون؟ متى؟ لماذا؟" وأشار إلى الحركيين "اغسلوا وجه ربّه. أريده أن يراني" ورفع قنينة بيرة فارغة "سأقعدك ربّك عليها حتى أسمع صيحة أمك القحبة" ففتح سعيد الملّوكي، بين الانتفاخ والدم، ما كان تبقى من عينيه.

كانت جدران قاعة التعذيب تُرجع صدىً لصريخِ ألمٍ، وحدَه مسيخٌ كان سيتحمّله بلحمه ودمه، تلاشى في

آخر الرواق عند باب أدراج الصعود إلى الطابق العلوي، من حيث خرج ڤيزا مزهواً ليخبر قائد المظليين الملازم أول جورج "المعلومات التي انتزعتها من الضيف مؤكدة. إنهم ثلاثة من فرقة بوزڤزة. من المحتمل جداً أن ينزلوا عند فاطمة بنت الوكيل. هي تحت رقابتنا. سأنتظرهم. وسألتقطهم مثل أرانب. اطمئن يا حضرة القائد. لن يفسدوا عليكم احتفالات الرابع عشر جويلية".

"ولّا انث خاين قَبضوا غليك خُيانه باعوك بْقيمة

رَبعين سلطاني[38]"

38 عملة نقدية قديمة.

٧

قال البحّ، أيضاً، قبل تحويله إلى مقر القيادة "أنا لم أكن أفعل شيئاً غير تدوير ذراعي "الخزّارة". كنت في حالة سكر. كان ڤيزا يجبرنا على الشرب في حصص التعذيب. زميلي هو الذي أجهز، بعد ذلك، على سعيد الملّوكي. خنقه بيديه حتى الموت. تقيأتُ. كان غالباً ما يقوم بذلك مع الميئوس من حالهم بعد التعذيب. كنت أتعجب منه كيف لا يشعر بندم ولا ألم. لم يكن اسم بوبغل عاد خافياً على أحد. كان منبوذاً حتى بين صفوفنا. لم يحزن عليه أحد يوم قطّعه فدائيان أطرافاً أطرافاً في "بيت مواعيد" تديره امرأة، هي التي أعطتهما لباسي مظليين تَموّها بهما للخروج صباحاً من المدينة. ولا أقيمت له في الغد مَندبَة، كما العادة مع القتلى من الحركى فترددُ أزواجهم ونساء عائلاتهم، مع البكّايات، عويلاً ظافراتٍ خدودهن حتى الدم "آحَنِه، راخ وما جاشِي! كانْ هنا ومَكانْشِي"!"

بُعيدَ منتصف نهار هذا الثالث عشر جويلية، كانت المركبة العسكرية، المشبهة سيارة الإسعاف، وصلت نهاية شارع مدينة پاليسترو الرئيسي في اتجاه محطة القطار، بمكبرين منصوبين أعلاها إلى الأمام والخلف،

منهما انبعث صوتان متناوبان بالفرنسية "تعالوا، تعالوا! استعراض للأرانب البشرية في انتظاركم!" وبالعربية "ازواحوا تتفرجوا على لّي بغاو يحاربو فرنسا العظيمة بالكلخ والله أكبر!"

ذلك، فيما كانت فلول الأقدام السوداء، بينهم هنا وهناك رجال ونساء من الأهالي في ألبسة أوروبية ومحلية أيضاً، كهذه التي تَموه بها قايد بن عمر وسطهم كأي فلاح بِمظلّ من نبات الدوم تحته كنبوش أبيض وجيلية سوداء مفتوحه على قميص أبيض مغلق وحقّاظ زواوة وحذاء من نوع شبَرْدينة، يتزاحمون تحت أشجار التوت والدلب والأعلام الثلاثية الألوان المعلقة على رصيفي بداية الشارع عند الدارة حيث توقفت عربة مصفحة فتح بابها الخلفي من الداخل فقفز مظليان بسلاحيهما وأشار أحدهما بالنزول إلى من أطل برأسه، بينما تقدم أحد الحركى بميقافون ونطق بفرنسية مهرشمة "ها هو الفلاقي الشيخ! هذا جزاء من يتطاول على فرنسا العظيمة!"

كان الرجل مكبل اليدين إلى الخلف عاري الرأس في جاكيت سوداء من الفلانيل بكثيفِيَتين وجيبين غلويين تحتها قميص مفتوح على الصدر مبعثر الياقة، وسروال عسكري بستة جيوب وحذاء من نوع "باتوقاز" مفكوك السيور، عاضاً على شفرة خنجر "كومندو" باديَ

الضواحك متغضن الجبهة، لا رعباً كما بدا، ولكن خوفاً من سقوط الخنجر ليعني ذلك أنه انهار خوفاً.

وكان الأسير الثاني ما أن قفز إلى الأرض، شفرة الخنجر بين الأسنان، مكبل اليدين إلى الظهر، مفتوح الصدر على تريكو - جيلية، قميصه عالق بكمّ واحدة، في نوع السروال نفسه محزوماً بحبل رقيق، يلبس النعل نفسه، حتى تذبذب صوت حامل الميقافون "وهذا صاحبه المجدوب!"

وعلى ارتفاع أصوات الدهشة عند نزول امرأة في لباس أوروبي سمراء بتسريحة شعر قصيرة على الموضة لابسة، فوق الجيپة السوداء، تريكو - فيستا أبيض من القطن بجيبين، مفتوح على صدر ناهد "وهذه المتآمرة.. فاطمة بنت الوكيل!" فلم يبق نظر من الرصيفين لم ينجذب إلى وقفة المرأة الهادئة الواثقة، وقد أخذ ڤايد بن عمر أخذاً بملامحها الوسيمة وبعينيها الراحلتين إلى ما وراء الخوف، حاضنة يمناها في يسراها عند بطنها.

كأني عرفتها، فاطمة تلك. كأني سألتقيها يوماً. إني أراها، أشمها. يا لَروعة أولئك النساء!

ضابط المظليين، كما بدا لڤايد بن عمر مزهواً كديك رومي، في لباس القفز المموه وقبعته الحمراء المائلة إلى صدغه الأيسر ونظارته الشمسية السوداء، يعطي

إشارة انطلاق الاستعراض، على موسيقى معدّلة من "لامارسياز" مبثوثة من مكبرات صوت في الأرجاء، ويتقدم كما قائد جوقة نحاسية بكلب مدرب في يده. خاطب ڤيزا بجنبه في لباسه الميداني.

"– تمنيت لو أن الثالث كان ضمن هذا الاستعراض! تعرفتم عليه؟

– اسمه واغلي. أنتم تعرفون عقليتهم، حضرة الضابط. كان يحب أن لا تراه امرأة يستسلم. باغتنا بمسدس من خلف ظهره. قتل لنا الكابرانْ عوفي. كنا مضطرين إلى القضاء عليه. أما الآخران فكنا فاجأناهما مثل أرنبين في فراشيهما.

– من يكون هذا الكابران؟

– الذي نزل من الجبل.

– آه.

– هو الذي بفضله ضبطنا قائمة بالأسماء الحقيقية للفلاقة الذين كانوا ضمن الفصيلة المنتمي إليها فتعرفنا على عائلاتهم.

– ضبَطْنا؟ تعرّفْنا؟

– أقصد أنتم حضرتكم.

– آه.

– وهو من أقنع شباب عرشه في مجمّع "السلك" بحمل السلاح معنا".

[illegible] والشرطيين
من خلفهم، وسطهم قايد بن عمر، أكثر ضبطاً لخطواتها على إيقاع مشية الشيخ غير متأثر بما حوله، كما يظهر التشوش على المجدوب من نظراته الفزعة إلى الرصيفين. هم الثلاثة مطوَّقون على الجانبين ومن الخلف بعناصر من الحركى وراءهم مظليون.

قايد بن عمر يقدّر، كما كان سينقل إلى قائده بوزقزة، أن ما أغاظ هذا الذي صرخ من الرصيف "إرهابية قذرة!" هو ما كانت عليه فاطمة من وثوق في نظرتها وتوازن لجسدها وشموخ لرأسها. وذلك ما أثار هذه التي نطقت لصديقها، ذراعاً في ذراع "إلهي، وهي أنيقة أيضا! ألا ترى؟" فضغط على يدها "كيف لواحدة، متحضرة مثلنا، أن تفعل هذا بنفسها؟"

هذا الذي ركض من الرصيف الأيمن نحو الثلاثة، فأمسك به مظليان، أرغى "كلاب! قتلتم ابني!" تصيح امرأة "إرهابيون! أعدموا زوجي!" وإلى الخلف يرتفع صوت "اهتموا جيداً بالقحبة العزبية!" قايد بن عمر يرمق صاحبَ الصوت بنصف عين، فيما آخرون يتدافعون على الرصيفين بالعرَق على الجباه وتحت الآباط، لرؤية وجوه الثلاثة عن كثب. تتعالى أصوات متداخلة.

"– قِردة.

– فعلا. انظروا!

– وَسِخون. رعاة. مقمّلون.

– فلاقة طيزي!

– وحوش.

– أنتم عارٌ بشري.

– لا شيء يصلح معهم غير إبادتهم.

– الموت للعرب!

– الجزائر فرنسية!"

لقفزة فجائية، من الرصيف الشّمالي، ينتزع شاب من الأقدام السوداء بحركة خاطفة السكين من بين أسنان المجدوب ويقطع به رباط سرواليه الخارجي والصغير فتنكشف عورته. يدور حول نفسه مذعوراً، فيما ڤايد بن عمر يركس نظره وبعض الأهالي يُميلون وجوههم ذات اليمن أو ذات الشمال وآخرون يحجبونها بأمظالهم تحت الشمس، بينما يمعن آخرون على انفجار قهقهات وضحكات ارتفعت منها صيحة هذه المرأة من هنا "يا للهول، حيوان بدائي!" وأخرى لذاك الرجل من هناك "ومختون مثل أبناء عمه اليهود!"

لا الشيخ ولا فاطمة، وحتى الحزكي القريب، ولا مَن هم على الرصيفين رأوا كيف سلَخ المجدوب رجليه وصرخ يجري صرخة مبحوحة، انْبهتَ لها ڤايد بن عمر. نطح وجه ڤيزا، الذي كان التفت، فأدماه. تلقى على

قفاه ضربة من أخمص بندقية حركي كان ركض خلفه؛ على تعالي الصياح من هنا وهناك وإشهار المظليين، كما الحركى، أسلحتَهم مستنفَرين في وضعية إطلاق، بينما لم يتزعزع لفاطمة كما الشيخ قيدٌ من وثوقهما وقد صُوبت نحو صدريهما فوهات بنادق ثلاثة حركى.

ڤيزا ينظر إلى دمه في يده، كازاً أسنانه. ضابط المظليين يوعز إلى كلبه "ريكس، هاجم!" الوحش ينقضّ على الطريح، لا يزال يغالب صرعه. نهش منه الوجه في هياج مسعور. صرخ الطريح، منقلباً على صدره. غرس الحيوان أنيابه في الكتف وأدار الجسد مستعيناً بقائمتيه الأماميتين، كما يفعل بطريدة ليمزق أحشاءها. خبط الطريح خبطاً، على خليط الصراخ بالزمجرة. ضم ركبتيه إلى صدره، دامي الوجه. نهشٌ في الفخذ الأولى. تلَوٍّ وألم. نهشٌ في الثانية. تمططٌ وصراخ. غرس الوحش أنيابه في الحجْر، مركزاً قوائمه الأربع، كما دُرّب، وجذب بقوة راجعاً إلى الخلف رافعاً خيشومه وبين أنيابه الخصيتان والعضو التناسلي قطعةَ لحم متدلية النثار تقطر دماً، على تلاشي صريخ المجدوب وسط قليلٍ من الابتهاجِ كثيرٍ من الروع وارتفاع أغأعات قيء هنا وردات سعال هناك؛ بينما شهق ڤايد بن عمر ومسح دمعتين.

أتلمس بطني. أحس أصابعي تغور فيه ممزقاً. أرى أحشاءه، أشم دمي.

غير بعيد، في مدرسة "لِيزانْديجانْ" الابتدائية، كان معلم من الأهالي ألقى سؤاله على تلاميذه في قسم السنة السادسة "لو كنت تملك طاقية الاختفاء ما ذا تفعل؟" فأجاب تلميذ، من غير أن يرفع إصبعه "سأذهب لأحضر السلاح، وأخوض معركة ضد كل الفرنسيين، أهدم كل شيء، أقتل غي موليه، لاكوست، ماسو، بورجاس – مونوري، وسأطلق سراح إخواني من السجون ومن المحتشدات، وسنتحرر من الكابوس الذي نعيشه".

لم يكن ذاك التلميذ يدري أن والده كان يعبر طريق الاستعراض إلى السجن القريب من المدرسة ومنه سيخرج ليلاً. في الغد، كان سيعلم أن الجثة التي ألقيت في مخرج المدينة، فوقف عليها ڤايد بن عمر، هي لجندي اسمه الشيخ مڤري. لذلك كتب للمعلم في إجابة الإنشاء جملة واحدة "أنا ابنه!"

أين يكون ذاك الطفل الآن، إن كان لا يزال حياً؟ وأمه، ما ذا تكون فعلت إذ جاءها الخبر؟

"خبرك غاض وما صابو لك جُرَّه[39] ڤتلوك العديانْ

خْلاصك لَڤْدّام"

[39] أثر.

٨

هنا، في قمة الزبَزبر المطلة على القرى والبلدات المحيطة، ها هو مولاي بوزقزة يتأمل الصمت البعيد، يتخيله منتظِراً أقدام العائدين لينفجر بأصواتهم. تذكر الجنديَ سعيد الملّوكي الذي كان كلّفه، لأنه من المدينة، مهمةَ تحضير عملية القضاء على قائد المظليين والعميل ڤيزا يوم احتفالات الرابع عشر جويلية، فخسر معه الشيخ والمجدوب وواغلي وفقَدَ تنظيم الجبهة معهم الفدائية فاطمة.

وفي المدى يرسل سؤاله. سجله "ماذا يكون غيرُ العناية أيضاً تجعل أهالينا في الأرياف أشد تعلّقاً بجيش تحريرهم كلما سعت يد العدو لعزلهم عنه تنفيذاً لسياسة جنرال يعتبرهم الماء الذي نحيا فيه لذا وجب تجفيفه لننفُق؛ بحصارهم، بتطويقهم، بالزجّ بمليونين منهم في المحتشدات المضروب عليها بالأسلاك الشائكة مظهراً أشد عاراً مما كانت عليه المحتشدات النازية، وأقسى ظروفاً مما يمكن أن تتعرض له الحيوانات في الزرائب؟" يَحدث ذلك في نهاية هذا العام السابع ١٩٦١.

إنه ينطق لِمَن كأنّه أمامه "إن كنت أنت أيها الجنرال القرشَ فنحن الأوزكا" ثم، ها هو بمنظاره الميداني

يرصد آخر المسُوقين هنالك إلى الشَّمال. فقبل ساعات كان ڨايد بن عمر أخبره ”سيرحُلون من تبقوا في المنطقة“.

تابَعهم مجموعات مجموعات، نازلين في قافلةٍ تُوقِّع نوتات للحزن، نساءً وبعض الكهول وشيوخاً وأطفالاً حفاة، إلا قليلاً منهم، مشياً على الأقدام نحو المنخفض، إلى مَحشر المحتشد. يَبدون لم يحملوا مما خلفوه وراءهم في الأحراش والحقول سوى ما ظهر فوق رؤوس النساء، من صرار محزومة كيفما اتفق، أو على ظهورهن من رُضَع ومن صغار أيضاً كدَّهم المشي. لا دابة أو قطة ولا دجاجة أو كلب ولا قفة أو حقيبة. تركوا كل شيء هنا وهناك؛ أراضيَهم وآبارهم ومنابعهم، بيضهم وطحينهم، عسلهم وسمنهم، قهوتهم وسكرهم، ألبستهم وصوفهم، خيلهم وبغالهم وحميرهم وقطعان ماشيتهم ومئونة مخازنهم ومطاميرهم. كان الحركى خلفهم نهبوا، لملموا، أخذوا كل شيء.

عن يمينهم وشِمالهم ومن خلفهم عساكر من اللفيف والمظليين المدججين ومن الحركى أيضاً. ومن فوقهم مروحية حربية عصبية. إنهم، كما في مشهد قيامة، يتقدمون صامتين في إباء نحو المحتشد المحوط بالأسلاك الشائكة، مرمياً هنالك في مساحة عارية قرب طريق معبدة، منها نحو الحقول الساكنة والديار

المتناثرة، التي تُرى خرائب، تظهر تلك الممرات كما أفاعٍ ضخمة زاحفة. إنها معابر الفلاحين إلى الغابة هنالك بعيداً للصيد، للاحتطاب ولرعي ماشيتهم. الآن، غادرتها الحياة.

ثمة، في المحتشد، الذي يبدو أضخم من سوق أسبوعية للأنعام، لا لحشر خلق يشبهون البشر، وجد هؤلاء المنقَّلون الجدد مهجَّرين آخرين قبلهم من دواوير ومَشتات أخرى. إنهم أكثر من ألف، مولاي بوزقزة يعرف ذلك، سيظلون متروكين لقَدَرهم في العراء، عرضةً للريح والغبار والبرد، في انتظار أن ترمى إليهم قطع من الصفيح وحزم من نبات الديس وأخشاب منخورة وبقايا خيام متهرئة وخمسة كيلوغرامات من الطحين لكل عين لمدة شهر.

من كل مرتفع، في المحيط، كان يمكن مشاهدة المحتشد بأربع زوايا تربطها إلى بعضها الأسلاك الشائكة الملغمة، بالضرورة، أقيمت فيها أربعة أبراج مراقبة من خشب فوقها كاشفات ضوئية دوارة على شكل المحتشدات النازية. وفي اتجاه الطريق المعبدة مدخل مشدد الحراسة المسلحة؛ لا دخول إليه أو خروج منه إلا برخصة مرور من سكرتير مكتب المراقبات السري، الذي لا يختلف عن أحد أعوان الجيستاپو، يمضيها ضابط الفرقة الإدارية المتخصصة "لاصاص"، الذي

المشبوهين والمطلوبين حسب القائمة المعدة عنهم فوق المكتب، مع صور بعضهم غالباً.

المسبَّل منصور، الذي سبق لقايد بن عمر أنْ جلبه لأن مولاي بوزقزة طلب إليه شخصاً يؤتمن يمكن الاعتماد عليه في ربط الصلة مع المحتشد فظهر أخاً لأحد جنود الفصيلة، هو الذي أخبر أنه صار متعذراً جداً محاولة إيجاد منفذ للهروب من المحتشد. وأن لغماً قتل قبل يومين مراهقين حاولا الخروج من تحت الأسلاك. وأنه أصبح لازماً الحصول على رخصة مرور شخصية، ذات صلاحية ليوم واحد خارج محيط البلدية التابع لها

من رخصة المرور أو الاستقبال أي شخص من عائلة يكون أحد أفرادها التحق بالفلاقة – كان مولاي بوزقزة سأل منصور كيف أن إدارة المحتشد لم تنتبه إليه فطمأنه "هو أخ من أمي"، وكل شخص يوقَف وبحوزته ما يفوق حاجته من السكر والقهوة والزيت ومعلبات السردين، وهو ليس بقالاً ولا تاجراً، يخضع للاستنطاق. ويشترط على أصحاب المقاهي من العرب، لتموينهم بالقهوة والسكر والمشروبات، أن يحوزوا رخصة مرور، وحدهما السكرتير والضابط مفوضان بتسليمها.

توهَمتُ الآن حالي ثَمةَ في المحتشد طفلةً كنتُها وسط العراء حافية جائعة ظمأى أرنو في صمت وانقهار إلى تلك المساحات والبراري والجبال من خلف هذه الأسلاك الشائكة وفوق رأسي الرشاشات الثقيلة المنصوبة في الأبراج الأربعة.

أياماً بعد ذلك، ها هو منصور في المخيم يتوسّل، بغصة في الحلق "سي بوزقزة. لم أعد في حاجة لا إلى الرجوع إلى "السلك" ولا إلى تجديد أي رخصة. هجّرونا من أراضينا. سلبونا كلَّ شيء. رمونا للجوع والعطش والداء. وها هم يحرسوننا أيضاً بالأسلاك الشائكة والألغام كأننا وحوش. الآن، أعطوني بندقية، كما أخي. وضعية أهالينا لا تطاق. أنا لا أعرف إن كان في كون الله بشر مثلنا يتعرضون لمثل هذا الهوان.

فرنسا ظالمة. يلزم التعجيل بطردها من على هذه الأرض".

وبدمعة في العين وحنق في الصوت، نقل بعبارات تنتظر أن تجد من المستمع لها نشجاً، أن المحتشد، "السلك" كما يسميه الأهالي، ليس شيئاً آخر غير ذاك الضياع المحوّم بكآبة على هذه الأشباح ذات العيون الزائغة والوجوه التي يحفرها الجوع، وهذه الأجساد يمتصها المرض، وهذه العقول التائهة ينخرها سؤال وسؤال عن حالهم وغدهم، وهؤلاء الأطفال، الذين يأكل منهم زمنٌ سجّانيهم زهرة عمرهم، بنات وبنين، متيبسي النظرات، مكزوزي الشفاه، العارية صدورهم الحافية أقدامهم، بلا ريق في أفواههم، غير مرارة انتظار قطعة خبز والحلم بكأس حليب وببيضة مسلوقة أو بشربة ماء غير ملوثة، لا يجرون لا يصرخون ولا يعبثون. مكدودون، سرقت من عيونهم حروفُ اللوحة المقدسة المخطوطة بسمق الدواة على الصلصال والحروفُ الأخرى والأعداد وصورُ الكتب ولونًا مداد المحابر وسخر السبورة. في أصابعهم جمر القبض على قلم من قصب، على ريشة معدنية. في قلوبهم ضرام النطق بآية أخرى، بمحفوظةِ خرافةٍ جديدة.

أراهم جميعاً تحت سماء مفتوحة على التوه، لم يبق لهم تحتها سوى الله إليه يرفعون عيناً وعيناً أخرى إلى

شمس [illegible]

أيامهم.

وقال منصور "أهالينا في "السلك" صاروا مراتع للسل والخرع. يموتون بالعشرات. يردمون. لا يحظون، مثل البشر، بدفن"، فحدثه مولاي بوزقزة بأنه إن كان قائد الجنرال في المنطقة سأل عن المحشودين وسط "السلك" فإنما ليعرف إن كان عددهم تناقص إلى الحد المتوقع – قبل ليلة، كان سمع، عبر مذياعه، ما قاله حاكمُ الجنرال "هناك مشكلة حقيقة تواجهنا، غير تلك التي نستطيع أن نحسمها بالقوة العسكرية، كما نحن بصدد فعله: إنها هذا الانتشار من النسل! لا بد من أن نهيئ للطبيعة ما ستقوم به من انتخاب مع "الأنديجان" بشكل هادئ ومنتظم".

وطمأن المسبَل على أنه سيسلمه في الوقت المناسب السلاح مع آخرين من المحتشد، وقال له "منصور. المستعمرون جميعاً كان في نيتهم مواصلة إبادة الجزائريين التي بدأها بيجو منذ أكثر من قرن". وردد له توصية الماريشال، التي كان الجندي عاشور حمداش ذكرها له في إحدى محاوراته معه حول جرائم

العسكريين الاستعماريين "[illegible]

حيازة حقولهم. اذهبوا كل عام وأحرقوا محاصيلهم، أو أبيدوهم عن آخرهم".

ثم أمره: "منصور. الآن، يجب أن تعود إلى "السلك". تُحدّث من تثق بهم. كلّم المراهقين، غداً سيصبحون رجالاً. اجعل زوجتك تقترب من امرأة تستطيع أن تنقل إلى النساء أخبارنا. هذا لا يقل شأناً عن حمل السلاح لطرد الغزاة". فترجاه: "شاتي نُشم ريحة خويا بوخامسة!" فأشار إليه بأن يتبع لوناس الذي كان حضر.

"هذا وطنك ولّا جيت براني يا راس الهانة لله كلمني"

٩

فحيثما كان مولاي بوزقزة تحرك، في بداية هذا العام ١٩٦٢، ملأت بصرَه آثار العذوان الذي كان مر من هنا أو هناك فجعل مصير الأهالي آلاماً وبدّل وجه هذه الأرض يباباً؛ في كل مكان منها يكاد لا يُسمَع غير الصمت الناحب من كل بيت مهدم أو قائم أخلي منه قاطنوه، إلا التوجّعُ النابع من قلب هذه السهول المترامية مدى البصر إلى سفح جبل الزبَزبر، الذي لقصف قلبه بالنابالم بدا اخضرار جنباته ذاوياً؛ كأنما حزناً أيضاً على طيور الحجل والحمام واليمام والعقبان والغربان وطائر الرخمة الخرافي والذئاب والثعالب والخنازير البرية والأرانب والقطط المتوحشة واليرابيع وكل الفراشات وكل الحشرات.

بأجيجِ حريقٍ في الروح، كما سجل مولاي بوزقزة، تذكّر، وهو يولي وجهه شطر قلب الزبربر، ما كان ظهر له، لجنود فصيلته، من الوضعيات فائقة التشوه لتلك الأجساد التي فحّمها النابالم في تلك المعركة؛ ثمة، حينها، كان بعضُها لا يزال يتصاعد منه آخر نزٍّ للاحتراق وبعضها الآخر انسلخ منه الجلد وذاب عن المحجرين أو الأسنان أو عظم الساق أو الجمجمة.

إنه يسجَل، ظهره إلى جذع سنديانة: "في هذه الحرب، خلَف سلاحُ النابالم، هنا، المحارقَ النازية هناك. يفعل فعلها، هنا، على سماء مفتوحة، لا يُبقي ولا يذر. عند انفجار قنابله يتذرى قطرات صغيرة متأججة الاحتدام سريعة الالتصاق بكل ما تطوله، ثيابَ الجنود خاصة لتشويَهم، لتفحّمَهم تحت حرارة تبلغ ألف درجة مئوية؛ فمحاولة تبريد حروقه بالماء أو بغيره تروح غير مجدية. إنه خليط من الكبريت والبنزين والفسفور الأبيض. إنه اتحاد مادة الاحتراق بأوكسجين الهواء. من ثمة هذه الكتلة الرهيبة من اللهب. أما ثاني أكسيد كربونه فيصيب بدوخة مطوِّحة حدَّ فقدان الحسّ".

إنه يرى أطيافهم: النقيب ليجي، العقيد بيجار والجنرال نفسه "تتخذون من النابالم سلاحاً فتاكاً لتدمير المآوي والكازمات في الجبال والغابات ولترجيح كفة المعارك لصالحكم حين تشعرون باقتراب الهزيمة، ولكن أيضاً لتتركوا هذه الآثار النفسية البليغة على الضحايا المشوهين إلى أقصى درجات الفظاعة، لتخربوا نظام الطبيعة أيضاً. النابالم وسيلتكم في سياسة الأرض المحروقة".

ما الذي كانَه النبالم، يومها، غير جحيم الآخرة في تلك الحرب، يا جدي!

إنْ سجل مولاي بوزقزة أنه حزين فإنما لتذكار رفاق آخرين قضوا – كان الجندي عامر إلى جانبه متحصناً خلف صخرة لما قفز فجأة نحو رفيق أصيب ليسحبه ففجر رأسَه عيارٌ من رشاش طائرة حلقت على انخفاض، فيما بعثرت قذيفة مدفع الممرضةَ زهية أشلاء وهي تضمد نزيف رفيق؛ كانت هي الأخرى تزور الفصيلة من أسبوع لآخر فتمكث وقت ما يتطلبه التمريض الخفيف.

تذكّر سلمان والبركة وبغداد وبوذيبة وهارون وعطية من فصيلته، كجنود مجهولين، صدّوا بصدورهم تقدُّم قوات العدو، خلال ثلاثة أيام في معركة الزبَزبر الثانية، جهة مغراوة، برغم تدخل الطيران الحربي والمدفعية الميدانية "وأنتم، الحسين وواعلي والمجدوب والشيخ... لو كانت غيمة حزني تنفرج لأذكر أسماءكم جميعاً يا رفقاء!"

إنه ينظر من حوله بين الأشجار، بحثاً عن طيف عن شخص آخر، من غير الجنود في حال استراحة، ليقول له هذا أيضاً "من ذا الذي يكون حدد للعدو الإحداثيات ليصيب مواقعنا، وزوّده بتنقلات القادة ليقتلهم في كمائن دقيقة الترتيب والتوقيت، غيرُ هانس وعبد الله وأمثالهما؟ يأفك الألماني أن يكون فرّ من جيش العدو لأنه أُكتِشف أنه كان نازياً".

”يا مرزوق الجاه اثعيد لي ذا المحنه كما صايز
فيك اضحيح خبّرني“

الفصل الرابع

١

متراجعة بظهري، إني فوق كرسيّ أمام طاولة المطبخ، شابكة يديّ خلف رأسي، ها أنا أستمع لنفسي تندب لي، بطعم المرارة في ريقي، أني لم أقرأ عن تلك الأحداث في مقرر دراسي، خلال مساري كله، ولا كنت شاهدت صوراً منها أو طالعت عنها في وسيلة إعلامية رسمية؛ إلا هذا التخمين وذاك من متورط فيها، أو هذا الريبورتاج وذاك من قناة بث متحيزة: أن يوجه أسلحتَهم إلى صدور بعضهم بعضاً في صبح الاستقلال مَن كانوا أمس جنباً لجنب يقاتلون عدواً مشتركاً.

فالوالد – كولونيل الزبر، قبلي، لا بد أحزنته حسرةُ جدّي مولاي بوزقزة، وهو ينشر على حبل النسيان بعض ما لطخته حماقات إخوة السلاح؛ فإنه لم يكن يتوقع، سجل ذلك أيضاً، أن يكون أول صيف للاستقلال بدايةَ فتنة أخرَجت ثقل ما ظل متستَّراً عليه خلال الحرب؛ حتى، كما استتبَ الظن عند ذا وذاك، لا تُثلَم قداسة الثورة. من الثالث سبتمبر إلى التاسع منه: لسبعة أيام، عددِ أعوام ضريبة التحرير، وقد بات العشرة ملايين من

الجزائريين على صدمة المواجهة الدموية، غَدث البلاد أرضاً مرت عليها لعنة قيامة؛ آلاف الحقول من مزروعات القمح والشعير والحنطة تنتظر أن تُحصد، والكروم وأشجار الفواكه الأخرى أن تُقطف غلالها. وهذه المزارع والدور والبنايات والمنشآت والإدارات متروكة لقدرها قريباً وبعيداً، محترقة هنا، محطمة هناك: أتلف المعمرون في الأرياف كل شيء كان بين أيديهم بعد أن لم يقدروا على حمل الأرض، ومثلَهم خرّب الأقدام السوداء في المدن ما استطاعوا، ثم جميعاً غادروا في مشهد قيامة نحو الموانئ والمطارات!

فقد نزل مولاي بوزقزة إلى العاصمة، تنفيذاً لأمر من قيادته، مفروم القلب متبعثِر الوجدان؛ كيف يقف ضد من كانوا هم أيضاً قبل أيام، هنا مثلَه في الداخل، وسط الجبال، على خط المواجهة المباشرة مع العدو، لأكثر من سبع سنين، في مطلق الحرمان، في ذروة الخوف، في آخر ما فضُل من معنويات، في أقصى ما كانت الأعصاب تَحملته وسط حصار خط موريس على الحدود التونسية، شرقاً من عنابة في الشمال الشرقي، إلى نقرين في الجنوب الشرقي على طول أربعمائة وستين كيلومتراً، وخط شال على طول الحدود مع المغرب، من الغزوات في الشمال الغربي إلى بشار في

الجنوب الغربي على طول سبعمائة وخمسين كيلومتراً: سدّين كما فكي كماشة جحيماً من الأسلاك الشائكة المكهربة ذات التوتر العالي والألغام المضيئة والمتفجرة والمضادة للأشخاص ومن أبراج مراقبة ورادارات موصولة إلى مدافع مبرمجة لإطلاق نيرانها عند رصد أي حركة، كلّفا تعدادَ جيش التحرير أربعة آلاف قتيل؟

في هذا التاسع من سبتمبر، إذاً، وجد مولاي بوزقزة جو العاصمة، مثل رصاص، ثقيلاً ثقل سحابة الحرب الأهلية المخيمة عليها؛ فإنه ترك وراءه أيضاً ظلالاً لها تنشرها مجموعاتٌ من جيش التحرير تبغي الانفصال بتحريض من قادتها الداعين إلى إقامة مناطق لحكم ذاتي. كان الرائد نعيم رزاز قال له، في مكتبه: "إنه أسوأ ما يمكن أن يحدث في حق شعب وهب كل شيء لتنتصر إرادته الجماعية".

ها هو يتأهب للخروج من الثكنة في لباسه العسكري يقود فصيلة في مهمة تصدٌ لتقدُمِ قوات جيش الحدود. فإن الأنباء المتناقلة تحدثت عن زحف ساحق، عن قتالية شرسة، عن عشرات الجثث في الشوارع. ذلك ما أصابه بالغثيان، بالاختناق. إنه يقول لجنود الفصيلة، قبل التحرك: "إن قاتلتم، مجبَرين، فستقاتلون إخوة لكم. ولا بد أن في الجهة المقابلة من يقول مثلي. لذا،

أترككم مع ضمائركم. وإن وجدتم كيف تتجنبون إراقة دماء مَن هم رفاقٌ لكم فلا تترددوا".

في طريقه، تساءل لنفسه، كان قال ذلك أيضاً لقائده الجديد الرائد نعيم رزاز في مكتبه بالثكنة قبل أن يتسلّم الأوامر منه، أيتّهمُ هيئة أركان، خلْف ذينك السدَّين، بالتقصير في الإمداد بالتعداد والعدة، كيف يناوئ سلطة مدنية، ولدت من رحم الحرب هي الأخرى لم يمكّنها الزمن، تحت ضغط العدو، أنْ لا توقّع اتفاقيات إيفيانْ إلا بملحقها السري – فإن مولاي بوزقزة يوم ودّع قائده، بعد طلبه الإعفاء، كان تسلّم منه وثيقة "يجب أن تعرف هذا لأنك واحد ممن قاوموا كي يكون تحرير البلد كاملاً". إذ عاود قراءتها، واقفاً عند عتبة غرفته بالثكنة، أمام قدميه حقيبتُه التي كان وضع فيها أيضاً بندقية العائلة مفككة، تنهّد. طواها ووضعها في جيب سترته المدنية الداخلي، منفعلاً "اللطخة التاريخية!" ثم خرج يمضغ رمْل مغصِه كيف تتنازل الجزائر لعدو الأمس، حتى عن طريق الإيجار، عن سيادتها على قاعدة مرسى الكبير البحرية والجوية. وأن تتعهد بمنحه التسهيلات اللازمة لاستخدامها هي ومراكز بوتليليس، مسرقّين، جزر حبيبة، ومطار "لارتيف" في طافروي كجزء من قاعدة المرسى الكبير، وعن منشآت التجارب النووية في عين إكز في

تمنراست ورقان في أدرار، وقواعد إطلاق الصواريخ في بشار وحمّاقير في العبادلة، وموقع التجارب الكيماوية في وادي الناموس، ومطارات بشار ورقان وعنابة وبوفاريك؛ وفوق ذلك كله أن تتنازل لشركات البترول الفرنسية عن استغلال نفط الصحراء وتكريره ونقله وتسويقه؛ فكيف لا يكون ذلك هو الصاعقَ الذي يفجر الوحدة التي كانت حرب التحرير صاغتها من الثارات والدم؟

مثل غيره من العشرات الذين وصلتهم تسريبات من بنود الاتفاقية السرّية، كانت الخيبة تقِضم قلبَه. تَغصّص لنفسه أن يَميل مضطراً إلى قائد الأركان العامة؛ لأنه نازع الحكومةَ المؤقتة شرعيتَها ورفض اتفاقيات إيفيان، التي أمضت عليها، حتى ولو كان داخلاً من وراء الحدود الغربية أو الشرقية، من وجْدة أو من غازديماؤ؟

الآن وصل مولاي بوزقزة وجنود فصيلته. إنهم في مدخل باب الواد الشرقي. إنهم يتلبّدون وراء أعمدة الأقواس على جانبي شارع مكبوس بصمت الانتظار. إنهم يأخذون موقعهم في مواجهة جنود، في الطرف الآخر، متأهبين، كما يبدو، للتقدم لتندلع المواجهة. إنه يتناهى الآن للأسماع دوي طلقات رصاص متقطعة لا تبين جهة مصدرها؛ على تلاشي صداها ها هي أصوات

تصاعدت متفرقة ثم ها هي تتجمع مثل غدران؛ إنها تتحول هتافات تقترب من كل الجهات مثل سيول غامرة؛ فالعيون، من هذا الطرف وذاك، تحدق، كما الرؤوس تشرئب، وهنا وهناك لا تستقر الأجسام على وضعية. وها هي الشرفات امتلأت نساء ورجالاً وشابات وشباناً وأطفالاً؛ إنهم يرددون، مع هذه الجموع البشرية التي ظهرت من غربيّ الشارع وشرقيّه، ومثلَهم بالأعلام الوطنية، بصوت واحد غامر يرددون "سبع سنين، بَرَكات[40]!" من فوق هؤلاء الجنود المذهولين من خلفهم ومن حولهم "سبع سنين، بركات!" بلا زغاريد، في غضب، غضب على الطرفين المسلحين.

40 يكفي، كفاية.

إنه يعلق سلاحه على كتفه. ومثلَه أنزل جنودُه درجة تأهُّبِهم. إنه يختضّ. ها هو يبكي لبكاء هؤلاء اللاتي، في حِياكِهن[41] نازعاتٍ غجاراتِهن[42]، غمرنَهم مثل أمواجِ مدٍّ بيضاء؛ إنهن يحملن صور حسيبة، بن مهيدي، زبانة، ديدوش، عيسات، علي لابوانْت، وعشرات لآخرين؛ إنهم أبناؤهن وأزواجهن وإخوانهن وأخواتهن. إنهم المعدَمون والمقتولون والمفقودون والشهيدات والشهداء. وها هن، مثلما يَفككن شجاراً بين أطفال، يدفعن كل طرف مسلح إلى الخلف ليرجع من حيث أتى. إنهن يردّدن في وجوه

هؤلاء، في وجوه أولئك ”أنتم خاوة، احنا الشرف ذيالْكم، وهذي الجزائر أمنا جميغ!“ وها هو فيض هتافات الشباب والشابات يغمر كل صوت آخر ”سبع سنين دم: سبع سنين، بركات! سبع سنين تضحيات: سبع سنين، بَرَكات!“

41 مفردها حايك.

42 مفردها عجار.

إنه الآن يتقدم فصيلته، رجوعاً إلى الثكنة. إنه يتوقف. إنه يسمع شخير محركات. إنها ناقلات جند ومدرعات وعربات قاطرة للأسلحة الثقيلة تتقدم. ها هو أوعز بالاستعداد إذ اقتربت. إنه يرى قائد الأركان العامة نفسَه، واقفاً في سيارة جيب، يتقدم الرتل وخلْفه فيلق كامل في مارشة عسكرية استعراضية قوية التسليح باهرة التنظيم. وها هم العشرات يهرعون نحو الرصيفين، بل المئات. إنهم الآن آلاف. إنهم يهتفون ”تحيا الجزائر! الله يرحم الشهداء!“ تحت سماء من أعلام النجمة والهلال وسط بحر من الزغاريد، تتفجر من الشرفات أيضاً والنوافذ والأبواب، ينبع منها من لحظة لأخرى صوت المغني عبر مكبرات الصوت هذه المعلقة في الأشجار وأعمدة الكهرباء ”الحمد لله ما بقاش استعمار في بلادنا“.

”هذا برّك ولّا جيت براني يا ظريف الغربة بالله كلمني“

٢

بعد الذكرى الثانية للاستقلال، غادر النقيب مولاي الحضري، المكنى بوزقزة، كل حياة لها علاقة بشئون الدولة. لاحقاً، كان سيسجل أنه لن يبرأ من جرح إعدام العقيد شعباني "ذروة اللامسئولية! خالص العبثية أيضاً!" فشرف جندي مثله كان لن يسمح له بأن يزكي خزقاً فادحاً كالذي وقع في حق ذاك العقيد. ولا بد أن كولونيل الزبربر، النجل، من بعده يكون تألم يوم عرف الحقيقة.

أنا الحفيدة، صار لي أن أبلغ هذا العمر كلّه، أربعاً وثلاثين سنة الآن، لأعرف أن رابح زواوي، الذي أصبح ضابطاً في الجيش الوطني، كان ضمن الفرقة الخاصة التي أمّنت نقل العقيد الأسير من سجنه إلى موقع إعدامه، قبل ثمانية وأربعين عاماً.

بعد شهر من ذلك، كان النقيب مولاي الحضري قال لرابح زواوي، على غداء في أحد المطاعم القريبة من ثكنة باب الواد.

"- أنت؟ وتبكي!

- قدري. وأنت تعرف أني لست ملعوناً".

فإن العقيد السجين كان، ما أن صرصر مرتاج باب زنزانته رقم ٦٢ من ذلك الفجر، حتى قام من سريره، لا بد بإحساس وخزة في القلب سرعان ما أذهبها بشهقة عميقة. واستقام، كما تقتضيه لياقة ضابط سامٍ. ثم خرج ثابتاً بين عسكريين، ناغمًا خطواتهما مع خطوته في إيقاع خشن أيقظ رواق الموت. عند باب مَخرج سجن سيدي الهواري، أركبه العسكريان بينهما، في الخلف، سيارةً سوداء موديل ٤٠٣، كانت في انتظارهما بعسكريين آخرين، من حولها طوق جنود مسلحين، ما لبثوا أن قفزوا داخل مركباتهم.

كانت صوامع وهران ترفع أذانها للصبح.

"– ما اسمك أنت؟

– حضرات، لا يمكن. نحن ملزمون بعدم التحدث إليكم.

– ومع ذلك أنت تتكلم.

– تقديراً لشخصكم.

– كنت في صفوف جيش التحرير؟

– سيدي.

– اسمك، مثلاً.

– رابح.

– عرفت جنوداً كثيرين في الولاية بهذا الاسم.

– نحن نحترمكم، حضرات.

– برهن.

– نعم، حضرات؟

– أريد أن أعرف كم هي الساعة.

– إن أراد زميلي.

– الرابعة وأربعون. هذا آخر كلام بيننا يا حضرات.

– شكراً".

في الأثناء، كان فصيل الإعدام تسلح باثنتي عشرة بندقية من نوع ماص ٥٦، أعدها قائد التنفيذ؛ نصف منها معبأ برصاصة واحدة من الذخيرة الحية والنصف الآخر برصاصة واحدة من الذخيرة البيضاء.

ها هو العقيد شعباني، بلباسه العسكري منزوع شارة الرتبة، في ساحةِ منتزهِ غابة كانَشتالْ الصنوبرية، يطوقه أربعة جنود. إنه ينظر إلى سماء انجلى عنها هذا الغلَس من شهر سبتمبر ١٩٦٤ هذا، لشروق يبدو له أفتنَ من أي صبح خريفي كان استيقظ خلاله أو مر عبره إذ سرى ليلاً إياباً من عملية عسكرية أو ذهاباً إليها أو تنقلاً في مهمة.

محوّماً على بساط كبريائه، ها هو يهش برأسه أن يمد يديه لهذا الجندي الذي يبغي أن يكبله "لا داعي. نحن رفعنا السلاح لنكسر القيد". إنه يتقدم، كما أوعِز إليه، بين جنديين. إنه الآن واقف وحده على بعد

خمسة عشر متراً من جنود الفصيل، الذين يديرون له ظهورهم. إنه ينطق للقائد، الذي جاء يعصب له عينيه.

"– أحب أن أرى آخر لحظة من هذه الدنيا الجميلة. ألا تسمع السماء تقول لي: "أهلا بك"!

– يمكنك أن تطلب العفو من السيد رئيس الجمهورية.

– لن أمنحه هذا الشرف.

– هل ترغب في شيء ما؟

– أبلغوا رفاقي أن يرعوا والدتي المريضة.

– فقط؟

– انقلوا جثتي إلى أوماش، مسقط رأسي".

يتراجع القائد نحو الفصيل – لا أحد يستطيع الآن أن يتحمل ثقل هنيهة الصمت هذه. إنه يستقيم. يستعد. يصمد أن لا يصيب صوته تصدع. إنه يوعز أخيراً "خلف، در!" فيما العقيد محمد شعباني يتبسم راحلاً إلى لحظة أن وضع ضاحكاً قبعته العسكرية على رأس والدته فأدت له تحية وبسمة؛ إنه لا يسمع الأمر الصادر "صوِّب. ارم!"

"ثلاقيث انا والركب وتفارقنا خرجوا عني ذا الظُلّام قتلوني"

٣

مهمومة بحيرتي، مثلَ والدي بلا شك، في ما جعل جدي يتجنب أن يُمجّد شيئاً من فعله هو، ها أنا أسمع صدى قوله يتلاشى في أعماقي "آخرون، ضحايا عدوان استمر قرناً واثنين وثلاثين عاماً، هم الأحق بذلك".

فأنا ما انفككت أنتظر، مذ وعيت وجودي التاريخي، أن يعاد لحرب التحرير مجدُها المسلوب. قلت ذلك لحكيم، قبل ليلة، إذ تَحيّر لي في فراش نومنا "ولكن ما هذه الكآبة؟"

وكما والدي، لَمّا دوّن أنه وجد تلك الأوراق المرقونة تشبه شكلَ فصلٍ من رواية أو من كتاب مذكرات فرأيتُها أنا هي أقرب من ذا وذاك إلى وثيقة غير مؤرخة أراد لها صاحبها أن تصل برغبة أن يُتخَذ منها شهادة على أمر ما، فقد حسبتُ أن جدي، إذ أرفق تلك الأوراق مطوية ممسوكة بآخر الكراسة، لم يكن خشي فحسب أن يضيع ما أؤتمن عليه ولكن ليهمس بها لي أيضاً، أنا ومَن معي، جلالةَ الصمت الذي انخلع على رجال ونساء آخرين خُلقوا لتتنفس الحرية من نبض قلوبهم، كما قلت أيضاً لحكيم نتهيّأ للنوم.

أحس، الآن، أنا أيضاً، ما قد يكون انتاب الوالد – كولونيل الزبربر إذ راح سرد تلك الأوراق يأخذه، مثلي، إلى ذينك العامين الأخيرين من الحرب، التي توسعت شراستُها إلى مدينة الجزائر، بالغة الصدى إلى الجدّ – مولاي بوزقزة هنالك في جبل الزبربر.

ففي بدلة سوداء، قميص أبيض، ربطة عنق زرقاء وبتسريحة فصل شتاء صباحية – نحن في الجزائر العاصمة في شهر ديسمبر ١٩٦٠ شارع ميشلي، خرج ستيفان حليق الوجه، متطيباً بعطر لاروش؛ زوجته هي التي كانت تنشّقته منه إذ قبّلته لدى باب الخروج، قائلة: "ولو استطعت كنت أهديتك أرض الجزائر". سمعت ذلك الخادمة فاتمة، التي كانت تمر أيضاً على بيت الطاهر وزوجته فرانسواز بعد الزوال ثلاث مرات في الأسبوع كلما كانا متواجدين فيه.

كان ستيفان يسير مثل بقية الأقدام السوداء، وقليل من الأهالي هنا وهناك، لما توقف إذ كان سعيد، المتوجه هو أيضاً إلى عمله، سيقاطعه على الرصيف نفسه في الاتجاه المعاكس. كان يعرفه. كانا يسكنان الحي ذاته: باب الواد – قبل أيام كان ستيفان، بناء على معلومات أحد مخبريه، قرر أن يضع حداً لنشاط سعيد؛ بصفته أحد "الشوافين".

سد ستيفان سبيل سعيد بصدره فألقى إليه صباح الخير. لم يرد. على زجاج الواجهة كان شعار "الجزائر فرنسية" مخطوطاً بالأحمر. أخرج ستيفان مسدسه فحسب وأطلق على سعيد في الجبين. ثم واصل طريقه في اتجاه محافظة الشرطة حيث يعمل. لم يتوقف أحد عند من ظهَر مُلقى على ظهره مفترشاً دمه. كان المارون في الرصيف منشغلين بشئونهم الصباحية.

لم يكن الطاهر وجد سوى جريدته نشرها على الوجه المضرّج. غير بعيد كان عسكري من فرقة الأمن الجمهوري "سي. ر. س" ألقى نظرة خلفية ثم انشغل بمراقبته المحيط، سبابته على زناد رشاشه.

في شارع هوش – نحن في ١٠ ديسمبر ١٩٦٠، كان المساء ينزل بارداً رطباً ثقيلاً على هذه الجثة المرتمية الأطراف على الرصيف، وأخرى بجنبها على الصدر والثالثة لهذه المرأة التي لم تصل يدها إلى طرف ملحفتها لتجذبه نحو صدرها، وتلك لا تزال قُفتها بيدها عالقة كما غجازها الأبيض على أنفها؛ لا بد كانت راجعة بعشاء لأطفالها، وهذا الشيخ المسند ظهره إلى الجدار مائل الرأس شِمالاً كما من تعب، وهذه الصبية الأخرى التي كانت ستمد يدها لطفل بجانبها يكون أخاها أو جارها، وفي بداية الشارع، هناك، في نهايته، جثث أخرى لم تقمْ من تَعثُرها، كلها بدت تنصت لدمها؛ كانوا

قبل ثلاث ساعات ملأوا الشارع هاتفين "تحيا الجبهة!" متوعدين مسلحين من الأقدام السوداء التجأوا إلى عمارات الشارع؛ قبل ساعة كانوا أزدوا أربعة مدنيين من الأهالي. كان الأهالي يلهجون "اخرجوا يا جبناء! انزلوا!"

كان عساكر فرقة "سي. ر. س" ظهروا من فم الشارع في بزاتهم الغامقة وخوذِهم الزرقاء من نوع "جان دارك" مدججين. لم يطلقوا في الهواء ولا نحو الأرجل. صوبوا إلى الرؤوس والصدور والبطن. الْتطخ بالجدران والواجهات الدمُ المتفجر. في لحظة، تَحوّل رصيفًا الشارع مذبحةً سوداء. كانت الصراخات تَخافتث كما لأمواج تخبو ليستتب السكون. بعد دقائق من صمت الرصاص، صار للمطلِّين من النوافذ والبالكونات، وكان الطاهر من بينهم جنب فرانسواز زوجته، أن يشاهدوا العساكر لا يرفعون رؤوسهم. كانوا في نهاية الشارع يتعقبون آخر الناجين.

في الغد، في ١١ ديسمبر، أصبحت العاصمة كلها على زلزلة المظاهرات. كانت المواجهات في كل الأحياء الشعبية خاصة أشد عنفاً. يومها، كانت كفة ميزان القوى رجّحها الدم لصالح "الجبهة" نهائياً.

تلك الدقائق، لظلمتها، باتت من أشد الأوقات جلباً لكآبة كانت ستخيم على أعياد رأس السنة. فرانسواز،

الرومي ولا أوقدت أنوار شُجيرة التنُوب
ـ الشمعدان.

صباح ١٦ مارس المصادف يوم خميس – ز
ام ١٩٦١، كان الطاهر، الذي نزل قبل أسبوع
ـ" رفقة فرانسواز إلى بيتهما الأصلي في العا
ر مؤتمر طبي، فتح كعادته صندوق بريده
العمارة. سحب فاتورة الكهرباء وجريدته و
مطوية؛ توقّعها أن تكون من تلك التي توز
يات الخيرية أو الرياضية أو الوكالات الإشها
ظمات المهنية والحرَفية.

وف OAS الثلاثة هي التي كانت رجّت ذ
. وكما وخزات إبرة أحسها في قلبه إذ قرأ
"المنظمة المسلحة السرية". استعاد ومضة

في الشارع إلى مكان انعقاد المؤتمر الطبي، كان الطاهر يستطيع أن يرى تلك الحروف الثلاثة مخطوطة بالأبيض على أعلام سوداء معلقة بأشجار الرصيفين، وعلى الجدران؛ حتى جدرانِ كنيسة ومُصلًّى وبَيعة، مضروبة بالأسود وإلى أسفلها أو بجانبها أو فوقها، كتوقيع، شعارٌ ينبئ عن كثافة الخوف المتربّص "الجزائر فرنسية وستبقى فرنسية".

أمام كشك، كان من بين الجرائد الصباحية صحيفةُ "الصدى" تحمل على صدرها الحروف الثلاثة بالأحمر. قرأ الطاهر تحتها "منظمة سياسية عسكرية سرية ينشئها في مدريد في ١١ فيفري ١٩٦١ الجنرال صالان وبيير لاڤايارد وجون – جاك سوزيني، الذين كانوا في نهاية ١٩٦٠ لجأوا إلى إسبانيا فارين من محاكمة أسبوع المتاريس".

كان للطاهر أن يعاين أن شعار "عين المنظمة المسلحة السرية ساهرة"، المطلي به أبعدُ جدار في أقصى شارع، أضحى ليس فحسب تحذيراً من كل محاولة للالتحاق بصف الداعين إلى المفاوضات من أجل الاستقلال، ولكن تأكيداً أيضاً على أن المنظمة ستمنع ذلك بقوة العنف.

مثل نقر نواقيس كنيسة، لرعب آت، ترددت في ذهني حروف OAS إذ حرّكتُها بلساني فشعرت أنها

جرحت ذاكرتي، كما وخز بالْمِخْيط.

”هذا وطنك ولّا جيت براني ياراس المحنة الله خبرني“

٤

في نهاية المؤتمر، في اليوم الثالث، قال الطاهر لفرانسواز تقابله على مائدة العشاء متفكرة.

"– الوضع أصبح أكثر خطورة مما كنا نتوقع.

– ما ذا يريد هؤلاء الفاشيون الجدد. الشعب الفرنسي فصل بالاستفتاء لصالح تقرير المصير. وسيصوت خمسة ملايين من مجموع العشرة من الأهالي لصالح الاستقلال، مقابل خمسمائة ألف من مجموع المليون من المستوطنين الذين يريدون بقاء الجزائر فرنسية كما تقتضيه مصالحهم وأنانيتهم العمياء؟

– أشم شيئاً غريباً في الهواء له رائحة الحرب الأهلية.

– كان الأمر منتظراً. هؤلاء الغلاة سيستعملون كل الوسائل لإشعالها حتى يرغموا الجنرال على التراجع عن بيع الجزائر إلى الفلاقة، كما يقولون.

– وسيصبح كل من لا يمشي في خطهم معادياً لهم.

– بدءاً بالموظفين ورجال الأمن والعسكريين والجنرال نفسه.

– أما الفلاقة والأهالي الموالون لهم والفرنسيون هنا وفي الميتروپول المتعاطفون مع قضية الاستقلال فإنهم في عين الهدف.

– أنا خائفة عليك.

– وأنا عليكِ أكثر.

– يا لَهذا المنطق الذي حكَم هذه الحرب! كل ما تلا حوادث ليلة "عيد الأموات" كان عبثاً. كل شيء كان يجب أن يتوقف في الغداة. إرادة شعب، قام لحريته، لا يمكن أن تقهرها أيُّ قوة. كان على هؤلاء الحكام والجنرالات أن يدركوا ذلك من تجربة الشعب الفرنسي مع الاحتلال النازي.

– لأن الاستعماريين وحلفاءهم من الأقدام السوداء والكولون وشراذم غلاة اليمين الفاشيين أرادوا شيئاً آخر.

– أشعر برعب. ما ذا سيكون مصير أمثالنا؟

– لا أدري. ولكن يمكن تصور الأدهى.

– الأدهى؟

– الاضطرار إلى الرحيل.

– يا إلهي!

– وهناك سيكون الجميع منبوذين.

– لأنهم فرّطوا في أرض كانت لهم، كما سيتكلمون عنهم.

– لأنهم هربوا، هكذا ستكتب عنهم الجرائد هناك وراء البحر.

– التاهر. أنت لن تعود إلى "أومال". ثمة، أنت مشتبه بك. لا أحب أن أفقدك. ثمة، سيقتلك الغلاة، ببرودة.

– فرانسواز، غاليتي. لا يمكن أن أتراجع الآن. الآخرون لا يزالون بحاجة إلي في الجبل.

– مجرد انسحاب من منطقة عارية مثل "أومال" إلى هنا. العاصمة، برغم مخاطرها يمكن أن توفر حداً أدنى من الأمان.

– أنت التي يجب أن تؤجلي عودتك إلى هناك. أما أنا فسأكون مع الْخاوَة في الجبل. أصعد من هنا. رتبت الأمر مع خيط الاتصال.

– التاهر!

– لا حل غير هذا. سيتصل بك من ينقلك عند عائلة محترمة وسط القصبة.

– كيف أصبر؟

– انتظريني.

– حبيبي".

كان الطاهر، إذ عاد في بداية الصيف الأخير للحرب حدّثته فرانسواز، بقلق، عن رعب كومندوهات المنظمة المسلحة السرية وعملياتها المرهبة ضد السكان من

فجيرات استهدفت مقاهيَ ونواديَ ومقرات صحف سارح ومنشآت عامة. وقالت له: "ولكني لم أكن ظر أن تبلغ الجريمة ذروتها فتحرَق مكتبة الجامعة كزية".

فالصور التي كانت الجرائد تناقلتها في مساء يوم ابع جوان ١٩٦٢ نفسه وفي الغداة، كانت تُظهر أنه للنار الوقت الكافي لأن تلتهم ألسنتُها الراقصة من افذ والأبواب آخرَ الأوراق في طوابق المكتبة. كانت خاخين السوداء المتصاعدة تبدو هي صوتَ النواح امت الشاهد على الفجيعة.

كان الطاهر بحث، بلهفة، في الصحف الصادرة بعد وعين من الحريق، عن مقالة واحدة كانت ستلمح ما كان تردد على لسانه في النهاية: "فعلٌ لم يقم به زيون أنفسهم في البلدان التي احتلوها".

شهراً بعد الحريق، وفي غمرات الفرح العارمة بإعلان ستقلال، كان الطاهر التقى شارل. فقد عرفه مذ كان باً في كلية الطب. كان شارل هو المشرف على بارة؛ وبصفته هذه كثيراً ما حابى الطاهر بأنْ أخبره صول هذا الكتاب الجديد وذاك ومدد له فترة الإعارة. ذلك منه لرد جميل والده المحامي الذي دافع عنه

حرب فيتنام، من غير أن يتقاضى منه حق الأعباء. كان والد الطاهر مقرباً من الأوساط اليسارية. وكان شارل، العضو في الحزب الشيوعي، أصبح من نقابيي الكونفديرالية العامة للشغل، بعد طرده من الجيش.

لما جاء الطاهر يستعيد فرانسواز من تلك العائلة في القصبة، فتقدمت منه في الحوش في لباس الخرجة الدزيري[43] التقليدي، كاد لا يتعرف عليها لولا أنها نزعت العجار وفتحت الحايك على صدرها ضاحكة فضحكت صاحبة الدار خلفها في ثياب سيدة شابة، بشَدة العصابة الوردية على الرأس المفروق الشعر وخيط الروح الفضّي على الجبين والقميص بالمجبود والفوطة تحتها سروال التكّة والخلخال والبليغة، وقالت "اللبسة جات عليها هي خير مني!" فأحنى لها "فعلاً. مدهشة! يكثّر خيركم".

43 نسبة إلى الجزائر العاصمة.

كانت فرانسواز هي التي دعت شارل إلى عشاء؛ فإنه كان صديقاً ورفيقاً لوالدها العضو في الحزب الشيوعي والمحرر في جريدة "ألجِي ريپوبليكان"، قبل أن ينفى إلى الميتروپول في ١٩٥٥ عشية حظْر السلطات الاستعمارية الجريدة.

كان شارل، هو الآخر، يعلم بعلاقة الطاهر مع الجبهة.

إذ فتح له الباب اكتفى بأن سلم عليه.

"– سعيد جداً بأن ألتقيك مرة أخرى، هنا وفي بيتك.

– مرحباً. غبطة أن أراك".

"ولّا انتَيا سيّد راكْ مولى حكمه جَلْبكْ شي تَقيِيذ

بْقى المالْ وراكْ"

٥

على قهوة بعد العشاء، كان شارل نظر إلى الطاهر عاصراً شفتيه، على ملامحه ندوب حسرة. ثم إلى فرانسواز، شاهقاً كطفل سيبكي.

”– نكبة حقيقية ألحقت بتراث ثقافي وعلمي. جريمة ضد الإنسانية. لو سرقوا، لو نهبوا، لو حوّلوا، كما فعل النازيون قبلهم بمتاحف البلدان التي احتلوها وبمكتباتها، لهان الأمر؛ ولكن أن يحرقوا منجزات العقل، أن يتلفوا مأثورات بتلك القيمة، أن يحرقوا أربعمائة ألف كتاب ووثيقة ومخطوطة، فتلك أفظع جريمة ارتكبت منذ ١٨٣٠ إلى هذا اليوم ١٩٦٢.

– قد يكون مجرد حادث أو فعلاً منعزلاً.

– فرانسواز، العزيزة! كنت أعرف، في الجامعة وفي المكتبة نفسها، موالين للمنظمة المسلحة السرية من الأقدام السوداء، هم الذين تواطأوا في الفعل الشنيع.

– وأنا نازل من الجبل، راجعاً إلى هنا، شاهدت الخراب الذي خلفته سياسة الأرض المحروقة التي انتهجوها.

– تعرف يا التاهر، قبل أسبوع من الحريق قال لي مسئول مصلحة الكتاب نفسه: ”أنت، السيد الشيوعي،

رفيق العرب، أعرف أنه لا يرضيك أن نترك هذا الكنز لأصدقائك "البونيول"، ما دام يبدو أننا لن نكون قادرين على منعهم من وراثته". صُدمت.

– ابن الكولون... الحقود.

– المحزن، يا عزيزتي فرانسواز، أن غالبية طلبة الجامعة صاروا إلى تعاطف ظاهر مع OAS. يوم الحريق، كانوا يتفرجون بتشفٍ ظاهر.

– قبل تسعة وعشرين عاماً، كان هتلر أوعز بتنفيذ "عملية سحق العقل غير الألماني". فتم ذلك، للأسف، بإشراف الجمعية الألمانية للطلبة الوطنيين الاشتراكيين. هم الذين، بهستيريا، إلى جانب أساتذة أيضاً، أحرقوا في الساحات آلاف الكتب، عشرات الآلاف.

– كنت في صحن الجامعة عاجزاً مذهولاً يا التاهر. سمعت أحدهم قال لصديقته: "مجداً للنار! هكذا، لن يعود يستهوي أولئك "البونيولْ" أيّ طمع في الدراسة حين نغادر. سيعودون إلى قطعان ماعزهم".

– خسّة!

– كنت أعرف زميلاً لي من الموظفين في المكتبة سخط علي لما استجبت مرة لطالب من الأهالي جاء يستعير مرجعاً في الكيمياء: "شارل، عار عليك. قد يكون يبحث عن تركيبة لصنع قنبلة أقوى. ثم إنه

يزاحم أحد أبنائنا. هؤلاء العرب لم يخلَقوا لما خُلقنا من أجله. اصرِفه إلى أمه".

– كنت أحس ذلك، منذ أحداث سطيف ١٩٤٥ الدامية، كلما جئتُ لإعارة.

– كانوا لا يصدقون أن واحداً مثلك، من العرب أو من البِيزبِيز، يصل يوماً أن يكون طبيباً. ذات مرة وأنت تغادر حاملاً كتاباً في التشريح، قال لي أحدهم: "أستاذهم الجامعي الوحيد، يقصد الأستاذ محمد بن شنب، ليس سوى خرافة صنعناها لهم. عقلهم لا يسمح بأن يبلغوا مرحلة النضج البشري ليدخلوا حظيرة المعرفة الإنسانية". كان واحداً من أبناء اللفيف الأجنبي العنصريين.

– لم أكن أنوي إثارة مواجعك.

– أبداً، أبداً!

– شارل، هيأت لك غرفة الضيف.

– لا، يا عزيزتي، شكراً. سأخرج أتمشى. الشوارع في هذه اللحظة تعيش أعتى مباهجها. قد أقضي نهاية ليلتي في القصبة. أريد أن أتفقد معالم طفولتي فيها. ثمة لي أصدقاء أعزاء أيضاً.

– شارل، حدثني الوالد باعتزاز عن مبادئك الإنسانية!

– أوووه، يا التاهر. إن كان للمبادئ الإنسانية، في هذا البلد، مُعلّمون فوالدك الأستاذ علي واحد منهم.

– وأنت أيضاً إنسان استثنائي، يا شارل.

– عزيزتي فرانسواز! ولكن أين تعلمت تحضير الكسكسي بهذه الطريقة؟

– في القصبة، يا صديقي. وهل تعلم؟

– ماذا؟

– وأستطيع الآن أن أنطق الطاهر، بدل التاهر.

– أرأيت يا صديقي ما ذا فعلوا بها؟

– أحبوني وأحببتهم.

– شكراً على الضيافة. أترككم.

– سنلتقي".

خليطُ شعورٍ مركّب يغزو مزاجي الآن من حسرتي على إحراق تلك الذخائر، من بغضي لأولئك الأقدام السوداء العنصريين، من إنسانية شارل ومن حب فرانسواز. إني أعاود للمرة الثالثة قراءة "سعيت، في كل الأحوال، إلى أن يطّلع المجاهد النقيب سي بوزقزة على هذا، تذكاراً لتلك الأيام العصيبة، التي خلالها لم أكن أملك غير معرفتي الطبية".

"هذا برك ولّا جيت براني يا ظريف الغربة بالله كلمني"

الفصل الخامس

١

الآن، على سطح مكتبه في الثكنة، يعاود كولونيل الزبربر النظر إلى صورة والده مولاي، في لباس الجندية الذي به نزل من الجبل. قرّبها في إطارها "لعل الملتحقين بجيش التحرير، يوم وقْف إطلاق النار في التاسع عشر مارس ١٩٦٢ وبخلايا المدن في "ربع الساعة الأخير" والعائدين من وراء الحدود، ممن كانوا انسحبوا لدواعٍ واهية، أذهلوك بتهافُتهم على ربع الحرب، مثل ذباب حول براز ساخن – حاشا وجهَك الكريم!"

أولئك الملتحِقون، كما يذكر من حديث الأم رقية والعمة ملوكة ومن الأب مولاي، أحياناً، ومما كان يتجاذبه مع رفاقه في مدرسة أشبال الثورة، كانوا نصّبوا أنفسهم مجاهدين وفدائيين، مظهرين مزايادات وطنية ذهبت بهم حدّ تقتيل الأبرياء من بني جلدتهم ومن الأقدام السوداء المسالمين بتهم ملفقة.

ألأنه تعذّر على كولونيل الزبربر، برغم ما سرّبه له الجنرال رزاز، أن يعرف الجهة التي أوعزت بتجنيد

أولئك في ١٩ مارس ١٩٦٢ ومن أطّرهم وأصدر إليهم الأوامر، فعزا ذلك إلى حال الفوضى، التي كانت أشواكها نتأت عند اقتناع الجنرال بأنه خسر الحرب نهائياً، فراحت قيادات في هيئة أركان جيش التحرير وفي الحكومة المؤقتة تشحذ أسلحتها من أجل السيطرة على الجزائر العاصمة لاحتلال مواقع السلطة في دولة الاستقلال؟

واقفاً في استقامة عسكري، قبل ست سنين، كما يذكر الآن في الجنينة، استمع لوالده مولاي في سرير مرضه في قسم الجراحة بمستشفى عين النعجة، بجنبه مريض ثان خمسيني بدا غافياً "القدر، الصدفة، أو هو برنامج الوجود الحيوي، أني جئت إلى هذه الدنيا في هذا الزمان"، متبسماً "وجنيت عليك، كما يقول الشاعر"، محولاً عنه نظره إلى فراغ "كان يمكن لك أن تأتي في ظرف آخر غير هذا الذي يؤلمنا بهذه الدرجة". فمسّد براحته على ساعد برجّة في صوته "ولو! الفخر كله لي". فرفع إليه نظرة انكسار "من كان يظن، من؟" ثم ساهماً عنه "ورحتَ تقتفي أثري في الزبَزبر! وقتَها، نحن، كنا في مواجهة مسلحة مع عدو له اسم!" راجعاً إليه.

"– كيف حال ياسين؟

– صار ضابطاً.

– لم يظهر.

– سافر إلى الخارج في مهمة تكوين قصيرة المدى. يبلغك سلامه.

– يا لَهذه العائلة!

– قدرنا.

– والطاوس؟

– في رقان. وهي أيضاً تسلم عليك.

– ولما ذا ليس في أدرار؟

– لا يوجد في مستشفاها قسم لأمراض الطفولة.

– كم تمنيت أن أكون حاضراً في عرسها لأشيّعها! أعجبتها الهدية، جداً. كنت أحس ذلك من صوتها على الخط يوم هاتفتني. لم أجد أفضل من حزام المرحومة.

– قطعة نادرة من الذهب الخالص. يوم التبريزة كانت تلبسه".

ليلة عرسه هو، كما يذكر، كانت أمه رقية تتمنطق به في بهاء قاهر.

رشاقة جدتي خالبة! لا بد به رقصت.

ذلك، فيما كان والده مولاي أمال عنه نظره إلى شريكه في الغرفة "سي نهاري، العافية". ففتح هذا عينيه، ظهرُه إلى الوسادة.

"– نهارك طيب.

– أهلا حضرات. حدثني عنك سي مولاي.

– لا باس؟

– مجرد جرح".

لدخول الممرضة، التي حيّت ووضعت صينية بها أدوية وحقن وضمادات على الطاولة الفارقة بين السريرين، اعتذر. وخطا نحو النافذة، من الطابق الثالث، فأطل على الحقول الخضراء الذاهبة في سهول المتِيجة. نطق، لا يدري أكان صوته وصل من بقوا خلفه "المجد كله لأرواح الرجال صانعي الحرية". ولكنه سمع، في همس.

"– السيد مولاي، أتمنى أن تكون قضيت ليلة هادئة.

– بعض الاضطراب، فقط.

– لا بد أنك تناولت جرعة الصباح.

– لم أنسها.

– السيد؟

– ابني.

– الضابط جلال؟

– بالذات.

– أسمع عنه.

– خير إن شاء الله؟

– رجل أزقاز[44].

44 شجاع، ذو تحمل.

– عجيب!

– ماذا؟

– لك وجهها وصوتها.

– من؟

– والدتك، زهية.

– آه! الرحمة عليها.

– كانت امرأة استثنائية. سقطت في خضم المعركة.

– لا أحتفظ حتى بصورة منها.

– وجهك في المرآة هو وجهها.

– هل تسمح، سيدي؟ ستكون الحقنة الأخيرة".

إذ استدار كولونيل الزبربر، فألفى المريض الآخر رمى نظرة متألمة نحو طرف سريره وقد أزاحت عنه الممرضة اللحاف، ارتعشت كتفاه. كانت الساق اليمنى مبتورة عند الركبة الملفوفة في ضمادة.

أشعر برعدة ألم.

رجع خطوته نحو والده وأومأ إليه بعينيه نحو المريض بسؤال. همس له "من عناصر الپاتزيوث". لم يعلق. فذهنه كان غام: ها هو يقف على سي حمود، كما نائم، مفترشاً دمه لا يزال ممسكاً مسدسه الرشاش عند ركبته، في نهاية هذا الصباح الندية، غير بعيد عن منزله وسط حقل قمح كانت سنابله تستوي لأشعة شمس مايو. الپاتريوت الآخر يشير بسلاح كلاشنيكوف في

شماله "لاحقَهم حتى هذه النقطة". وبيمناه "هناك قرب شجرة الزيتون واحد من الجماعة ساقط. أما الجريح فجرجروه معهم". وأجهش، كما طفل "فقدنا في سي الحاج حمود مجاهداً ومقاوماً عنيداً". فطمأنه "دمه لن يذهب هباء".

وفي ساحة القرية، التي طوقها جنود فصيلته، خاطب كولونيل الزبربر المجتمعين من السكان يتقدمهم رجال الدفاع الذاتي منهم وقد سُجي القتيل بالعلَم "سي حمود عاش للوطن. مات من أجله. احفظوا شرفه".

قبل الغروب، كان تأكد من إحكام الكمين في ممر كانت الجماعة المسلحة ستعبر منه نحو الجبل. كانت مقدمة السيارة الفلاحية المغطاة في هدف منظار بندقيته. رصاصة مباشرةٍ في رأس السائق. بعدها، لم يتمكن من القفز أحد من الثمانية: الثلاثة في الأمام والخمسة في الخلف، ولا صدرت منهم طلقة. كانت نيران الفصيلة المتقاطعة هزّأت السيارة من جهاتها كلها.

في الأثناء التي استغرقتها الممرضة لنزع الضمادة واستبدالها، كان مولاي نطق بما كانت عاهة سي نهاري تصرخ به "ضحية أخرى لأخطاء ساستنا المتكررة"، هازاً رأسه، أسفاً "جنون، ما بعده جنون، هذا الاقتتال!" فأخذ كولونيل الزبربر يده بين راحتيه وضغط قليلاً

"سنستعيد يوماً رشدنا"، فابتسم له، حاجباً ما كان سيظهر في عينيه "وطن كهذا لا يليق به كل هذا العبث". فتحنّن له "فليغفر لنا الشهداء ولْتسامحونا أنتم!" واستأذن يريد الخروج عقب الممرضة فاستبقاه.

ها مولاي مغرورَق العينين، يرسل صوته نحو الجدار الأبيض المقابل، فيما يتنهد سي نْهاري، وكولونيل الزبربر الجالس على الكرسي إلى الشِمال يصغي "كنت مثل جنود الفصيلة أنتقل زاحفاً هنا مطأطئاً هناك في وضعية ردّ ناريّ كثيف أجبر مجموعة عسكر على التراجع، مخلفين خمسة قتلى على الأقل وجريحاً نازف الرأس ممزق البطن مرمي السلاح فاغر الفم على نجدة لم تأت. يومها، كانت الفصيلة فقدت قائد الفوج الحسين منصر".

يوزع نظرَه بين النجل وبين سي نهاري "لم تهدأ لي نفس إلى أن هاتفني نذير من مرسيليا يخبرني أن رصاصتين في الرأس كانتا كافيتين لإرسال ڤيزا إلى الجحيم" – كان ذلك قبل عام من انقلاب العقيد بومدين على الرئيس بن بلة "نذير، كان من آخر الطلبة الملتحقين بالفصيلة. كان ذكياً ووسيماً أيضاً".

ونحو السقف "خلال استراحة مَسيرة، على بعد أشهر مِن وقْف إطلاق النار، كنت حدثت الجندي نذير بأننا الآن نكون أوصلنا حكومة الجنرال ودولة فرنسا

إلى حال انسداد ستجبرهما على الاعتراف بحقنا. وأسررت إليه أني قد أحتاجه لأمر مهم جداً".

ثم يوغِل بصوته أن الجندي نذير، لأنه تلقى الأمر منه، تقدم نحو هذا العسكري الفرنسي الذي لا تسعفه يداه على إرجاع أمعائه إلى بطنه. لم يتردد. لم يغمض عينيه. أطلق عيارَ الخلاص. في الرأس.

نذير الآن يقف أمامه.

"– حضرات، لم أفعل ذلك بحقد.

– اطمئن. الجريح كان ميئوساً من حاله.

– حضرات، كان شاباً!

– لا بد أنه من المجنّدين إجبارياً، ككثير من الشبان الفرنسيين الرافضين للحرب.

– ملامحه كانت تدل على ذلك.

– ليس كمرتزقة اللفيف الأجنبي والمظليين المنحطّين.

– حضرات، كنت قدّرت، وأنا أرفع السلاح المرمي، أن الأمر كان سيختلف لو تعلق بأحد الحركى.

– فعلاً! كان سيُترك ليحس أنياب الذئاب تمزقه قبل أن يسكن فيه آخر نبض".

يتنهد مولاي. يسحب نظره إلى فراغ "إن كان ثمة شيء فعلته، قبل انسحابي من الحياة العسكرية، فهو تصفية ذلك الخائن، في فرنسا نفسها، بإسناد من الرائد

نعيم رزازا“ يوزع نظره بينهما. يتبسم ”تمنيت لو أني كنت أنا من قضى عليه بمسدس جُويلْ“.

ذلك كان آخر ما سمعه كولونيل الزبربر لدى زيارته الأخيرة لوالده مولاي. فقبل أيام من ذلك، كان تسلم منه تلك الكراسة.

”يهْديكْ الله يا ذا الراس عيد علينا لَانْ تُوقفْ في
النومْ تْشاهْدكْ عيني“

٢

يكتب كولونيل الزبربر كأن صوت المؤبّن الجنرال نعيم رزاز "ها نحن اليوم نفقد عزيزاً آخر. نودع واحداً ممن بنوا مجداً لهذا الوطن بتضحيتهم وأخلاقهم وصمتهم أيضاً، لَمّا وجب الصمت"، كان موجهاً إليه هو وحده. وأنه تلاشى في سمعه وهو يُرجع صورة والده إلى موضعها ضمن أحد الألبومات داخل المحفظة.

فقبل ثلاثة أيام من ذلك، كان واقفاً تحت رذاذ من ديسمبر في مقبرة العائلة هنالك في قرية الحاكمية استجابة لوصية والده الأخيرة "جلال، أحب أن تدفنني هناك في سكينة بين الآباء. سيسعد ذلك عمتك. عاشت تحبك. وأعلم أنها ساررتك. أنت تعرف، بعد المرحومة لم يكن بقي لي سواها. إن لم يؤخرني أجلي إلى أن أراها مرة أخيرة فبلّغها رضاي". كان ذلك قبل ستة أعوام.

عبر طريق عودته، شدت بحلقه للحظات لوعةٌ "أيها الأب النبيل! لم أقترب منك أكثر، ولا قاسمتك من حياتك أشطاراً"، كتلك التي، مثلما حدّث الجنرالَ نعيم رزاز خلال مراسم العزاء، يتواطأ عليها، كصديقين، أبٌ وابن حول أسرار يقيّدان الكلام عنها برمزيّة لا يفكها غيرهما "وأنا وحيدك!"

تغلق حلقي حسرة.

قُربُ كولونيل الزبربر من أمه، كما من العمة، كان هو الآخر أصبح عابراً مذ وضع رأسه على مخدة سريره في داخلية مدرسة أشبال الثورة عامَ أنْ كان والده قال له، لما نزلا من القطار في مدينة القُليعة واتجه به نحو ضاحيتها الجنوبية الشرقية حيث أوقفه أمام بناية تشبه كل البنايات العسكرية التي رحل عنها المستعمرون قبل حوالي عام "من هنا تبدأ طريقك نحو مجد ينتظره وطنك". كان ذلك تحت غيث خريف عام ١٩٦٣، على آثار صيفِ نزاعٍ مسلّح بين الإخوة، كُتب له أن ينتقش في ذاكرته، هو الطفل، مثله مثلَ أصداء حرب الرمال على الحدود الغربية، في العام نفسه.

كأبناء الشهداء وجنود جيش التحرير، ممن أسعفهم الحظ على مزاولة تعليمهم الابتدائي في المدرسة الفرنسية، كان جلال دخل السنة الأولى الإعدادية – فسي المهاجي، مذ صعد إلى الجبل ابنه مولاي فاضطر إلى النزوح إلى مدينة سور الغزلان، التي كانت له فيها دار ورثها عن أمه، حرص على أن يتعلم حفيده بين المدرسة القرآنية وبين المدرسة الفرنسية التي إذ اتصل بمديرها، وكان من المسلمين الجزائريين المتخرجين من دار المعلمين في بوزَرّيعة بالعاصمة، طلب إليه عقد

ميلاد الطفل وبطاقة التلقيح لتسجيله فقدم له الوثيقتين فأغلق باب مكتبه.

"– السيد المهاجي، هل تظن أنك تخفي نفسك بقدر ما لا تُكتشف أنك والد فلاقي وأن الطفل هو ابن فلاقي؟

– أنت من جلدتنا وديننا. ووالدك المرحوم كان مِن خيرة مَن عرفتهم سور الغزلان.

– لا بد أنك دفعت مبلغاً معتبراً لهذا المزور. عمل متقن حتى ليبدو كل شيء أصلياً. وأما هذه الصورة فهي للطفل فعلاً.

– أصحاب الخير، أمثالك.

– اسمه الحقيقي؟

– جلال.

– جلال ولد مولاي ولد المهاجي الحضري.

– المرحوم والدك كان يعرف جميع أهل المنطقة.

– أحضر الطفل يوم الاثنين.

– أنت ولد خيمة كبيرة.

– الله ينصرهم".

لضحكة العمة ملوكة، ناطقة جملة المدير الأخيرة، كان الألقُ الذي لا يشع إلا من نفس زكية. قالت لابن أخيها "سي المهاجي جدك، كانت له سطوة الأولياء".

كان جلال، من بين مائتين من الأطفال ذوي العاشرة والرابعة عشرة من العمر من أبناء الشهداء وجنود جيش التحرير الذين التحقوا لأول مرة بمدرسة أشبال الثورة، مثل صديقه عثمان بولحية ورفيقه في الغرفة، الذي بعد البكالوريا فارقه عنه التحاقُه بمدرسة البوليتكنيك العسكرية فتذكره كلما أثارته نوبة حنين إلى القُليعة، كما عرفها في عنفوان الشباب، مثلما تركها وراءه بعد سبع سنين فيها، لا تزال واقعة بين سهلين محروسة بغابة "مقطع خيرة"، خيرة الصعلوكة قاطعة الطريق كما يروى؛ ببناءاتها متناغمة الهندسة الأندلسية والعثمانية والأوروبية، بالمسجد العتيق وزاوية سيدي علي لَمبارك وكنيسة النصارى وبيعة اليهود والقلاع التركية ومحطة القطار، وبغطائها النباتي المتنوع، وفضاءاتها التجارية، ومهارة حرفييها خاصة في تشكيلات من الأثاث يصنعونها من القصب والخيزران مثل الْمزَهَر والشبيكة ومن خياطة ألبسة الفتلة والشراجة والْمشكْل، وبحقول فلاحتها الشاسعة ومزارعها وواديها مَزَفران؛ لم تفتأ منتصبةً صلةَ وصل بين البحر المتوسط وبين المتيجة، وهذه الحركة الدؤوب لأهلها، وبموسيقاها الأندلسية والشعبية وبمعزوفات زُرنتها، وبمن تحيا بأسمائهم في التصوف والمقاومة والشهادة – سمع عنهم جلال ذات يوم من

المدّاح، في مشهد حلقة السوق الأسبوعية "هذا كان من حكمة سيدي علي لَمْبارك في الزهد. وفي الأحد القادم أحكي لكم عن محي الدين الحاج الصغير على يمين سيدنا الأمير عبد القادر ومحمد بن علال على شماله قبل المعركة. وبعده يكون كلامي على البطل سويداني بوجمعة لما أطلق آخر رصاصة".

كأن صوته في أذني اللحظةَ يتموج!

ونوبة حنين أخرى معروكة أيضاً بتلك الرائحة المنبعثة من أدنى تفصيل بين حيطان المدرسة؛ من جدرانها الداخلية نفسها، من كراسي مطعمها وطاولاته، كما قاعاتها الدراسية ومناضدها ومقاعدها، من فضاء المكتبة الذي له صمت الأضرحة بنكهة كُتُبها كأنها البخور الحشوم، من المراقد من المخدة والملاحف والبطانيات والمطارح، من المحافظ الجلدية، من الكراريس ومداد القارورات الأسود والأزرق والأحمر أيضاً لتعبئة أقلام الريشة، من السبورة السوداء الثابتة والخضراء المتحركة نفسها، من الطبشور، من الإسفنجة الطبيعية، من المصطبة الخشبية، من البزة الرسمية، من القبعة إلى المعطف إلى القميص والكْرَفاتة إلى السروال والحذاء والجوارب، ومن انبعاثات مسام الأجسام في رواق الحمام، وأنواع العطر التي أضحت، منذ الانتقال إلى المرحلة الثانوية، تضوع من المناديل؛ ومن المطبخ

يوم تكون لائحة الطعام تتضمن السمك أو الكسكسي، ومن التربة في أوائل الخريف الماطرة، ومن أنفاس الغابة إذ تهزها رياح الربيع، ومن كل رفيق، كما البصمة، في ساعات التدريب في قاعة المحاضرات في قاعة العرض السينمائية في كل استعداد، ومن شحم الأسلحة، عند تنظيفها، ومن البارود خلال حصص الرماية في الحقل؛ إلا رائحة الأساتذة إلا المدرِّبين والضابط فإنه كان يفصلهم عن التلاميذ خطٌّ مُخكم السد لا يمكن خرقه.

ومن تلك الأوقات، أيضاً، التي، في نهاية المرحلة الثانوية، كانت باباً إلى حياة النزق بروائح أخرى مختلفة عن كل ما سبق أنْ صنّفته حاسة شم؛ بشرةُ المرأة بمزجٍ مزلزِل للكيان من عطرها وأنفاسها في علاقة مختلَسة في "بيت مواعيد" أو خلال "طلعة" قانونية في "الدار الكبيرة" بدفع مسبق في اليوم المخصص لأفراد الجيش ببزتهم الرسمية، وهذه الحموضة، حموضة الشعير والعنب بطعم الكحول في حانة تتنفس التبغ.

أبتسم. أضحك من نفسي أن تصيبني غيرة من جلال، والدي، ومن زمنه ذاك ومن جيله كله!

يكشف كولونيل الزبربر أن عثمان قال له في إحدى الليالي، بعد انطفاء أنوار المرقد، كأنما خجلاً أن تظهر

على وجهه وفي عينيه سيما غبطته إياه على حال يُسرِه في اللباس ومصروف الجيب، الذي كان يسمح له فعلاً بأن يشاهد في "سينما پالاص" عشية السبت فيلماً جديداً؛ فالمسبح كان موجوداً بالمدرسة، ويشتري حلويات أو كتباً لا توجد في المكتبة.

"– سعدَك أنت، جلال! من هذه الناحية أعتبرك من بين أفضل عشرة يذرسون معنا من أمثال عمر راوي. كان يمكنك متابعة تعليمك الإكمالي والثانوي في إحدى داخليات العاصمة.

– ربما كان لك مثلُ حظي لو أن والدك لم يستشهد.

– لا يمكن، لأنه كان خَمّاساً[45].

45 من يشتغل بخمس المحصول في الزراعة أو الرعي.

– أما عمر فإنه أحسننا حظاً جميعاً؛ لأن أمه وحيدة أبيها التاجر".

يذكر كولونيل الزبربر أن مدير مدرسته الابتدائية، الذي كان عين لاحقاً مفتشاً للتعليم الابتدائي في المنطقة، اقترح على والده، بحضور الجد سي المهاجي، أن يسعى لهما لإلحاقه بإحدى الداخليات في العاصمة.

"– لأن هذا الطفل يملك قدرات تؤهله لنجاح دراسي مؤكد.

– سأرى. أشكرك كثيراً.

– الشكر لهذا الرجل الفاضل، والدك، سي المهاجي.

– أنت، يا سيدي، صاحب الفضل. يوم جئتك لتسجيل جلال كنت متأكداً من أني قصدت ابن عائلة وطنية.

– ولكن من أين جئت باسم مدني بو نزار؟

– كان لأحد أجدادي لأمي.

– حرصت شخصياً على أن يعاد تسجيل ابنكم باسمه الحقيقي، كما تثبته وثائقه الرسمية. أتمنى له التوفيق".

يوءَمذاك، ادخر الأب مولاي ما كان سيقوله لابنه جلال إلى مناسبة نجاحه في البكالوريا ليلتحق بأكاديمية شرشال لمختف الأسلحة "أردت لك أن تكون من خيرة أبناء الذين حرروا الجزائر"، فأحس نفسه حوّم مثل باز يستعرض رشاقته؛ كذلك كان قال لباية من بين ما كان حدّثها به عن نفسه، في نهاية حملة التطوع الصيفية تلك إذ رجع بها إلى بيت أهلها يسوق بنفسه سيارة الإدارة المحلية.

"هذا وطنك ولّا جيت براني ها راس المحنة بالله كلمني"

٣

يذكر كولونيل الزبربر أنه لم يكن مضى سوى عام، سمح بالتعارف بين تلاميذ مدرسة أشبال الثورة خلال الاستراحات وأوقات الوجبات الثلاث؛ فالأوقات الأخرى المخصصة للدراسة والمراجعة الإجبارية والمكتبة والرياضة والسباحة والتداريب كانت صارمة جداً، حتى برز، هو، بصفته ابن عائلة ميسورة الحال، قياساً إلى غيره؛ بما يملكه جده لأبيه وبما لأمه من تركة، إضافة إلى أنه نجل ضابط سابق برتبة نقيب في جيش التحرير- التساوي داخل المدرسة، في البزة الرسمية الإجبارية شبه العسكرية ذات اللون الأخضر الغابي المكونة من غَفرة وسترة متقاطعة بعشرة أزار وسروال ومن حذاء نصفي أسود ملمع، كما في التغذية والعناية الصحية، كان لا يعدم الفوارق بين التلاميذ؛ فالميسورون منهم، على قِلّتهم، كانوا يتميزون باللباس المدني الذي يظهرون به حين يخرجون في الأيام والأوقات المسموح بها وحين يعودون من العطل، التي كانت دائماً قصيرة، مزودين بأحذية وأثواب مدنية جديدة وحلويات ودراهم.

فهو بقدر ما ازداد قرباً من بقية رفاقه الآخرين اكتشف أن غالبيتهم، قبل التحاقهم بمدرسة الأشبال، كانوا متروكين لقدرهم ينهشهم اليتم والعوز. قال له عثمان، يقابله على سريره، بعد رجوعهم ليلاً من حفل نهاية تعليمهم الإكمالي.

"– جلال، تصور لو لم تستقل الجزائر، ونحن في هذه السن، هل كنا سنكون هنا في هذه المدرسة بالذات، التي كان لا يدخلها غير أبناء الكولون والعسكر؟

– كثير منا، ربما أغلبنا، كان افترسه المرض أو صار خماساً أو أجبر على رغي الخنزير في زرائب الكلون أو هو يمسح الأحذية على أرصفة الطرقات.

– أو انتهى إلى التشرد أو قبع في السجن".

إذ وضع رأسه على الوسادة، كان لا يزال يلجلج في أذنه صوتُ مدير المدرسة الجهوري، نعيم رزاز، في لباسه العسكري برتبة رائد على منصة الساحة، تحت صمت يخرقه هسيسُ سقوطِ ورقة "أنتم هنا لستم فقط لتتعلموا، لتتدربوا، لتتكوّنوا كي تصبحوا إطارات في الجيش، ولكن أيضاً لتكونوا، بمعرفتكم وكفاءتكم، خيرَ من خلّفهم آباؤهم لصون ما كافحوا من أجله واستشهدوا! هنا تتربون على حب الوطن. هنا تتشربون قيم النزاهة والأمانة. وهنا تعرفون معنى تأدية الواجب الأقصى في كل الظروف".

ثم، على مراودة سِنة نومٍ إياه، كان طَرد من ذهنه أنه لم يُستشَر في خياره. فإنه برغم ذلك، لم يُبد يوماً لأحد تذمراً ولا نشوة. فأمه كانت قالت له فحسب، قبل سفره بليلة "يَعزّ علي بُعدك. ولكنها إرادة والدك. يحب لك أن تكون رجلاً". وكانت العمة ابتهجت، كمن تخرج من حلم سعيد، وحنّنت بكفيها على خديه حاضنة مؤخرة رأسه إلى بطنها "رأيتها! رأيت الشمس حوريةً نزلت عند الغروب بلباس أبيض ومن يدك قادتك. وعند الشاطئ جلست بجنبك. كانت سفن رمادية ضخمة تغيب وراء الأفق. قالت الشمس: ضخخت في قلبك من ناري ما يشعل تلك البواخر إن عادت". فرفع إليها رأسه، بغمامة دهشة. فانحنت وقبّلته على جبهته "ابن أخي سيكون له شأن". فأمال وجهه نحو الأم، بدمع وحشة مشبقة في عينيه "دزايز[46]... بعيدة؟"

46 الجزائر العاصمة.

كأوراق خريف في مهب ريح، انثالت على كولونيل الزبربر صورُ التذكار لحظةَ أنْ نُعي إليه صديقُه عثمان بولحية، وكان برتبة رائد إثر سقوطه قتيلاً قبل أحد عشر عاماً في اشتباك وحدته مع مجموعة مسلحة في نواحي بجاية تم القضاء خلاله على خمسة من أفرادها بينما كان السادس مجروحاً جروحاً بليغة رمى سلاحه

وطلب النجدة فأحاط به عثمان وضابط ثان من الدرك وعون من الحرس البلدي ففجر نفسه فقُتلوا في الحين.

"– عثمان، قدرنا شاء لنا أن نلتقي من جديد لنكون في الخط الأمامي لمواجهة همجية الشر.

– لن أندم على أي شيء سأفعله. ستكون تجربة، على قساوتها وفظاعتها، ثمينة. إنها تضع ما تربّينا عليه في مدرسة الأشبال على محك حقيقي.

– وسيكون في القلب دائماً ما يدفع إلى معاودة التجربة كي نمنع أن يُقتل جندي لأسباب سياسية داخلية.

– برغم مرارة هذه الخيبة التي يجرّعنا إياها الساسة والموالون لهم من المؤسسة.

– كنا نحلم بأن يوجه جهدنا كله إلى إتمام بناء البلد.

– كما بتلك المشاريع الضخمة.

– آه، عندما أتذكر تجربة إقامة السد الأخضر!

– وملحمة شق طريق الوحدة الإفريقية، التي لم تكتمل.

– كان الرئيس العقيد يشرف عليهما شخصياً.

– تتفكّر لحظات تلك الزيارات التي كان يؤديها لنا من قبل في المدرسة؟

– كان يسهر شخصياً على متابعة سيرها الصارم.

– سألني، في الاستعداد، عن معدلي السنوي في الرياضيات. كم زادت عيناه إشراقاً باخضرار متوهج لما نطقت "تسعة عشر"!

– في المطعم، كنت أجلس قبالته، كانت تلك هي المرة الأولى التي رأيته خلالها عن قرب. كان غامراً بزعرة وجهه، كإشعاع ذُري.

– ما يصدر من عينيه الخضراوين كان يخمد في عيني غيره كل حركة.

– استفسرني إن كانت الوجبات دائماً على ذلك الشكل من الغنى والتوازن، وكنا يومها نتغدى على سلاطة متنوعة وشرائح لحم العجل مع الرز وبرتقال وتمر.

– وماء شعيدة المعدني للمناسبة. ههه! لا أنسى ذلك كله.

– زياراته كانت مفاجئة ناقضة لكثير من إجراءات البروتوكول. قلت له إنها كذلك وأحياناً أحسن. فتناول الشوكة والسكين وقطع من الشريحة قائلاً، بابتسامة أب، إنها طريّة.

– ما زلت أعلق صورته وهو يسلمني جائزتي بنجاحنا في البكالوريا.

– لم أعرف عسكرياً مثله، تولى مصير بلد، بقي شريفاً نظيفاً إلى مماته.

– كان على كاريزما خارقة.

– برغم أخطائه.

– كما الرجال جميعاً".

بعد مراسم دفن عثمان بولحية، في مقبرة ڤاريدي، كان كولونيل الزبربر قال للجنرال نعيم رزاز، متوجهين نحو سيارته.

"– ذلك لا يُحزن بالقدر الذي عليه مصير عائلات أولئك الرفاق، من شهداء الواجب، وأراملهم وأطفالهم وحال المعطوبين. يكادون يكونون جميعاً متروكين لمصيرهم، لا يحظون بأي اعتبار.

– أعرف ذلك، للأسف. في قيادات الوحدات العسكرية والوحدات الأولية المدفوعة إلى مواجهة آلة الشر، كنتم، أنتم أشبال الثورة، تمثلون تسعين في المائة. أضحكني الهم لما قال لي أحد الزملاء إن ذلك خُطط له كي يتم القضاء على العنصر البشري الحامل في دمه الروح الوطنية، كما لا يحملها عسكري آخر من أمثالكم.

– إضافة إلى الموت في الاشتباكات والتفجيرات والكمائن، كانت تلك الاغتيالات.

– ذلك يبقى احتمالاً.

– لا أحب أن أبتزّك.

– لأني لا أملك بين يدي شيئاً ملموساً عن ذلك.

– أعتبره، شبه اغتيال جماعي، أن يتم في عهد الرئيس الأسبق غلق المدرسة في ١٩٨٦، لأسباب اكتنفها الغموض، في وقت كان الدفاع الوطني في حاجة إلى دم جديد من الكفاءات.

– كان القرار لاحقاً لزيارة الرئيس الفرنسي الأسبق للجزائر، وقتها".

"هذا وطنك ولّا جيت براني يا راس المحنة لله كلمني"

٤

ففي قاعة المحاضرات لأكاديمية شزشال الممتلئة انتباهاً أيضاً، كان كولونيل الزبرير، قبل أربعين عاماً، كغيره من زملائه الطلبة في الدفعة بألبستهم العسكرية وتسريحات شعورهم القصيرة وصرامة نظراتهم وانضباط جلستهم، تابع، أشد تركيزاً، الصورة الثابتة المرسلة من جهاز الدياپو، التي كان أستاذ التاريخ النقيب بدري استدار نحوها، معلّقا "قُصفت في شهر جويلية، بما وزنه طنّ من مسحوق كيماوي لإجبارها على الاستسلام".

تململ في مقعده. خالَ نفسَه سمع طلقات مدافع صماء وانفجارات سحيقة البعد. بل، شمّ رائحة أشد من الزنخ خنقاً. ففي ذهنه، كما يقول إنه قرأه أو شاهده في لوحات، طفِقت تعبُر أشباحُ نساء ورجال يتهاوون هنا وهناك، وأطفال خرجوا في الزناقي يتعثرون شادين بأيديهم على حلوقهم ثم راحوا يتساقطون على وجوههم، وكلاب وقطط ودجاج وحمام وطيور من الدوري والكروان والحسّون والببغاوات تخبط خبطاً وبغل هنا وفرس هناك في حال نفوق، وأعشاب وزهور

تذوي، وأشجار تلوي جذوعها، وشمس نحو الغروب هربت عن المدينة.

كان الأستاذ النقيب بدري أضاف "جزائر انقلب سلامها حرباً وحياتها موتاً وعمرانها خراباً في يوم احتلالها" – في مثل شهر جويلية نفسه، الذي يجلس الآن في مسائه كولونيل الزبربر وحيداً، لا يشوب خاطره أيُّ ندم على صمته عن دعوة من مصالح رئاسة الجمهورية ليحضُر حفل الاستقبال في ذكرى الاستقلال الخمسين.

وانتبه مقشعراً على صوت الأستاذ النقيب بدري المصاحبِ صورةً أخرى لأجسام بشرية وحيوانية متفحمة "مئات اللاجئين إلى المغارة، قُتلوا حرقاً بالنار، خنقاً بالدخان. حدث هذا في العام الرابع عشر من الاحتلال"، فسجل على مفكّرته "من الثانية إلى الخامسة مساء. مكتبة الكلية. مصادر عن تاريخ المحارق البشرية".

وكان أضاف في مفكرته "الاطلاع على البرنامج الفرنسي للتجارب الكيماوية والبيولوجية خلال فترة الاحتلال"، لما قال الأستاذ النقيب بدري، على صورة عكست نماذج لقذائف من التسليح القديم "وهي معبأة بمادة الكلوروفورم"، معلقاً أنها استعملت في ١٨٥٢ ضد سكان الأغواط لكسر مقاومتهم، قبل أن تخفت أضواء

قاعة المحاضرات ويظبق صمت سميك "ما ستشاهدونه مستنسخات للوحات تشكيلية خلّد بها الفنان أوجين فرومونتان حادثة إبادة أهالي الأغواط".

لإحساسه، على تلاحق الصور الثابتة، أن صوت الأستاذ النقيب بدري يتوجه إليه من دون الآخرين من زملائه، مال برأسه قليلاً إلى الأمام؛ كان في الصفوف الخلفية "ذلكم بعضٌ مما كان للريشة أن ترسمه من فظائع الجرائم التي ارتكبها جيش فرنسي فقدَ كل شرف عسكري يجب أن يسود خلال أي حرب".

كأنه هو الشاهد! حرك لسانَه لصوت النقيب بدري؛ صوت تضخم عتيقاً عميقاً، كما من مقام خالٍ ينبع "بربرية في أوج توحّشها! هنا، بطون مبقورة لنساء حوامل. هذه أشلاء لأجنة. وهذه رقاب شيوخ وأطفال منحورة. وهناك، بساتين متلفة. نخيل مقطّع الجذوع. ديار مخربة. دكاكين ومعامل للحرَف محرقة. وتلك حمير وبغال محملة بالقمح والشعير والتمر يسوقها العسكر".

بعودة الإضاءة، انشدّ إلى الأستاذ النقيب على منصة الوقوف يُخرج من مصنّفه ورقة "الآن أقتبس لكم فقرة مما كان شهد به على المجزرة ذلكم الفنان الكاتب"، فحمله صوته إلى "مدينة قتيلة قتلةً عنيفة. أبواب المنازل كانت مغلقة، عليها آثار ثقوب الرصاص

وعلامات الحراب ظاهرة. وبناية واطئة ذات فتحات في أعلاها مئذنة علق عليها صليب من حديد: إنها مسجد حُول إلى كنيسة. داخل المسجد كانت هناك أوراق منثورة مبعثرة من كتاب القرآن المقدس".

وفي مكتبة الكلية، خلال مطالعته كتاب تاريخ الإبادات الجماعية، سجل "في عام ١٩٥٠، ضربت القوات الفرنسية، بالغازات السامة، سكان مدينة البليدة الفارين نحو الجبال. وفي ١٩٥٧، حُشر سكان من مدينة يسّز في براميل للخمر ثم رُشوا بغازات مسيلة للدموع فماتوا اختناقاً. وفي ١٩٥٩، قُتل في قسنطينة بغاز السارانْ أكثرُ من مائة شخص من بينهم نساء وأطفال. وكانت القوات الفرنسية، خلال الفترة نفسها من حرب التحرير، استخدمت النابالم، للإبادة الجماعية، كأي سلاح من الأسلحة الثقيلة التقليدية، مخلفاً مئات الضحايا بين مقتولين ومحروقين، وآثار دمار بيئي".

علّق، محركاً لسانه "فعْل الإبادة، لاستبدال قومية بقومية أخرى". وفي سطر آخر "لا يوطّد سلطانَ النسيان غيرُ جرائم النسيان في حق الإنسان" - كانت تلك هي الإشارات التي بنى عليها مخطط مذكرة بحثه في موضوع الجرائم ضد الإنسانية: الاحتلال الفرنسي للجزائر نموذجاً.

وها كولونيل الزبربر: رُتبته السابقة وكنيته اللصيقة به شَرفاً، برغم حرارة مساء عيد هذا الخامس من جويلية الخمسين، يشعر برعشة غريبة تجتاح بدنه؛ حزناً متجدداً من ذكرى ما حلّت إلا لتراجعه بهمّ استوطن منه الروحَ يعرف أنه لن يَبرحه حتى آخر يوم من حياته الباقية، إلى ما بعد قبره، إلى يوم نشوره "ما آل إليه مجدُ حربٍ تحريرٍ من التفريط المذنب والنسيان القسري يعصر قلبي حسرة! قِيمُ مقاومة، ثقافتها، تضحيات أمهاتنا أثناءها، شجاعة رجالنا، وكانوا جميعا فتياناً مثل نوار الأراضي البور، قلوبهم جمر، أرواحهم شهب؛ ذلك كله، كيف يتهاوى إلى الجحود؟"

وها فراغُ الصمت من حوله يضحك بياضاً للجدران راقصاً في خضرة الجِنِينَة "من أين خرج رهط هؤلاء الساسة الوصوليين وصعاليك الدولة الجدد والعسكريين الفاقدين للشرف المتواطئين مع المهرولين بقميص الدين! بأي جبروت يتحالفون على قهر شعب ليعيش غريباً، هنا، في وطنه، على أرض أجداده، بين الصحراء وبين الماء تائهَ الوجدان، ممنوعاً من بناء دولته كما تصورها خلال تضحياته من أجل استقلاله؟"

الآن يذكر أنه لم يكن وجد لباية جواباً. ضمّها إلى صدره، فحسب. ارتجّت. أجهشت "أولئك هم الذين قتلوا ابننا ياسين، هم!"

إنه يفكّر، كسراً لقيد وحدته، لو أنه تحول طائراً ليلياً "ولكن إلى أين أحلّق، وهذه الكآبة تضرب علي إسارَها؟" وكان يحسب نفسه معانداً لليأس لدوداً! يبكي في قلبه وجهَ باية؛ ها طيفها يبتسم له "هوّن على نفسك!" ذلك، لِلَيلةِ رجوعه معكّر المزاج من حفل عشاء رسمي كان الداعي إليه وزير في الدولة مزدوج الجنسية، مثلما كشف لها "هو أيضاً وقف استعداداً للمازسياز يوم مُنح الجنسية". وكان ضيوفه تكلموا عن أسفارهم، عن دراسة أولادهم في الخارج وعن مكاسب تَجنيسهم، عن أصدقائهم هنا وهناك في ما وراء البحر، عن أتفه مشكلاتهم الصحية التي تلزمهم بالخروج من هنا، عن تحويلاتهم إلى البنوك الأكثر سرية، عن شره نسائهم المتزايد، وعن نزوات عشيقاتهم، عن أرقهم في اختيار البلدان حيث يقضون عطلهم السنوية، حريصين على إحياء أعياد الميلاد كأنهم أولى منها بالمسيحيين أنفسهم، عن طبيعة المشاريع الجديدة، عن حاجات السوق، عن مصادر التموين الآسيوية، عن مشاريع بالتراضي؛ وكانوا يضحكون ويقهقهون ويتهامسون، إذ قال له الوزير "حضرات، نحن بصدد تحضير حزمة مشاريع قوانين جديدة". وتباسم، متدللا "سنمررها على البرلمان. أنت تعرف يا سيدي أن الأمر شكلي جداً". وأسدل على وجهه، المزيّن بمزهِم فاضح، قناعَ

المسئول المهموم "ننتظر منكم قبضة أمنية أشد. نحن كما شركائنا في حاجة إلى أن نطمئن على مواصلة جهد التنمية". فانصرف عنه معتذراً، لإشارة من الجنرال نعيم رزاز، الذي قام عن الثلاثة الآخرين هناك في طاولة منزوية. وقال له فحسب "أنت على رأس القائمة. يجب أن تحضُر الاحتفال. هنيئا لك يا عقيد!"

كان أضاف لباية "فكرت فقط في تكليف اثنين من جنودي الميدانيين بخطف ذاك الوزير..."، قاطعاً كلامه لبرهة ما قرر أن ينطقها "... المخنث، من بيته في إقامة الدولة بموريتي، وحطّه في عمق غابة الزبَزبر"، فضحكت منكسرة النبرة "عارياً!" ولم يخبرها إلا على قهوة الصباح أمرَ تزقيتِه.

وها إنه يدلّك بتألم على صدره "أحسك يا قلب. لا تخذلني. إن كنتَ يوماً ستسكت فلا تُشعزني!" فالذي نغّص مزاجه أيضاً هم من حدّث عنهم باية في ذلك الصباح "رهط هؤلاء الحكام خُلقوا ليُجسّدوا الحيوانية المتوحشة في الإنسان".

إنه يكتب "أحس التهاب حنين إلى صدرك، بايتي الغالية، إلى رائحة بشرتك ممزوجة بعطرك الروحي. ما أشقاني في بقائي بعدك وحيدا!" يحسها. ها هي في ظهره بأنفاسها في أذنه الشّمالية، اليمنى، كما عادتها غالباً أن تفعل حين تأتي من خلفه متلبدة كطفلة لعوب

وتغمض عينه بيديها. فعلت ذلك آخر مرة في عيد ميلاده ما قبل الستين. تهمس له، محاكية صوته ”ومَن أيضاً؟“ يمسكها من معصميها ”تلك التي لا أعرف غيرها“.

”ما كانت مولاتك زايخه مشهورة في نجوغ
ودشرا تَغشي غلى الازياخ“

٥

بدبيب النمل بين الجلد والعظم، ولا شيء في ذهنه عن غد إلا هذا الحاضر الذي صار ماضيه وجهتَه ومحطته النهائيتين، ورضوض وجدانه هذه التي يأبى قدرُه أن يزيحها عنه إلى النسيان، يتذكر كولونيل الزبربر؛ كأن مداركه انشلّت عن الاستيعاب عن الترجمة عن التخيّل، وهو يود لو كان في حل من أي تذكُّر يعيده إلى خوالٍ كلُّها فقدٌ وضياع وخيبة.

تَذكّر فقط، برغم إرادته، وقلْ لوهن قلبه، نعم تذكر لعلعةَ رصاص وانفجارات اخترقت في الاتجاهين هذأة مساء فزِعَ فجأة إلى ليله، والفوضى المكتسحة لناقلات الجند وصيحات الإصابات المتقطعة، على صفير طلقات امتدت، خلال لحظات، ليوم من أيام القيامة. كانت أشد تدقيقاً وأفظع فتكاً.

كان، هو المقدَّم، يعي، وسط جنون الموت، أن الاستمرار في المواجهة يعني ذبح مزيد من جنوده. كان الكمين في "مسلك الموت" نفسه، بين بلدة البواحة التابعة لولاية المدية وبين قرية ڨرومة المنتمية لولاية البويرة حيث كان الحركى ذات مرة خلال حرب التحرير كمنوا لفصيلة مولاي بوزڨزة.

كان راجعاً بفصيلته من مهمة تمشيط في جبل الزبَزبر إلى المركز العملياتي المتقدم في بلدة ڤرومة، وهو يتهيّأ ذهنياً، جنب سائقه في الجيپ، لحضور حفل تقليد الرتب، لما اشتعلت نيران الكمين. بداية ذلك المساء كانت نزلت ببرودة القزح على مدينة الأخضرية – نسبة إلى القائد سي لخضر أحد أبطال جبالها خلال حرب التحرير.

إنه الآن يسترجع: بكثافة نيران الرد، بصيحات القتال، بشخير الفزع العظيم لمحركات المركبات غير المعطوبة التي كانت توقفت غير بعيد تنتظر التحاق الناجين، التقط رشاش أحد جنوده سقط جنبه، وظهراً لظهر مع جندي آخر، كبقية جنوده في شكل نصف دائرة، اخترق طوقَ الكمين وأخمد نيران آخر المسلحين في اتجاه المركبات المنتظرة. ولولا أن جنود فصيلته كانوا من الرجال الميدانيين، من غير مجندي الخدمة العسكرية، المدربين على القتال كيفما حتمته ظروفه، لتمت إبادتهم. كان الانسحاب قاسياً. فجميع الجنود المجروحين ممن حاولوا الالتحاق أسقطوا بإصابات في الظهر.

على إقلاع المركبات، كان يشاهد أفراد المجموعة المسلحة في ألبستهم شبه الأفغانية وسترات عسكرية

بقية جنوده، أنهم سيجهزون على بقية الجرحى بعد أن يستحوذوا على أسلحتهم ويسلبوهم كسوتهم ثم يمثلوا بهم. كان المساء أسدل ستاره على مشهد آخر من الحزن المجلل بالدم.

جنب السائق، في الجيپ تتقدم مركبتين باقيتين من الأربع، نازف الساق لإصابته برصاصة خلال الرد، اعتصر ألماً على قتلاه الذين تركهم خلفه. فقبل أيام من الكمين، كان في ساحة التدريب، في بزته الميدانية المموهة، مشمر الساعدين، كما أحب أن يراه جنوده، ذكّر المستعدين "أنتم تقاتلون دفاعاً عن شرف الجيش، حمايةً للجمهورية".

في الغد، وسط حركة الجند تأهباً لبداية تمشيط محدود في موقع الكمين، كان، إذ وجه منظاره من سفح جبل الزبَزبر إلى قمته، أبصر شجرة عرعار توهمها راحت تتحول شبحاً، آخذة لها هيئة بشرية، ندّ منها صوت تموج في ذهنه المعمور برعب الليلة الماضية "عدتَ تقف على آثار العبثية؟" فنطق، ضاغطاً ألم ساقه "بل لأستدفع مرتكبي الجريمة، في حق الإنسان وحقك، ثمناً".

إنه واقف الآن على جنوده المقتولين. نبضه يتسارع. جبينه يتعرّق. إنه يعض على داخل شفته السفلى. فكما توقع، ها هم على طرفي الطريق مبعثرين على بشرة

ميلادهم. بعضٌ منهم، أربعة من العشرة، يظهرون على صدورهم كأنهم ينتظرون منصتين أن ترد على سؤال موتهم أرضٌ تبدو هجرت ترابها قبل ليلة. بالقرب، ناقلتا جند، مفشوشتا العجلات الأمامية مهرشمتا الواجهتين الزجاجيتين مخرّقتا البابين، جنحتا كلتاهما بما يدل على أن سائقيهما كانا قتلا قبل أن توقف الأولى حاشيةَ الطريق نحو مرتفع الجبل وتصطدم الثانية بجذع شجرة أوكالبتوس ضخمة.

في ساحة الثكنة، ها هو يستعرض توابيتهم مسجّاةً بالأعلام قبل شحنهم متفرقين إلى أهليهم هنا وهناك في أدنى مدينة، في أقصى قرية. يَصدُر الإيعاز. تدوي طلقات التحية الإحدى والعشرون. بينه وبين نفسه، وهو مستعد "أقسم بأرواحكم، ما بقيث حياً، على أن تعاقَب اليد التي امتدت إليكم".

لأيام، راجع خرائط المنطقة، دقق المؤشرات الاستخباراتية ورفع نسق التدريبات باستعمال الأسلحة ووسائل الربط في تمثيل مشابه لطوبوغرافيا الهدف، قبل الشروع في تعقُّب المجموعة المسلحة، التي نصبت الكمين المهلك يقودها أميرها زغدان.

في تلك الظروف، يمكن لك أن ترى، من حول ضابط مثل كولونيل الزبربر، جنوداً مدربين؛ جنوداً يتحملون المشي ليل نهار كيفما كانت التضاريس والمسافات

والاتجاهات والأجواء، يباغتون العدو، يفرضون الحصار، يسدّون منافذ التسلل؛ ما يشعرك أنك مع رجال فوق القدرة البشرية، لا ينامون إلا لحظات، لا يأكلون إلا قليلاً، مستعدين للقتال في كل حين، يضربون بقوة، بلا شفقة، لا يحركهم أي حقد؛ اختارهم من تعداد فصيلته الخاصة وقسمهم أربعة أفواج من خمسة جنود في ألبسة التماهي مع ألوان الغابة، مسلحين برشاشات خفيفة ومسدسات كاتمة وقنابل يدوية وخناجر ميدانية، على ظهورهم محمولات طعام وشراب لمدة قصيرة، مزودين بأجهزة الاتصال الفردية والرؤية الليلية بالأشعة تحت الحمراء.

ظل، خلال يومي التعقب، يستطيع في أكثر من موضع أن يوعِز بالقضاء على هذا الهدف أو ذاك حين يظهر، نهاراً غالباً، فلا يفعل. كان يعلم أن مجموعة زغدان تنشطر ثم تتجمع. ها هو يهمس لمساعده الرقيب أول مُحتد أن بعض تلك الأهداف المكتشفة مجرد طُعم للإلهاء. وبالطلْكي ويلْكي المضبوط بينه وبين بقية جنوده على شريط تَردُدٍ بنظام رقمي مؤمَّن، يطلب مرة أخرى الالتزام بخطة "عملية اللنج" القاضية بانتظار لحظة التئام المجموعة المسلحة في المخيم، مثلما حدده له بالتدقيق، هو ومعابرَه الملغمة، المسلحُ الذي كان نزل برشاش وسلمه نفسه، بتدبير وإيعاز من

علّيش، واعترف له أنه كان ضمن جماعة زغدان التي انتقل منها إلى غيرها قبل أيام، وبكى إليه "لم أقتل أحداً. توحشت يَمّا وبابا. أنا وحيدهما. وعدني الأخ عليش أني لن أصاب بمكروه". فطمأنه "سترى والديك. وستستأنف دراستك الجامعية".

الآن، صار هو وجنوده على مقربة من الهدف. إنه يتقدمهم. ها هم يزحفون متراً متراً، مموهين بالأغصان، لا تظهر من وجوههم المطلية بأصباغ سوداء وخضراء، غير عيونهم. على رؤوسهم قلانس كومندو سوداء، بدلَ الخوَذ، ملفوفة إلى ما فوق آذانهم المغروسة في كل واحدة منها سماعة متصلة بميكرو الإرسال. أصابعهم على لُسينات زنادات رشاشاتهم الخفيفة.

ها هو العريف رضا، في الفوج الأول، يفكك في معبر أول خيطَ وصلٍ بين صواعق قنابل مزروعة؛ فيما العريف أول أحمد، في الفوج الثالث، يجهز في المعبر الثاني بكاتم صوت على حارسي معبر ثانٍ. وبالسلاح الأبيض يُحيّد الرقيب أول مُحند في الفوج الرابع، حارس مدخل المخيم.

أحكم الطوق على المخيم. القائد يبلغ أمرَه "الآن!" فدوّت في اللحظة نفسها تفجيرات القنابل اليدوية والطلقات في الخيام الثلاث، على فزع طيور أول الصبح. جنود الفوج الرابع مع القائد نفسه في أطراف

الساحة الترابية يغطون على رفاقهم من الجهات الأربع. ها هو الذي خرج بسلاحه من الخيمة الأولى لم يخط غير خطوتين قبل أن يسقط بطلقة في الرأس من جندي في الفوج الرابع. من الخيمة الثانية لا يُسمع نفَس. ومن الخيمة الأخيرة يخرج هذا الذي رصده الرقيب أول مُحند؛ إنه يصرخ في ظهره أنِ ارمِ سلاحك أنِ ارفع يديك. امتثل. وضع أرضاً مسدسه الرشاش. يبدو لابساً سترة عسكرية فوق ثياب أفغانية. الرقيب أول مُحند يقيد يديه إلى الخلف. يأمره أن يتقدم وسط صحن المخيم نحو القائد. أمامه، يقف ناظراً من حوله في فزع طريدة. لا بد أنه يشعر أن دنياه تأرجحت نهائياً نحو المهوى، على رجع صدى صوت الرقيب أول مُحند يسكن سفعه وهو يقدم تقرير العملية "كلهم، حضرات، ستة عشر! هذه شكارة الدراهم. وهذا السيف".

كان الصمت امتص إلى عمقه كل حركة، حتى حفيفَ الأشجار، وأصوات الطيور في الجوار، لما نطق القائد للذي كان يخرج بالكاد من روع المباغتة الماحقة "أحب أن أناديك السيد لحمر زغدان. أما أبو حفص فمتروك لإمارتك الوهمية!" وقال له "مثلك يدنّس تراب هذا الجبل وغابته ومغاراته المعطرة بدم الشهداء. الزبَزبر

كان حضناً لمن أخرجوا ملّة أمثالك من هوان المستعمرين!"

ثمة، احتلت ذهنَ كولونيل الزبربر صورةُ والده مولاي بوزقزة، بلباس الجندية يوم كان هو وفصيلته والكتائب الأخرى في حرب التحرير أسياد الموقع يلتجئون إلى مغاراته وكازماته إثر كل عملية مسلحة في نواحي المنطقة ضد قوات الاحتلال الفرنسية.

"هذا برّك ولّا جيث برّاني يا راش المحنه لله خبّرني"

الفصل السادس

١

قبل أن يُسندها كولونيل الزبربر إلى داعٍ غامض، هز كيان لحمر زغدان إذ جلس على كرسي حاسرَ الرأس في عباءة قهوية قصيرة من النوع الأفغاني وسروال داخلي تحتها محتذياً نعالة بدل التنيسة، فإنه كان وجدها استثناءً أن يكون أول ما نطق له به يقابله في مكتبه بدائرة الاستعلامات والأمن لاستنطاقه بعد أن حل وثاقه الرقيب أول مُحنِد وخرج، هو ذكْرَ اسمه كاملا ”لحمر زغدان ولد الماشي“ كما كان قاضي الجلسة نطق به، حسب وثيقة من بين وثائق أخرى – هي الآن بين يدي كولونيل الزبربر. فصرخت الأخت الكبرى، رامية إصبعها في ظهره ”هذا المجرم قتل والدنا! نحن بُرآء منه. إنه لا يستحق اسمنا“.

لحمر زغدان يستمع الآن للكولونيل يقرأ عليه، من وثيقةٍ، ما كان أحد المقبوض عليهم سابقاً أدلى به “”انس أنك لحمر زغدان ولد الماشي. أنت من الآن أبو حفص. لن تُعرف بغير هذه الكنية““، “”وأنا بايعتك

على السمع والطاعة"". يُميل نظره إلى الفراغ "هو الأمير طلحة، فعلاً. برافو عليكم!"

تم ذلك عام ١٩٩٣ في أحد كهوف جبل الزبَزبر المزوّد، كأي مقر من مقرات هيئة أركان في حال حرب، بمولّد كهربائي وعوازل تشبه الغرف. يذكر كولونيل الزبربر أنه إذ كان بعد ثلاث سنين من ذلك قد اقتحمه تفاجأ متفكّهاً للنقيب علّيش بجانبه "رفاةٌ لم يحظ به من حرروا الجزائر أنفسُهم!" فأبو حفص ذاتُه كان لا يعلم يومَها ماذا آل إليه ذلك كله، بعد أن فُككت الألغام المزروعة وأغلق فم كهف آخر بالإسمنت المسلح عقب إصرار المختبئين فيه على رفض الخروج برغم بيانات الطمأنة منه، هو كولونيل الزبربر شخصياً، عبر مكبرات صوت منصوبة في الأشجار القريبة.

فثمة، كان رد على النقيب عليش أكثر من مرة محاولاته إقناعَه بالانتقال إلى مرحلة الحسم، كما يقتضيها المخطط الموضوع للعملية بدل انتظار أن تسلم المجموعة نفسها، وكان يتوقع أن يكون ضمنها نساء وأطفال. قال له "أستطيع أن أحوّل الكهف إلى أتون من جهنم"، فشغله عنه أنه تذكّر الأستاذ النقيب بدري، في أكاديمية شزشال، على مصطبة المدرج، مشيراً إلى الصور عن شماله "كل واحد من هؤلاء الجنرالات نافس سابقه بالتفنن في تحقيق محرقة

أنجع" – يومها، كان ضبط في سجله "كافينياك. بيجو. بيليسييه. سانت أرنو"، مستنفراً سمعه "وكانوا في النهاية يصِلون إلى الوسيلة والمحصّلة ذاتيهما: نارٌ مستعرة أمام المغارة تستهلك الأوكسجين داخلها وتملأ تجاويفها دخاناً، فاختناقٌ لكل حي نتيجةً لذلك". ثم سجل أيضاً "الجيش الفرنسي يتخذ من المحارق سلاح إبادة جماعية ضد الجزائريين".

النقيب عليش ينبهه.

"– حضرات المقدَّم!

– وماذا أيضاً؟

– أستطيع أن أضمّخهم بشحنات من الغاز.

– أنت مجنون؟

– يمكن أن أنصب بطارية ثقيلة لصليِهم بطوفان من نارها.

– يجب انتظار الأوامر".

فكان ما أن وصلت البرقية، التي أكدت أنْ لا أطفال داخل المغارة، حتى شرعت فرقة الهندسة العسكرية تُعد عجين الخرسانة.

لحمر زغدان يستطيع الآن أن يجيب، إن سئل، أنه وُجد للكهف مخرج آخر يكون سلكه أميره طلحة بكتيبة "الهول"، التي كان يتأمّر عليها، بعد حصار بطوق دائري قطرُه كيلومتر، دام ستة أيام ضربته القوات البرية،

مدعومة بطائرات الاستكشاف والمروحيات. لكن كولونيل الزبربر لم يفعل؛ فإنه كان عرف ذلك من علّيش، عون الأمن العسكري، الذي كان دسّه للأمير طلحة، باعتباره أحد الفارين من صفوف الجيش المتمردين على قيادته، ومن قبلُ صديقَ طفولته في الحي وزميلاً له في الدراسة. كان ذلك أشهراً قبل عملية الفرار الضخمة من سجن تازُولْت (لامْبيز، سابقاً).

يُعزِّف كولونويل الزبربر بأن الملازم علَيش، زيادة على معارفه الدينية والفقهية المؤكدة، كان من نخبة فصيلته، مدرَّباً على خوض حرب عصابات مضادة وعلى قتال التلاحم وكشف الأهداف وتحديدها واستقاء المعلومات وتبليغها مشفرة؛ على استعداد لأقسى اختبار قد يخضعه له طلحة. فقد نفذ له، بلا تردد، عملية الوكالة البريدية في مدينة الأخضرية. كانت غنيمة مبلغ المليار سنتيم، الذي صعد به إلى جبل الزبَزبر وسلّم طلحة إياه، هي عربون الثقة بينهما. قبل أيام من ذلك، كان كولونيل الزبربر أشعر مدير البريد إلى احتمال وقوع عملية سطو مسلحة. وطلب إليه أن لا يشعل الإنذار، في حال التنفيذ، إلا بعد انسحاب المهاجمين تفادياً لحمام دم وسط الموظفين والمدنيين. ونبهه "سري للغاية!" كان عليش يجد كل مرة الذريعة لإبلاغ قائده، باستعماله الهاتف الثابت غالباً، معلومات دقيقة،

خلال السطو على محطات البنزين والوكالات البريدية، والنزول على الدواوير؛ وكذا أثناء تأديته مهمة اتصال في قرية أو مدينة بين الجماعة وبين شبكات الدعم – حالياً، يقوم عليش بمهمة ضابط استعلامات برتبة رائد. يوم دعا كولونيل الزبربر إلى غداء على سمك في مطعم الطاحونة احتفاء بترقيته، قال له.

"– مثل أطباء، استأصلنا ورم الشر.

– لكنّا لا نملك، مثل أطباء، وسائل أخرى، غير السلاح، لمنع جسد البلد من الانتكاسة.

– يجب أن نطمئن، يا رفيق، إلى أن الجزائر، مثل الكبد، ستتجدد من ذاتها كل مرة استئصل منها بالجراح جزءٌ.

– خوفي من هؤلاء الساسة الكواسر الذين يزرعون الإحباط وينقون الفشل.

– لأخطائهم ونزواتهم وضيق أفقهم ونقص كفاءتهم، ينتشر في نسيج المجتمع، كمرض فتاك، كل هذا السخط والتذمر والانسياق إلى الجريمة".

يعتقد كولونيل الزبربر أن ما يشبه هاتفاً من الغيب أوعز إليه هذا قبل أن يقوم ويترك لحمر زغدان لدقائق "ها هو رأى في نظرتك المتيبسة إليه شعاعاً كاشفاً دواخلَه المعتمة. بل لعله توهمك صرت عليه رقيباً أقرب إليه من أحد الملَكين".

قبل ساعة، كان راجع الملف الذي يملكه عن لحمر زغدان؛ ملفاً كاملاً، أحصى فيه حركته؛ في حيه، في طريقه إلى المدرسة، إلى المتوسطة، إلى الثانوية، في سوق الغُقِيبَة بحي بَلْكوز، حيث كان يبيع أي شيء يعود به لوالدته حتى لا تسأل أباه؛ في المسجد حيث انضم إلى حلقة الزبير، في بيتهم وسط إخوته الأربعة، بين أخواته الثلاث، أمام أمه تصرخ في وجه والده "أنت خنزير!" لأنه صفعها بشدة، مرة أخرى، صائحاً "قلت لَيمّاك، يكفي! أنت أرنب؟ اشربي ربَّ الحبوب! جربي السم! ما ذا أفعل؟ أغلقوا المعمل. من أين أجيب الخبز والحليب لهذه القوارض؟" متقدماً نحوها بسكين يتهددها "تشتمينني؟ أنا سأذبحك!" فخطفه لحمر من يديه وتراجع إلى الخلف فحمل عليه ليسترده. كانت لحظة العراك أقصر من صرخة الأم على تهاوي زوجها إلى الخلف ساقطاً على ظهره. بدا السكين منغرساً في البطن حتى المقبض. لم يقف لحمر سوى للحظةٍ جمّد خلالها حركة أخواته وإخوته الذين كانوا تلاحقوا مذهولين. لم ينبس بكلمة. تَشخّصهم واحداً واحدة، فيما ألقت أمه ساقيها على الأرضية عاريتين ناحبةً ظافرةً خديها، من غير أن يثبت على ملامحه، التي اكتست برودةً بيضاء، غيرُ هذا الأثر من الشعور بالتخلص من عبء. ثم خرج ليجد نفسه في مخفر

الشرطة. تكون تلك آخر صورة له احتفظت بها ذاكرة إخوته. حدث ذلك في عام ١٩٩٠. وقبلها في العام ذاته، كان طُرد من الجامعة، في سنته الأولى، لاعتدائه على أستاذ رفض أن يضخم له نقطة اختبار علم النفس. كان بِكْرَ إخوته. يوم محاكمته كان يولّيهم ظهره.

”ولّا انت جزار خدايدك مسمومة ما تذبح في الجلبة غير ما يرضيك“

٢

ها هو كولونيل الزبربر عاود الدخول على لحمر زغدان. إنه يرمي له "تستطيع أن تطمع، الآن، في أي شيء إلا أن أحوّلك إلى الدرك أو أن أحيلك على العدالة"، فتُفلت من هذا رجةٌ تظاهرت في انهيار نظرته؛ إنه يكون يقلب في ذهنه صوراً لجنود مضرّجين في دمهم من المبقورين ممن هم بلا رؤوس، عند قدميه إثر هذا الكمين أو ذاك. يرى زبد الدم الفائر. يشم بقايا مزيج من رائحة اللحم البشري والحديد والخشب والتراب.

لشعور كولونيل الزبربر بأن الأمر غير مُجدٍ في المقام، لم يُعد إلى ذهن لحمر زغدان مشاهدَ أخرى مما ينزوي، من التنكيل، في قلبه هو وفي ذاكرته. فإنه يعلم أنه لن يُظهر له تألّماً ولا تَندّماً. ولا أن يقول له إنها الحرب؛ الحرب فحسب، بلا نعوت. أما أن يجرؤ على أن يعلن "هو الجهاد!" فأمر كان سيكون مضحكاً لأنه يدرك أنه أمام ضابط ميداني سيسخر منه ملءَ مزاجه.

كولونيل الزبربر الآن لا ينظر إلى لحمر زغدان فحسب بما كان قرأه عنه في الملف من إشارات عن خصائصه النفسية التي ترسمه كأهم شخص خطير عديم الشعور تجاه من يراه عدوا له لأنه يخالفه الرأي،

ولكن أيضاً بما تراكم له من خلاصات عن تجاربه مع أفراد من نواة الجماعات المسلحة الصلبة أخضعهم للاستنطاق، كما تظهر به هيئة هذا أو ذاك الغريبة غير المائّة بصلة إلى ما يمكن لعسكري أو رجل أمن أن يتصوره عن شخص من مواطنيه يمكن له يوماً أن يتمرد وأن يحمل السلاح في وجه قوى بلده العمومية؛ كأن هذا أو ذاك نازل من كوكب آخر بملاح فيزيقية منمّاة تنميةً كيما تكون شارات للرعب الأعلى للقسوة القصوى وللقتل، للقتل فقط؛ من هذه النظرات الآتية من صقيع قطبيّ، ومن هذه القناعة المتجذرة في الكفاية بصواب المبدأ وأحقيته؛ قناعة تصرخ بأنها تُثني كلَّ مَن يأمل في الفتّ فيها أو تغييرها!

لم يفعل لحمر زغدان غير أنْ مطّط حاجبيه؛ تخلُّصاً من رجّةِ "أو أن أحيلك على العدالة". كولونيل الزبربر يتصوره في هذه اللحظة تلك الصخرةَ قابعة في حقل زراعي؛ صخرةٌ كان شاهد، خلال أيام التطوع، كيف أن أحد أولئك الفلاحين المستفيدين دار حولها باحثاً فيها عن شيء لا يُرى ثم مسح بيده الترابَ العالق بموضع منها وأخذ المطرقة الضخمة فضرب ضربتين متواليتين فظهرت خيوط التصدع مثل أشعة برق - يومها كان كولونيل الزبربر أحدَ ضباط مراقبة تطبيق الثورة الزراعية.

لا بد أن صلابة لحمر زغدان، كما صعَد إلى قناعة كولونيل الزبربر، صدّعتها "تستطيع أن تطمع، الآن، في أي شيء إلا أن أحوّلك إلى الدرك أو أن أحيلك على العدالة". وبفعلها، يكون كسحه شعور بتبكيت في الفاصل بين خروجه عنه وبين دخوله عليه مرة أخرى في مكتب مجهز بوسائل تنصت وتصوير مزروعة بشكل مموه.

كولونيل الزبربر يتابع تقطيبة وجه لحمر زغدان. الآن، لا يمكنه إلا أن يكون تحت سيل من التذكارات؛ دمُ ضحاياه، دم أبيه النازّ عند مقبض السكين المغروس في بطنه. تَمغَّص. زاغت نظراته. إنه كما مُسرنَم. أغمض. ليرى ظلمة نفسه؟ مص ريقه. إنه يَفقد خلاصه؟

ببرودة خالية من سيما الوقاحة، عرفها كولونيل الزبربر لمتشددين قبل أن ينهاروا في مرحلة ما من مراحل الاستنطاق، نطق لحمر زغدان "حضرة الكولونيل..." – رتبة، كان لحمر زغدان أول واحد من الجماعات المسلحة يراه بها في البزة الميدانية "... سبق لمسئوليك السامين أن فعلوا مثل هذا في حق غيري. إنها عدالتهم".

نظرات لحمر زغدان تتبعثر؛ كولونيل الزبربر رأى مثل ذلك في عيني أكثر من شخص كان يستنطقه إذ يتشوش ذهنه. قال "أخبارك الميدانية نشرت لك هذه

الهيبة في أوساط الجماعات نفسها. أنت، إذاً، هو الذي يسمونه أيضاً رب الزبَزبر!" فاكتفى الكولونيل بأنْ هز رأسه، غير منشغل بأن الآخر فضّل أن لا يقول "جماعاتنا... و... نسميه". فإنه سدّ في الحين منافذ قلبه عن أن يَدخله أي تليين. وصلّب الوتر الإنساني في روحه كيلا يهتز.

إنه شعوري، الآن.

يعرف كولونيل الزبربر أنه بدا للحمر زغدان، خلال لحظات الفراغ بينهما، في أوثق هدوئه، بل في كامل إنسانيته؛ الإنسانية! تلك هي قوة ضابط في مثل وضعه: أنْ يُظهر لعدوه ذاتِه أنه ليس وحشاً؛ ففي عينيه يسكن هذا الإشعاع الذي يخترق أصلب القلوب: بياض بشرة ووسامة ملامح وقوام بدن؛ علامات لا تشد شخصاً مثل لحمر زغدان فحسب بل وتلهمه نقْصَه أيضاً.

أعرف ذلك. إنه والدي!

ولكن، كيف أفلتت من لسان لحمر زغدان عبارة بذلك الثقل "إنها عدالتهم" فانتزعت من كولونيل الزبربر اعترافاً لنفسه بهذا اللبس "ألم أنفّذ أنا تعليمات مسئوليّ السامين، فلم أجتهد إلا في تسويغ الأوامر لتتطابق مع قناعاتي عن محاربة الشر؟ وعدالتهم، أليست هي عدالتي أنا أيضاً؟ ألست أنا أحد حماتها؟"

يظن كولونيل الزبربر، بل يتيقن، فلا شيء يمنعه، أن لحمر زغدان تكون نفسه حدّثته، في بياضِ فراغٍ آخر بينهما، أنه يستطيع أن يتغير لو كان الزمن يعيده إلى مراهقته. فعزلُه في زنزانة مظلمة يكون خلخله – زنزانة لم يتبين فيها لحمر زغدان، لأيام، ليله من نهاره، قبل وقوفه أمام كولونيل الزبربر ليتخيل مصيره المحتوم كما المقبوضِ عليهم من الملطخة أيدهم مذ نطق له "تستطيع أن تطمع، الآن، في أي شيء إلا أن أحوّلك إلى الدرك أو أن أحيلك على العدالة".

إنه يرى لحمر زغدان يمص ريقه مرة أخرى. بمرارة؟ هل هو يستعيد أن الجماعة كانت قد اغتصبت منه فترة شبابه؟ أهو يرى قتلَ أبيه كابوساً ها هو يستفيق منه؟ وها أمه تعطيه لا يدري من أين لها ذلك مصاريف التسجيل بالجامعة. وها تلك الفتاة الطالبة التي اختطفها ليتزوجها زواج متعة فتمنعت عنه فاغتصبها وعصته في المرقَد فضربها حتى الموت، تصرخ في وجهه بصوت ممزق امتصته السماء.

افترض كولونيل الزبربر للحمر زغدان أن دفقاً من الهواجس ينهال عليه؛ كأن شخصاً آخر يكون سكنه مذ اقترب إلى الثكنة معصوب العينين، فانتظر طلقة أو حزة

الزبربر أن أمه روت له خلال إحدى عطله من مدرسة الأشبال أن والده أخبرها يوماً أن كلاب الفلاحين قُتل أغلبها خلال الحرب خنقاً بالسلك حتى لا تثير انتباه العدو ومُخبريه من "البيّاعة" حين نزول أفواج جيش التحرير على الدواوير. كانت تحدثه، حينها، عن الجزو الجديد الذي تربيه.

لم يكن كولونيل الزبربر ينتظر من لحمر زغدان أن لا يواجهه، بل أن لا يعلّق على كلمة "كلب". كان شرّد نظرته إلى داخله. إنه يقول، بنبرة صافية كما طفل أمام أبيه "كنت سأكون شخصاً مختلفاً عادياً. لو، فقط، أن الكتب التي مُررت لي، مثل قوت يومي وشرابي، في الجبال والكازمات والمغارات، كانت شيئاً آخر كالتاريخ والأدب وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والنظريات والفلسفة!"

كولونيل الزبربر يومئ بذقنه؛ كأنما إلى شخص آخر لا يظهر "بك توقٌ إلى أن تقبع ساعة في سجن لتقرأ رواية فترى العالم، كما لم تره من قبل أبداً، في زمان ومكان ومصائر، بدلاً عن زمانك اللازماني ومكانك الغريب عن أي مكان ومصيرك المخالف لطبيعة إنسان سوي".

ثم، ها هو يركّزه "وأن تغطس عارياً في بركة في نهر في بحر في أي ماء يطهّرك من قشرتك الدموية!"

فيقلص هذا عينيه، كحسير "لكنْ ها أنا أرى كل ماء يَحول سائلاً أحمر والنورَ ظلمة"، فيكمل الآخر تجاهه "والإنسانَ حيواناً ضارياً!"

فجأة، أجحظ لحمر زغدان عينيه على دهشة مَن تذكر شيئاً نسيه. ثم زفر.

"ولّا انت بذعي من ضحاب الضُلالة مقامك تلقاه

في انسان كْرِيب"

٣

”كنت أتوقع أن ألقاك بسيفك. لا بد أنك تذكر كيف كنت تمتشقه، حين تدخلون قرية منعزلة أو تقيمون حاجزاً مزيفاً. وتتلذذ أن ترهب الناس به. أنت تعلم أن كثيرين يعرفون أن من يقتل أباه سيسهل عليه أكثر قتلُ غيره!“ كذلك تعمّد كولونيل الزبربر أن يصعق لحمر زغدان فسحب نظره إلى صورة رئيس الجمهورية المعلقة قُبالته ”لا أرى أياً كان مخوّلاً لأن أعرض عليه ندمي“. ثم رمى عينيه في الفراغ بين ركبتيه.

لشعور كولونيل الزبربر أن لحمر زغدان ولج هذه الحال، قال.

”– في ذهنك مثلَ النار اشتعلت رغبةُ إنهاء وجودك بطلقة في الصدغ أو في الحلق. وها أنت لا تجد بين يديك غير الخواء.

– فقدت السلاح في الجبل.

– تذكر آية الله عن قتل النفس!

– ما تَلقّنته عن الموت والقتل لم يزدني إلا نأياً عن الله“.

انتظر كولونيل الزبربر من لحمر زغدان أمارة نفي أو دهشة، لا أن ترتجف ركبتاه إلى الحد الذي أمسك

خمسة من الجنود لم تشفع لهم عندك توسلاتهم أنهم مجرد مجندين في الخدمة العسكرية. شاهدان كانا نزلا من الجبل بسلاحيهما إلى هنا أكدا ذلك".

نشر لحمر زغدان يديه على ظاهريهما. تأمل كفيه "لو أني كنت أنا من ربط الحزام الناسف فضغطت على الصاعق فالتهمتني عاصفة النار!" واستمع لكولونيل الزبربر يذكّره "بدل المسلح الذي فجر نفسه وسط المنتظرين دور مرورهم إلى الفحص العسكري أمام ثكنة التجنيد، حتى تنسى حشرجات أولئك الجنود الخمسة". فشبك أصابعه العشر "إن كان في قلبي رب فإنه هجرني يومها لهذا المصير".

ضحك كولونيل الزبربر في سره أن يعتبر قول لحمر زغدان نيةً في ندمٍ. لكنه وجدَها منه غرابةً أنْ رفع إليه وجهاً بملامح لطفل كانَه "لا بد أنه هُيئ لي ما سيريحني إلى الأبد. فقط، أتمنّى أن يكون برصاصة في قفاي. رغبتي في ذلك ملحة، ولو أنه يبدو أنْ لا خيار لي في طريقة موتي ولا في وسيلتها".

كولونيل الزبربر يرد، ببرودة صقيع في النبرة، بابتذال ثقيل "لن يكون الأمر مختلفاً عما فعلته أنت بغيرك"، وأمعن "تصوز أحدَ جنودي قيّد بسلك يديك

إلى ظهرك ووضع قفاك على ركبته، نصف واقف. وبيد، من فروة شعرك جذب إلى الخلف لترى السماءَ نحرك. ستتذكر في الهنيهة كل الذين توسلوا إليك بأن يكون موتهم برصاصة. وبيد ثانية، حزّ بسيفك نفْسِه. وربما جعلك قبل ذلك تختبر بأسنانك برودة النصل وبلسانك شفرتَه إن كانت ماضية. ثم، وما ذا لو ضمّخوك بالبنزين ثم أشعلوك لتشم رائحة لحمك يذوب! أنت لا تطيق كل هذه الأحاسيس الهولاء؟ هل أجبتَ عن سؤال عيني والدك تنظران إليك إن كنتَ علَقة بشرية منه حملتها أمك؟"

كولونيل الزبربر لا يظاهر تشفياً ولا انتشاء، وهو يرى لحمر زغدان يختض، ينشِق ما نزل من منخريه، ينظر إليه بما يعطي انطباعاً بالتودد، كأنه يسأله لماذا هو يفعل به ذلك. ذكّره، فحسب "من كنت تصطبرهم على موتهم مقيدين بالسلك يستعرضون لك الآن في أثواب دمائهم". وأشار برأسه إلى خزانة جدارية "السترة العسكرية التي كنت تلبسها كانت لأحد الجنود الذين قتلتَهم. إنها، هي وغيرها، مطوية خلفك بآثار خروق الرصاص والدم. دمٌ لا يمحوه أي مزيل".

لم يلتفت لحمر زغدان. شد بشماله على نحره وتمغّص، كما من وجع.

"– شر الموت أن يأتي بارداً.

– هل تذكر آخر يوم تبسمت فيه؟

– تبسمتُ! أنا؟ لم أر وجهي مذ غاب خلف اللحية.

– أفترض أنك لا بد أحببت يوماً.

– هل أستطيع أن أبتسم؟

– لذلك، قتلتَ. قتلت تلك الفتاة. ومزيداً، قتلتَ!

– تلك الفتاة! في السجن، توصلت إلى أن حادثة والدي كانت قدراً – ثمة نظفوا ذاكرتك من دمه.

– هم الذين فتحوا لي الطريق إلى الله.

– الله الذي يتوهمون أنه خلقهم ليدافعوا عنه، لأنه إلههم من دون العالَمين.

– وهم الذين رتبوا فراري.

– واستقبلوك في الجبل.

– كنتُ مَديناً لهم.

– بأن تكفّر عن ذنبك في حق أبيك بقتلٍ كثيرٍ لتتقرب إلى الله.

– الآن، أعرف لماذا كان ربي يبتعد عني بقدر اقترابي منه.

– ما ذا كان ذنب تلك الفتاة الطالبة؟

– ربما كنت أستطيع أن أبتسم لها يوماً وأحبها.

– وقد تكون ضربتَ عنقها في ساحة عمومية، بدل تهشيم رأسها بسلاحك.

– أما السيف فقد استوليتم عليه يوم المداهمة.

– كم بريئاً قطعت رأسه به؟

– بريئاً، لا أذكر.

– فيم كنت تمسح الدم؟

– الدم، في ثياب القتيل".

ينقر كولونيل الزبربر بأصابع شِماله كما على بيانو فيعود لحمر زغدان "وأنت تحمله، كنت تتخيل مشاهد تم الترتيب لها على منصة خشبية رُكّبت في قلب ساحة. كنت ترى نفسك تهوي به، بيديك معاً، ليس لقطع رأس هذا أو تلك ولكن لبتر شجرة العقل ليسهل اغتصاب الحشود".

بعد لحظة تبلّهٍ، ها هو لحمر زغدان ينطق، كأن غيره يفعل ذلك على لسانه.

"– العامّة تهيّجها لذة اغتصابها. وسط الجماعة، أنا أيضاً أشعر بشيء من ذلك.

– كأن جلاداً يتكلم فيك!

– كلنا جلادون ما دمنا نحمل قابلية الخضوع لإرادة غيرنا.

– لا بد أن الجلاد فيك أنت يخرج بالكامل عن المواصفات المتعارف عليها عند المرضى نفسياً.

– قد يكون لظلمٍ ما.

– وتقضي على ظلم بظلم أشد منه؟"

”ولّا انت تجري مع العرايا يا ويحك في يوم الشدة والفرار“

٤

بدا لحمر زغدان، برهةً ما استغرقه تفكيره، ذا وجهٍ قبل أيام، قبل ساعات، كان منغلقاً على ظلمة كهف ها هو ينبسط "هل هي مسئولية الواحد منا أن يتأرجح في داخله النزوع إلى الشر إلى حدّ أن يتعطل وازع الخير؟" ركّزه كولونيل الزبربر، يردد في نفسه "شخص مثلك يناور ليجرني الآن إلى الخوض في الجبر والاختيار!"

كان الآخر يضيف.

"– كلنا مؤهّل لأنْ يَظلم ويقتل مثل أي جلاد.

– إلى درجة التقتيل الجماعي!

– واحد أو جماعة أو ثلث أمة، هل يغير العدد شيئاً إذا كانت الغاية إصلاح البقية.

– كما جعلوك تعتقد؟

– تستطيع أن تقول ذلك".

إن كان لحمر زغدان عاين أن كولونيل الزبربر ضغط فكيْه فإنه لم يكن يدري أنه يتخيله أمامه بسيف يطعن ثم يطعن في البطن في الظهر وفي الصدر ويضرب الرقاب ويقطع الأيدي ويبقر.

"– كنت لا تكتفي بالقتل. مثلت بجثث جنودي.

– كان يقال لنا لنردع غيرهم. لنردم أي شعور بالشفقة في نفوس الأتباع.

– كأي فعل عاديّ!

– كما الجماعة، كما أنتم، الغاية كانت بسط الرعب على الطرف الآخر!

– نحن!

– أنتم تتعلمون ذلك في أكاديمية.

– ثم نختبره ميدانياً مع أمثالك!“

قلص لحمر زغدان حاجبيه الكثين، مثل لحيته التي كان كولونيل الزبربر أمر بأن يُبقى عليها على غير العادة مع المقبوض عليهم من المسلحين الذين يحالون على العدالة، بعد التحقيق وقال، كأنه يسأل نفسه ”هل يعني ذلك أني صلحت لشيء ما؟“ فيما رن جرس هاتف من خلف باب داخلي.

على الخط، كان كولونيل الزبربر يستمع لزميل في الناحية العسكرية ”أستحلفك بالله، بالشرف العسكري! خذ لي حقاً من المجرم. ذبح أخي وصهري ومثّل بجثتيهما“، فطمأنه على أن جنود فصيلته هو يُغيظهم كثيراً أن لا يعاقَب المعني ”مهما تكن الإدانة التي تصدرها في حقه العدالة فإنها تظل دون ما يشفي غليل رفاق المقتولين وذويهم“. وبتأسف ”لسنا فوق القانون. إنما الظروف الاستثنائية تقتضي أفعالاً استثنائية“.

ها هو كولونيل الزبربر عاد فوجد لحمر زغدان في الخلال شرب، برشفتين، قهوة أحضرها أحد العرفاء. إنه يرده إلى سؤاله "أنت صلحت لشيء واحد: للخراب!" وطلب إليه "حدثني عن مشاركتك في عملية سجن تازُولت. يهمني أن أسمع وجهة نظرك".

الآن يحرر لحمر زغدان ابتسامة صريحة "فعلاً!" ثم، ها هو يتخلص من تحفُّظه على مخاطبة ضابط أمامه في لباسه الميداني لا يملك رقبته فحسب ولكن تاريخه كله في الملف الذي كان يستطيع أن يفتحه على أي وثيقة تدمغ أي إنكار له لأي فعل كان أتاه خلال مساره المسلح كله. إنه يجيب، مؤكداً بإيماءة من رأسه، فيما الرقيب أول مُحتد في غرفة التسجيل الخلفية يتابع بالصورة والصوت بجنب ثلاثة جنود متخصصين، عما كان فعله يومها "كنتم لا تجدون وسيلة أخرى، للتخلص من محبوسي الجماعة المقلقين الذين حولتموهم من سجون الحرّاش وسركاجي وتيزي وزو والشلف، غيرَ تنظيم ذلك الفرار. أدركت الخدعة بمجرد أن عبرت الباب إلى داخل السجن. كان بناية مدهشة حصينة منيعة بسورين وبنظام متطور لإغلاق المعابر وعزل للعنابر عن بعضها بعضاً. لم أر مثل سجن تازُولت إلا في الأفلام البوليسية. كل شيء فيه كان يوحي بأن أي محاولة فرار هي ضرب من الهلوسة، فكيف أجد كل

شيء مفتوحاً، حتى مخازن الأسلحة؟ كان أمراً مستحيلاً، على أي جهة من الخارج، أن تنجز وحدها فراراً جماعياً بذلك الحجم: ألف ومائتان! تخريب خيوط الاتصال الهاتفي وجزف أجزاء من بعض الطرق المؤدية، لمنع الإمداد، كانت ضمن مخططكم. خلال الملاحقة التي أعقبت، كنتم استطعتم أن تقضوا على ما لم تكن عدالتكم ولا مصالحكم الخاصة أن تحققه. ردمتم العشرات في مقابر جماعية. ومن بقوا وجههم عملاؤكم الذين دسستموهم. بعدها، صرت أسمع بالمدعو علّيش. لا بد أنه كان وراء كثير من الضربات التي تلقتها الجماعة في المنطقة".

كولونيل الزبربر يوجه إلى لحمر زغدان سبابة تذكير "وكنت أنت من بين من هاجموا السجن". فيرد هذا، ناشف النبرة "أنا وجماعتي، تدخلنا كمَدد. لما وصلنا بدا كل شيء انتهى".

عندها، قام كولونيل الزبربر، حاجباً بصدره صورة الرئيس خلفه "كل ذلك، كما تعتقد، لنمكّنكم من ترسانة أسلحة السجن التي استوليتم عليها فتديروها إلى صدورنا، ولنجعلكم تدعمون صفوفكم بأكبر المجرمين وأخطرهم؟ إن تكن المطاردة، تمت بتلك القوة والنتائج، فإنما ليدرك المدبرون والمتواطئون من داخل إدارة السجن أن محاولة إهانة الهيئة الأولى لحماية

الجمهورية كان لا بد أن تلقى ردعاً حاسماً"، وضغط على زر تحت حاشية سطح المكتب فنظر إليه لحمر زغدان على حيرة فاقعة.

الآن، يقدر كولونيل الزبربر أن يثبّت في ذهنه صورة لوجه لحمر زغدان وهو يقوم خارجاً نحو حتفه؛ ولكنه لا يستطيع أن يذكر إلى أي شيء كان نظر، كيف نظر؟ ماذا تَفكّر، فيم فكّر؟

وسيظل لا يعلم، ولم يكن يريد ذلك وقتَها، بأي طريقة كانت حياة أبو حفص أنهيث. كل ما كان علِمه عنه من الرقيب أول مُحند أن جثته ردمت في حفرة، داخل غابة الزبَزبر نفسها.

"هذا وظنك ولّا جيت براني ها راس المحنة لله جاوبني"

الفصل السابع

١

في الفراغ القاسي، هنا في الجنِينة، تُعيد الآن كولونيل الزبربر من سرَحانه، في تذكاراته العائلية، طلقاث الألعاب النارية الكثيفة القوية المتقاربة المتباعدة المتقطعة الوتيرةِ بانفجارات المفرقعات والشماريخ الذاوية هناك بعيداً في سماء الخامس جويلية، سُرادقاً لخيبته الصامتة، صدىً لأصوات الرصاص الحي متداخلة في ذهنه، كما يقول، بطقطقات نار الكانون، التي في البيت الريفي هنالك في الحاكمية، كان على وهجها عاود قراءة وثيقة استدعائه إلى مدرسة أشبال الثورة فتنهد حنيناً حتى قبل أن يغادر.

قبل ساعتين، قبل أن يخرج هنا إلى الجنِينة، نشر على طاولة المطبخ تلك الصور التي كان بدأ التقاطَها منذ نهاية سنته الأولى في مدرسة أشبال الثورة فلم يبهر أمه والعمة بالآلة فحسب ولكن أيضا بمربعات شريط النيڤاتيف التي غالباً ما عاد بها من مخبر التحميض في المدرسة واستعرضعها لهما في الضوء أو على نور الشمس "لا طاوس ولا ياسين ولا أحد غيرهما

في العائلة ملك صورة للوالد إذ ضمني، كما تقول الوالدة، ثم حمل سلاحه وخرج ليلاً قبل ستة وخمسين عاماً كيلا يرجع إلا صبحاً في أوله كانت أنهضتني على عجل من فراشي بجنبها وحضنتني شاهقة زافرة فرحاً!"

أشم الآن، من كلماته، رائحة المزيج الغريبة التي انبعثت له لحظتها فسكنته إلى الأبد.

ها هو ينشج "ولا شيء من تذكاراتي الدافئة بجنبك قد اضمحل حتى الآن أيتها الوالدة النبيلة، لا شيء. إن لم يكن أحد في ذاك الصباح التقط لي ولكم صوراً فإن الزمن تكفل بأن نقش المشاهد كلها في ذاكرتي".

ثمة، هو الطفل، ها هو يقف في حوش يتوهّمه ضاق عن أن يستوعب، إلى جانب الأم رقية، العمة ملوكة والجدة لالة صفية والجدّ سي المهاجي، الذي خرج الآن من حجرته في برنوسه الصوفي الأبيض وعمامته الصفراء المرقومة بخيوط مذهبة وحذائه الجلدي التقليدي الأسود، وقورَ المظهر شامخ الأنف، بهذه اللحية المشتعلة المخففة والنظرة السمحة اللتين للأولياء تغمرانك طمأنينة وسلاماً فتشعر أن جوانحك كلها حوّمت نحوه. وها قوة سماوية، في صباح هذا الأول من الخامس جويلية ١٩٦٢، تصيب كل قلب من

الواقفين بشعاع فرح. وها هو الحزن، برغم الألم، ينجلي عن العيون.

كم يشقيني أن أشعر بذاك الزمان ذهب! ليت وهجَه لم يخبُ!

وها هو ذاك الطفل ينظر إلى من يتخيله مخلوقاً خرافياً انبثق من هذا الصبح المتأجج نوراً يدخل عليهم وضّاحَ الطلعة فارتفعت زغردة قصيرة قوية تَمسّد صداها على جدران الحوش المطلية بالجير صاعداً إلى التلاشي، فأسند إلى جذع كزمة التين قطعةَ سلاحه من نوع ماص ٥٦ وبجانبها حافظةَ أوراقه الجلدية. كان الطفل رأى أيضاً مسدساً في حزامه – جلال، طفلاً مراهقاً وشاباً في مدرسة أشبال الثورة وطالباً في أكاديمية شرشال، عبر سلّم رُتبه من ملازم أول إلى كولونيل، ظل لا يذكر لجدته من أمر فائق الروعة مثلَ تلك الزغردة، التي سكن سمعَه رنينُها؛ كأنها تفصدت من عمق الأرض من تحت قدميه وسرت خارقة غشاء سماء الدنيا لينهمر الابتهاج.

مبهوراً بطلعة ابنٍ اكتملت له هالة الرجولة في الجبل، عصَر سي المهاجي دمعة: ها كولونيل الزبربر، مثلَ الزغردة، يذكرها؛ فالعمة هي التي، إذ سألها يوماً لماذا بكى جده، كانت بما ظلت تحفظه تلث، كما فاتحةِ الكتاب "طفتْ بقرى ودواوير وبَوادٍ غرباً وشرقاً فما

رأيت غير أشباح المرض والفاقة تفتك بآلاف الأرواح مرمية لقدرها، في بلاد الجزائر كلها، بلا علاج ولا دواء ولا تعليم ولا طريق ولا حاضر ولا مستقبل. أخذ منهم المعمرون كل شيء ورموهم إلى الهوان". وكان الجد سي المهاجي قال "نعم، يا ولدي، حانت ساعة رفع هذا الظلم. إن كانت تربيتي لك ستثمر شيئاً فإنه سيكون إرادتك وإرادة الرجال الأحرار في إزالة هذا الظلم. بعقولكم أنتم وأيديكم سيشرق صبحنا. اذهب، بمرضاتي وبركاتي"، راداً على ابنه مولاي إذ أخبره أنه قرر الالتحاق بصفوف جيش التحرير. كان ذلك بعد ليلة من مرور سي مفتاح ثمة بالبيت لآخر مرة.

سي المهاجي، الجد، يشهق ابتهاجاً لهذا الابن العائد بوقْع المجد بألوان الغابة كلها، متجليَ الفخامة في لباس الجندية. ها هو يحضنه. يشمه يستنشق منه روائح أشجار الزبَزبر وأعشابه، كما الحفيد جلال كان سيتنفسها يوماً.

وها عيون لالة صفية يُلألِئها الدمع؛ إن الابن العائد يأخذ الآن يديها الكريمتين يقبّلها على جبهتها؛ إنها تغمض كما في خشوع لصلاة. أمٌّ مثلها تكون رعَشت لصرخته الأولى، لرائحة بشرته اللزجة، لنبضات قلبه على صدرها بشفتيه في حلمة ثديها.

أعرف، أنا، أن أمي باية أحست مثل ذلك مرتين: معي، مع شقيقي ياسين.

وها هي الأخت ملوكة، بابتسامة نَديّة، اقتربت من الأخ العائد. إنها تحضنه. تنفصل عنه وتقبّل يده ثم تمسح دمعتين؛ وقد رحل بها حنينها إلى إشراق فرحته إذ ألبسته البرنوس الأبيض ليلة دخلته، على دوي طلقات البارود، كما كانت ستخبر ابنه جلال.

فمثل سنًا بزق، في سماء غائمة، يثلم ذهنَ كولونيل الزبربر الآن "أمي، ليس أمٌّ في الدنيا مثلك كريمة النفس زكية الصدر دافئة الحضن".

يومَها، تراءى له هو الطفل أن أمه ضغطت حواسها وركزت رجليها كيلا تفقد جاذبيتها لما تقدم منها والده، تحت نظرات أبويه وأخته الحافلة ابتهاجاً، فمد لها يديه فلامستهما على خفَر؛ منتهىً للشوق والصبر.

لا ينسى كولولنيل الزبربر، من حديث العمة ملوكة، أن أمه رقية عاشت، إلى يوم وفاتها قبل عشرين عاماً، مسكونة بلحظة السكوت التي أعقبت خروج أبيه مولاي في تلك الليلة تاركاً إياها لستة أعوام على ألم الفراق وفزع الخوف من المجهول فثار ذلك في صدرها غالباً كلما حلت ذكرى أول نوفمبر فعاودها ارتباك الحيرة والدمع المحتجَز. ليلةَ أوبَته تلك قالت له ذلك في الفراش. قال لها "كان قراراً لقتل الموت فينا". فقبل

الأعوام الستة تلك، كان حسم لها "أحببت لابننا جلال أن لا يعيش زمنه تحت الإذلال. أريد له أن يذهب إلى المدرسة. أن لا يُوقفوا مساره مثلي عند الشهادة الابتدائية!" - في تلك المدرسة عرف جلال الطفلُ الميزَ العنصري. لمسَ الفصلَ العزقي. ثَمة عاش مسلوباً من صفته الجزائرية؛ كان أبناء الأقدام السوداء هم الذين يتقلّدونها. كانوا همُ الجزائريين. وكان هو، كبعض الأطفال مثله، العربيَ تارة أو المسلمَ تارة أخرى، وكان صديقه أكلي بجنبه على الطاولة مثلَه غالباً هو "الأنديجان" أو القبايلي مرة أو البربري مرة أخرى. وكان مديرها، الآن يذكر اسمه: معطوب، يعرف ذلك. كانت نظراته تجاهه، من حين لآخر خلال الاستراحة أو الدخول، هي ما يطمئنه على أنه لن يُطرَد إن علِموا أنه ابن فلاقي فلاحقوا أمه. إنه لا ينسى ملاسة يد السيد معطوب الدافئة الوديعة؛ كان دعاه إلى مكتبه وصافحه على نجاحه في مسابقة دخول السنة السادسة. ذلك كل ما فعله معه من دون أن ينبس بكلمة. كان نظر إليه بحرارة، فحسب.

كولونيل الزبربر، وهو يتذكر الآن تلك العودة البهيجة، يبتسم لسحر بلاغة العمة ملوكة عن أمه رقية تقول لأبيه "سرحتُ إلى أرضنا تراءت لي أشرقت أقحوانات برية خِلتها تكون لوناً لدمك إنْ أنت كنت

ذات يوم قُتلتَ". فلا لغة أخرى، كما يكتب، كانت ستفي باختزال فرحة لا تضاهيها سوى مسرّة ليلة عرسها وقد عبّت بشرتُها عطر تلك الأرض.

ثم، ها هو ذا العائد يلتفت إلى هذا الذي كان تركه ذات ليلة صبياً غض البدن طافح الملامح براءةً ليجده استوى؛ إنه يقابله بغمرة ست سنين من الانتظار. إنه يعلن إليه، بوقفته المستقيمة الشبيهة باستعداد، أنه يبغي أن يصير رجلاً مثله على تلك الهيئة الماثلة قواماً وأناقة وقوة.

كولونيل الزبربر كان ذاك الطفل، الذي أخذه الجندي العائد من يده إلى جذع الكزمة وأخرج من حافظة أوراقه الجلدية قطعة قماش نشرها ثم حوّطه بها.

أنا مأخوذة، هذه اللحظةَ، بوصف ألوان الراية بياضاً للثلج وحمرة للأزهار وخضرة للشجر.

ثمة عند جذع الكرمة، قبّله على جبهته فنشق من أنفاسه عبير العرعار البري "على ظهر جلال الصغير كانت النجمة والهلال دمغةَ ختمٍ لسلالة المقاومين". كذلك، كما أخبرت العمة ملوكة، كان سي المهاجي قال لابنه مولاي وهو يرفع له الشهادة لحظة احتضاره تزامنا مع صوت رجل الجزائر القوي الجديد النابع من الراديو "لقد فُرض سوء تسيير التراث الوطني، وسلب الأموال العمومية، واللااستقرار والديماغوجية والغوغائية

والابتزاز وانتهاك الحريات الفردية وضبابية المستقبل، وُجد بعضنا يتعرض للخضوع وبعضنا الآخر للخوف وللسكوت والاستسلام" - كان ذلك في ١٩ جوان ١٩٦٥ يوم عاد المراهق جلال من مدرسة أشبال الثورة يقضي عطلته الصيفية الثانية.

راجعاً خطوته، هو الطفل، مزهواً عزةً بالراية التي تلبّسها، ساخن الجبهة، أحس ذراعيه تحولتا جناحين - بعد سنين، في إحدى عطله الأخرى من مدرسة أشبال الثورة، كان إذ دخل غرفة العمة ملوكة واجهته تلك الراية ملعقة بمسمارين على الجدار المقابل لباب المدخل فاستعد مؤدياً التحية. وكذلك بقيت إلى آخر يوم من حياة العمة ملوكة.

تلك الراية، كذلك ستبقى عندي، هنا، وحيثما ارتحلت.

يحس كولونيل الزبربر الآن نشوة غريبة "ما هذا الشيء الممغنِط الذي يعاودني برغبة في الرجوع إلى هناك، إلى الحاكمية؟ إنه يدعوني أنْ لا أقاوم!"

"وثفكّرها شاو فنين[47] كان صغيز شاغلَه في
جوفه فشهابْ ناز غزيز"

47 لَقا.

٢

كشيء سحري، يقول كولونيل الزبربر، يثور بحواسه رؤيةً وشماً وذوقاً كلما تذكر تلك العودة الاستثنائية لأبيه في صباح ذاك الصيف من عام ١٩٦٢: شجر العرعار!

والآن، للذكرى الخمسين هذه، ينهض فيه الطفل الذي كان لن يرى أبداً عسكرياً في لباس الجندية بخضرة العرعار كما رأى والده؛ حتى لما وقف هو ذاتُه أمام مرآة البهو في بزته الميدانية ذات اللون المنحرف المختلف! بزةٌ لم ينزعها عنه إلا ليلبس المدني خلال عطلاته القليلة القصيرة أو يرتدي بدلة الخروج الرسمية في حضور مناسبات تُوجب ذلك، كما في حفلِ تقليده رتبة كولونيل؛ ذلك ما كانت ستُظهره له صور تذكاراته من التلميذ الجندي إلى الطالب الضابط إلى الضباط إلى ضابط سامٍ، كلما أعاده حنينه الغامر إلى تلك الأيام؛ صورٌ رتّبها، في ألبومات داخل محفظة والده مولاي "يوماً ما ستُنزلها طاوس من رف المكتبة العلوي وتفتحها".

أعتبرها وصية. سأفعل ذات يوم.

لعله لذلك ظل ما مرَّ على شجر سرو، ذاك الذي كان ينقل ويغرس ززباً لحدائق الأقدام السوداء وجناناتهم ومزارعهم ولمقابرهم المسيحية في القرى وفي المدن التي غادروها في نهاية الحرب، إلا انتابه إحساس بأنه هو الذي أخذ من والده مولاي الكبرياءَ والصمت والوثوق وهذا الاعتداد الراسخ لطبيعة الجذور عند الإنسان نفسه "لا تنس بدء طريقك حتى لا تضل. كن أنت. كن لوطنك!" كذلك قال له ليلة سفره إلى أكاديمية شرشال. وكذلك عاود له بهمس "كن أنت. كن لوطنك"، إذ قرّبه منه شاداً على يده قبل أن يغادره في مستشفى عين النعجة وينزل أدراج البناية بهذا الشعور "المسارات كلها تنتظر دائماً من يستأنفها من جديد عند نقطة توقفها".

وفي سيارته عائداً إل الثكنة، فكّر لنفسه أنْ لا سبيل أخرى لاستمراره، منعاً لنهاية بلا معنى محتملة، غير مواجهة صورته، بعد انتزاعِها من مرآة أوهامه ليحطها عارياً في طريق، إن لم يكن قدره فأي شيء غيره ساقه إليها، ليسلكها بأوجاعه "رأيتها مفروشة دوماً بالنفاق السياسي والموت الرخيص والقتل المبرمج وغموض الغد فسكنني هذا الحزن على فقْد الرفاق، على التفريط التاريخي لرجال الحكم في تراثِ تحررٍ شكّله شعب بأكمله من دمه ومقدراته".

ذلك، لأنه ما انفك يشعر أنه ما حظِيَ إلا بقليل، قليلٍ جداً من العافية الروحية في حياته ومن هذا الذي لكثير غيره من العسكريين: شيء من الإيمان، مجرد إيمان ديني؛ هو عند بعضهم لباس تقية. وشيء من الشك، شك إيجابي، في علاقته مع ربه. كتب هذا، أيضاً "كلما ذكَرتكَ أحسست نورك أشرق في نفسي فبدد ظلمتها وطهّرها من عفَن الجشع".

إلهي، كم يُجمّلك في قلبي هذا الوالد الذي تغلّم أنه يحبك!

لم يلتفت كولونيل الزبربر، على ما يذكُره الآن، إلى عقيدة ما، سياسيةً كانت أو أخلاقية، غير تلك التي وجد عليها عائلةً حفظت ذاكرتُه منها ما كان لطفولته فيها قبل أن يلتحق بمدرسة أشبال الثورة: صلاة، هو الذي يصلي بمزاج – قال لباية، ذات عيد فطر "ما ذا ينفع ربي أن أقوم له من غير أن يكون روحي قادراً على استحضار وجهه؟" وصوماً؛ هو مَن راعى، كمتصوف، أن لا يتكدر له خاطر خلال رمضان، حتى وقد اضطُر، أثناءه، في أكثر من مرة، إلى دخول هذا الاشتباك أو قيادة حملة تمشيط فأفطر أو لم يفطر عند المغرب مع جنود فصيلته على أي زاد؛ لا تمرٌ ولا حليب ولا شُربة أو خريرة[48] ولا زلابية[49] أو قهوة.

48 نوع من الحساء بتوابل وبهارات، معروف في الغرب الجزائري وفي المغرب.

49 نوع من حلوى شهر رمضان التقليدية، معروفة في الجزائر وتونس.

وقارٌ أبيض!

فعقيدة العسكري هي التي ظلت تمنحه هذا الشعور بأن قدَره أوجدَه لتأدية ما لا يمكن لغيره أن يؤديه في قهر الشر. يقول إنه ردّد لوجهه في المرآة، قبل وقتٍ من خروجه إلى الجنينة، أنها خيارات الطبيعة أن تنتقي من البشر أيضاً من هو أكثر أهلية للبقاء؛ فكان عليه أن يرهن حياته لخياره حتى يقيم لنفسه توازنها الضروري.

"تلك كينونتي. هل من خيار آخر؟" كما يصرّ الآن "كنت رددت بذلك على باية إذ عاتبتني على أني لا أُفرد للعائلة وقتا أكبر". غير أنه سيظل لا يعلم، عدا تَيقّنه من حتمية موته، كيف سيُنهَى مساره. إنه يروم لذاته أن تقاوم رِيَبه الذابحة في نوايا تراتبيته العسكرية تجاه مصير دولة، وُلدث من الدم والخراب لتفتح عينيها على يتم فادح، أكان رجالها صادقين، لأنهم ما بدؤا إلا متذبذبين وغامضين "بايَتي الغالية، كيف كنت سأواجه ندوبَ مساري ورضوضَه وهذه الخيبة الروحية لو لم يكن القدر قيّضك لي لتكوني سعادةً نادرة لقلبي وعماداً متيناً لحياتي؟ ولكن ها أنا في غيابك أسمع قعقعة الانهيار في وجداني".

وما ظهر أمامي، أنا ابنته، إلا على هذه الكبرياء التي يلتحف بها النبلاء حتى في حالات ضعفهم القصوى.

لوحدته القاسية هذه، ها هو يتوهّم أنه يحدس أن أمارات نهايته ستنذره؛ إنه يعتقد أن إحداها ستكون سكتة أو جلطة، بعد أن تركته رفيقة عمره لقبضة هذا القنوط؛ فمن قَبلها غُدر به في ياسين: إنه يحسه الآن خلفه، أمامه وداخله في العقل والقلب وفي أعمق شعوره، كيف فقَده برتبة رائد - كان ذلك قبل خمسة أعوام إذ واجه في إحدى العمارات جماعة مسلحة محصنة بدزع من الرهائن.

قبل ساعة في غرفة ياسين! ها هو أمام صورته المعلقة في لباس قوات النينجا الخاصة، بوجهه المنحوت وعينيه الباسمتين. إنه يهمس له "دفاعاً عن شرف وطن مأزوم بخيانات الساسة". ويؤدي له التحية العسكرية، هو كولونيل الزبربر.

على الجدار الآخر، قابلته صورة أخرى نصفية بالأسود والأبيض: جبهة وضاحة بغرة يشبه شعرُها رأسَ نخلة "نسخة من جدك مولاي الحضري قَواماً. رزين مثله على وقار يُغيظ الموت نفسه" وصورة أخرى بجانبها "لا يمكن أن يكون لحفيد مثل ياسين إلا جد مثلك أيها الوالد الفارس!" - مولاي يبدو على حصان أدهم بالعمامة والبرنوس والعباية والخف راشقاً بيدٍ أخمصَ المكحُلة على فخذه واليد الأخرى في الرسن،

راجعاً من كرَة الطلق، وخلفه فرسان قوم العرش في مشية خَببٍ.

إنه يذكر أن ذاك كان في الزمن الجميل، يوم وغدة[50] سيدي الحضري جد قبيلة المهاجة. وأن تلك الوغدة كانت صادفت أواخر عطلته الصيفية قبل دخوله أكاديمية شزشال، وكان بلغ التاسعة عشرة.

[50] وتسمى أيضا زيارة تقام، بالإطعام وألعاب الفروسية، لولي صالح مبجل.

ثَمة في غرفتي أنا، يقول، تحرشت بقلبه دمعةٌ. أسفحُها، أنا، بشهقة.

إنه ينظر إلى الصورة النصفية في إطار بالأسود والأبيض، كما هي نسخة منها إلى اليمين فوق مكتبه "كذلك أحببتكِ. متفجرة البسمة ساطعة الجبين متلألئة العينين، ناشرة هذا الشعر غسقاً على وجه له وميض الفرح! طاوس، أنت فلْتة باهرة من باية الفاتنة!" ها هو يهرَب نظره "بعيدة أنت الآن في رقان". إنه يحس جسده يتلهف إلى هبة هواء نقية حيث مَهرب الروح "هناك وددت لو تلاشيت ذرات في رمل عِزق أدرار!" إنه يدري أنه إذ يخرج، بعد حين، لن يجد أمامه غير الجنِينَة.

برغم قرصات تلك التذكارات ها هو يستنفر عناده بدرجة أن يجلس أمام شاشة ومِزقن ليكتب، وفي

وجدانه هدير حلْمه أن يرى، قبل أن يغادر هذه الحياة، شارتي عدل وسلام تُجليان كل هذا الظلم والعنف.

"اهل السروخ في وغدة زِينا يَخْزجوا في يوم
الحيف عيناني[51]"

51 جِهاراً.

٣

إذ نزل كولونيل الزبربر إلى المكتبة غمره، من بين الصور، وجهُ العمة ملوكة – ملوكة عاشت في البيت العائلي هنالك في الحاكمية بَتولاً إلى مماتها بعد وفاة أخيها مولاي بعام وبجنبه دُفنت.

جلس على الأريكة الجلدية، كما إذ قابل العمة قبل سبعة أعوام بجانب نار الكانون الغازية لدى آخر زيارة لها إياه احتفاء بخطبتي تقول له "والدك، خويا مولاي، نشأ على استعداد دائم للتحدي. سيدنا المهاجي هو الذي علمه الركوب والرماية. لذلك لم يخطئ غريمه في النزال. كان معمر ولد القايد تحداه إلى ذلك. وأعلن للناس في السوق الأسبوعية أنه ينتظره. وأرسل إليه من أخبره أنه سيقتله في كل الأحوال إن لم يكن في الموعد".

لم يكن قاطع العمة بأنه كان علم شيئاً من ذلك على لسان الحاج محفوظ، لأنها واصلت "كان ذلك للفصل بينهما في الفوز برقية بنت سي المدني المعاشي، جدك الآخر. كنتَ ستعرفه وسيماً، مثلك. وكان سيحبّك لولا موته بعد زواج أمك بأشهر. أما جدتك لأبيك، أمي، لالة صفية فكانت البدر في ليلة صيف. ماتت قبل وفاة

جدك بثلاثة أشهر. أنت كنت في مدرسة القُليعة. حزن سيدنا المهاجي عليها فاق أحزاننا جميعاً. يوم عرس والدك كانت هي السلطانة الكبيرة. لن أنسى أنها أكرمتني بأن أُلبسه للدخلة برنوس جدك الأبيض".

كولونيل الزبربر يذكر الآن أنه إن كان كبار قرية الحاكمية الذين قابلهم، لما رجع في عطلته الأولى من أكاديمية شرشال إلى البيت العائلي الذي كانت الأسرة غادرته إلى مدينة سور الغزلان أشهراً بعد صعود مولاي إلى الجبل ثم عادت إليه قبل الخامس جويلية ١٩٦٢، تجاذبوا له عن مولاي بوزقزة ولد المهاجي تاريخاً قبل الحرب حدثوه عن رفع تحديه لمعمر ولد القايد غريمه في رقية بنت المعاشي.

ها هو الحاج محفوظ، آخر صديق لسي المهاجي كان لا يزال على قيد الحياة حينها، يصف له، عقب عشاء دعاه إليه في بيته، أن مولاي خاض ضد ولد القايد نزال موت كراً على جوادين نافرين متوثبين مرتعدي العضلات ترادّا صهيلاً؛ لإشارة الحكَم، أُرخي لهما الرسنان وهُمزَا فانطلقا، تَقدح الأرضَ حوافرُهما، شبحين أسودين للموت، من نقطة الأربعمائة متر الفاصلة بينهما، فثارت ذراع نقْعٍ من خلف كل واحد منهما كأنما لثنيهما، فيما سحب الفارس الأول، كما الثاني، من على ظهره البندقية ممسكاً على مقبضها بيد واحدة. فشُدت،

عند نصف المسافة، عيون الأشهاد، على جانبي الميدان، إلى مولاي إذ لوى الرسن سريعاً خفيفاً على مقبض السرج، وأمسك بيده الثانية أسفل الطرف الثاني لماسورة بندقيته، استعداداً للتصويب، مركزاً قدميه في الركابين قائماً كصقر محلق، فيما كان غريمه لا يزال على سرجه. وعند خط مسافة الخمسين متراً، المحددة لهما من الاتجاهين المتعاكسين، وجّه. كانت ذبابة الرؤية مع الهدف على خط واحد. دوت الطلقتان. لم ير مولاي، كما رأى الحاضرون، انفجار الدم من رأس خصمه. شاهد فقط، وهو يقاطع الحصان الآخر، جسماً ينقذف إلى الخلف متهاوياً في الفراغ على بعد أمتار وسط الغبار. فانفضَ الأشهاد ليعمر الفضاءَ صمتُ الموت. حدث ذلك أربعة أعوام قبل اشتعال حرب التحرير.

وقال له "كان والدك مولاي، وقتها، في التاسعة عشرة شاباً وسيماً قوياً وأحد فوارس قبيلتي المهاجة والمعاشة معا". سِنّ كولونيل الزبربر لما كان حينها سيبدأ، بعد شهور، التدرُّب على ركوب الخيل في إسطبلات وزارة الدفاع بملعب الخروبة.

لبعض ذلك تفطّر قلبه. أدمع لفراغ المقعد الذي كانت تجلس عليه العمة ملوكة قبالته. فقد فقدها هي أيضاً وبيده دلاها في قبرها. كان ينظر إلى كانون غازي ذي

مدخنة بلا نار، بحنين إلى حطب العرعار في كانون أمه رقية، له طقطقات البارود؛ إلى تلك السنين من طفولته الأخيرة في الريف قبل أن يُنزله والده مولاي إلى العاصمة ومنها إلى القُليعة ليُدخله مدرسة أشبال الثورة.

فهنالك في الحاكمية كان لمس خُزشة شجر العرعار وميّز رائحته التي هي لأي فحل. كان يلج مشارف غابة الزبَزبر الحاضنة سهل أرض العائلة ليصطاد بيض الحجل أو ينصب فخاخا للأرانب البرية، غالبا كلما عاد في عطلة ربيع أو صيف، قبل انتقاله إلى أكاديمية شرشال، ولم يكن عرف بعدُ أن العرعارَ لا يعيش إلا وسط مثل تلك الغابة منتشراً فيها بهيّ الصمت متجاوراً مع أشجار الصنوبر والضرو والقندول والكرَوش؛ كأنه جاء هكذا، وُجد هكذا، إن نُقل خارجها مات.

يكتب كولونيل الزبربر أنها المرة الأولى التي خلالها نظر من حوله بحثاً عن عرعارة توهَمها نابتة في الجنينة، لما أغرقته عزلته في لجة حنينه إلى طفولته العابرة هنالك في الحاكمية. ولذلك يقول إنه تذكر فهيمة، الأستاذة الجامعية، إذ قالت له لما سلمها الصك "تشبه شجرة سزو في هذا الشموخ"، فاكتفى لها بإيماءة إعجاب من عينيه. كانت تعتقد أنه لا يعرف عنها أن والدها بنحامد حارسٌ لمقبرة مدينة عنابة

للنصارى المسيجة بالسرو داخل سور حائط بناه سجناء سياسيون من بينهم جدها محبوسون مع مجرمي الحق العام. كان أخوها مرزوق، ربما لن تعلم ذلك أبداً، وجد نفسه في ثكنة أمام نقيب شاب يستنطقه في مكتبه بوحدة الاستعلامات المضادة للتخريب عن دوره التحريضي في توجيه الإضراب الذي شل مفاصل مُجمّع تكرير البترول في مدينة سكيكدة. وكان قال لذاك النقيب في مكتبه في نهاية فترة حجزه الإداري "أخرج من هنا بأمل أن يكون في هذا البلد رجال كثيرون مثلك، يا حضرات".

كانت المعلومات التي تتضمنها الاستمارة الأمنية، بين يدي النقيب عن مرزوق بونور تخص أباه بنحامد أكثر مما تعنيه هو؛ كاعتقاله بتهمة مناهضته زعيم انقلاب ١٩ جوان ١٩٦٥، مع ثلاث فقرات بالبارز عن عمليات فدائية نفذها قبيل نهاية حرب التحرير: تخريب السكة الحديدية. قتل متعاونين مع قوات الاحتلال. زرع قنبلة في قاعة سينما رداً على عمليات المنظمة المسلحة السرّية، التي كانت بلغت أوج شراستها الانتقامية.

كان وجه مرزوق الهادئ الصارم هو أيضاً ما كبّل النقيب عن أن يطرح عليه أي سؤال. كل ما فعله أنه

نادى رقيب المداومة ”هيئوا للسيد مكاناً حيث ينام. وقدموا له الوجبات الثلاث. تنفيذ!“ ثم طوى الملف.

فإن النقيب، لِما سببه له أمر النقابي مرزوق بونور من صداع وأرق، كان أدى التحية لقائده المقدّم نعيم رزاز في مكتبه ثم قال له ”سيدي، شرفي العسكري يخجلني. لا أعتبر شن إضراب لوقف عمليات تمرير شحنات من الغاز والنفط، غير خاضعة للرقابة على وجهتها خارج البلد، عملاً تخريبياً. جئت ألتمس منكم توجيهي إلى القطاع العملياتي“.

كان النقيب لا يتصور أنه سيصبح يوماً كولونيل الزبربر ولا توقع أنه سيعرف لمرزوق بونور أختاً تسمى فهيمة.

هنا في الخِنِينَة، ركبة على أخرى، في كرسيه الطويل، حق له أن يسأل نفسه الكئيبة، بمرارة العرعار في الحلق ”ألم أكن في درب حياتي العسكرية، غير واحدة من أشجار السرو البشرية لكسر أي ريح تهب على مصالح هؤلاء الذين يتقلدون المسئوليات بروح المتعاونين التقنيين الأجانب؟“

إنه يقول إن قلبه ينبض، ينبض ”ولكن لماذا بهذا الجنون!“

”هذا وظنك ولّا جيت برّاني يا ظريف المحنة لله
جاوبني“

٤

هنالك في تِندوف، أقصى غرب الجزائر إلى الجنوب، حيث مؤلدُ الفراغ ومعقلُ الضياع وهولُ أشباح الجنون المترصدة أن تأخذك إلى العدم ويدٌ نارية من فوق رأسك تصبّ عليه لظىً رصاصيّاً ومن تحت قدميك ومن حولك أنفاسُ جحيم ظمآى تستعجل امتصاصك، كان كولونيل الزبربر، كما وصف، رابطَ برتبة نقيب على حدود متحركة، برغم صرامة الطبوغرافيا وقوانين الأمم المتحدة غير القابلة للمراجعة، وسط الريح والقيظ المتناوبين على إتلاف كل أثر وصهر كل علامة.

إنْ حدث، كما الآن، أنْ طفا إلى سطح تذكاراته عن تِندوف، فأجاءته عزلته إلى معرض ماضيه، تذكر ليلة الخامس عشر من فبراير ذاك الشتاء الساخن على غير العادة إذ ترك وراءه فظاعة الموت: بالسلاح الأبيض بالكواتم، من النوم إلى النوم، من الفجأة إلى الفجعة، من الصوت المخنوق إلى الحشرجة ومن هذه الطلقة الأحادية إلى الثنائية إلى هذه الصيحات الهائمة في قلب الليل إلى الصمت النهائي الذي استسلمث له حامية أمقالا.

كان يقود دورية إسناد ليلية إذ باغتت أضواءُ مزكبته المتقدمة أشباحاً بشرية صدرت منهم طلقات مبعثرة، سرعان ما أسكتها رشاش دوشكة منصوب على ظهر السيارة الثانية في الرتل. فارتفع له بالاستسلام صوت ذو لكنة غير غريبة. برغم ذلك، أمر براديو الاتصال أن يواصل إطلاق الرصاص على ارتفاع يجنب الإصابات، فيما تقدمت مجموعة من جنوده فحاصرت الموضع.

وسط أضواء السيارات المتقاطعة المحيطة، قام رافعاً يديه جنديٌ كان هو القائد، بدت هيئته لشخص عائد من غياهب الموت. كان جنوده التسعة الآخرون، الذين نهضوا من انبطاحهم، في حال إعياء قصوى، متحملين بالكاد أدنى ما يفرضه الاستعداد العسكري وواجب الشرف. كانوا فارين من جحيم أمڤالا الثانية.

لكولونيل الزبربر، الآن، أن ينسى من الحادثة كثيراً من تفاصيلها إلا عبارة ذلك الجندي المقتضبة "أمامك الملازم ذريس، حضرات"، ثم سلمه مسدسه مقلوباً. وحرّك يده تجاه جنوده المنهَكين لوضع أسلحتهم. لم يكن في حاجة إلى كلمات أخرى. فلو فعل، وكان ذلك شعورَهما معاً، لفاحت رائحة هزيمة طرَف، في الأصل ليس عدواً. كل ما كان في الأمر أن أمڤالا أولى رُد عليها بأمڤالا ثانية. كان ذلك نهايةً، لحرب الرمال، تأخرت بثلاث عشرة سنة.

في الخلال، قدّر النقيب لنفسه أنَ أخذ قرار فوري حول الحادثة يخرج بالكامل عما هو عسكري إلى السياسي. وبرغم ذلك، لأنها وقعت على خط تماس حدودي، كما تَبيّن له عند الفجر، حسب الدليل، واعتماداً على بيانات خريطة الأركان، استدعى الملازم ذريس.

"– أمامك النقيب جلال.

– احتراماتي.

– كان يمكن أن نُبيدكم.

– انحرفنا عن المسار، فحسب. كنا في حال انسحاب.

– لو رجعتُ بك وبجنودك إلى مقر القيادة اعتُبرتم متسللين، وهو أمر لا أحبّذه لكم.

– أتفهم الموقف. ولذا، لا أعدّ نفسي أنا وأفراد مجموعتي أسارى.

– وكيف تنظر إلى الحادثة؟

– مجردة من أي اعتبار عسكري أو سياسي.

– ذلك ما سأعتبره".

ثم تصافحا على شعور بفيض مودة منسي تفجر فجأة من عمق الإنسان في كل واحد منهما؛ شعور كان سيقودهما إلى جلسة شاي، إلى مائدة كسكسي، إلى رحلة هناك في التل. ففي نظرة أحدهما إلى الآخر سطع توهج حنين غامض، كالذي لعبد الكريم الخطابي، كالذي

للعربي بن مهيدي، كما كان لجندي من الأوراس، من الأطلس، رابط في سيناء قبل ثلاثة أعوام.

كان قرص الشمس قد تبدد سطوعه الجلّناري في السادس عشر من شهر فبراير الكئيب من سنة ١٩٧٦، لما توقف الملازم ذريس ودار خلفاً، فيما كان أفراد مجموعته بأسلحتهم يختفون تباعاً خلف كثيب رملي، ونظر إلى النقيب جلال من ورائه ثلاثة من صف الضباط. فرفع إليه يد سلام، كما في توديع. فأشار نحوه بمثلها وتولى نحو عمق المغرب شمالاً ملتحقاً بجنوده.

ثمة، في تِندوفْ، في العام نفسه، قلّد العقيد نعيم رزاز، قائد الناحية العسكرية الثالثة، النقيب جلال شارة رتبة الرائد، ناطقاً كأنه يكلم شخصاً آخر خلفه "أنت أصغر ضابط سام في هذا العمر يحمل على كتفيه شعار الجمهورية: النجمة والهلال ويد سلام". كان ذلك في يوم كهذا من الخامس جويلية الذي يجلس فيه كولونيل الزبربر وحيداً.

ها هو يتذكر أنه في تلك اللحظة نفسها صعق ذهنَه ومضُ من وجه العقيد شعباني؛ لحظة بدّدتها نقرات الفرقة النحاسية على الطبول. وليلاً، في فضاء طلْق، خارج الخيمة، على سرير ميدان، في مهب ريح من الشرقي خفّ لفحُها، رسمت له النجومُ بين الدبّين، أو

هكذا تخيل، قبعةَ العقيد شعباني، فتشكلت له خطوط وجهه الهادئ، كما حفظه له من صورة قدمها له والده مولاي، عقب عشاء عائلي على شرف تخرجه من أكاديمية شزشال، لما كان جاذبه الحديث عن تصفيات حرب التحرير وما بعدها.

– "الثورة، قطة تاكل أولادها". هكذا كنا نسمع.

– ذلك كان هو اليقين السائد بيننا.

– التهمث كثيراً ممن فجّروها وقادوها.

– خلالها، كان عبّان رمضان أشهر ضحية لها. بعدها، جاء الدور على محمد خميستي ثم محمد شعباني، أصغر ضابط سام برتبة عقيد في صفوف جيش التحرير".

نظرة العقيد شعباني، الملقاة نحو أفق بعيد، هي التي لا تزال تشد كولونيل الزبربر إلى ذكراه "كنت لما حدّثت باية هنا في الجِنِينَة قلت لها إن أنا مت يوماً فلبعض الحزن أيضاً على إعدام عقيد حرب تحرير بيد إخوة له، عمره ثلاثون سنة". تقول "شعباني، راح ضحيةً لأخطاء الاستقلال". يهز رأسه "ولنزوع الاستحواذ على السلطة دون اقتسام، أيضاً، ولأسباب أخرى أكثر خطورة سيعرّيها التاريخ".

كنت أنا أيضاً، في المكتبة، رأيت صورة ذاك العقيد الباسمة لفيض الأمل.

”خلفوا منك شي نقمات دزث العيب اغييث ثعافز
لا جبرث اخبيب[52]“

52 معناه: انتقموا منك لعيب أتيته. قاومت فلم تجد مُعيناً.

٥

البارحة، في مكتبته، يقول كولونيل الزبربر، كان عاود إخراج ما يشبه التقرير في خمس ورقات مرقونة مصنفة ضمن "سرّي للغاية"، هو من بين ما سلمه إياه الجنرال نعيم رزاز. نشرها أمامه على الطاولة فكبسه الصوت الليليّ نفسه؛ صوت قاضي المحكمة العسكرية الذي ما أن نطق بالإعدام في حق العقيد محمد شعباني، بعد خمس عشرة ساعة فقط من المداولات ما بين الثانية عشرة زوالا والثالثة صباحاً، رداً على وجه الاتهام بالانفصالية والتمرد على سلطة الدولة ورفض تنفيذ أوامر عليا والخيانة العظمى، حتى اتصل هاتفياً أحدُ المستشارين برئيس الجمهورية (الرجوع إلى التسجيل).

– سيدي الرئيس، نزل الحكم، كما ترضون. الآن، الرجاء عفوكم عنه.

– لا بد أن ينفَّذ قرار المحكمة، هذا الفجر.

– سيدي الرئيس، سي محمد، كما تعرفون، رفيق درب. تاريخيه الثوري في الولاية السادسة كله مجد.

– أنتم لا تطلعونني على شيء جديد.

– إنه أصغر عقيد يفخر به جيشنا الوطني.

– ولذلك أخذته العزة بالنفس.

– سيدي الرئيس، نحن نعرفه جيداً. هو منبعُ فضيلةِ التواضع.

– ما ذا يعني هذا الكلام؟

– لا شيء، سيدي الرئيس.

– وبعد؟

– أطعنا الأوامر بأنْ نُدينه بأقصى عقوبة. فَعلْنا. الآن نلتمس منكم تخفيف الحكم عليه بالموت إلى عقوبة السجن المؤبد.

– نفّذوا الحكم. هذا أمر!

– سي محمد لا يستحق. كان حليفكم في خطواتكم باتجاه العاصمة.

– تروخ تشوف يَمّاك واش راهي تعمل!

– سيدي الرئيس!

– إياك أن تعاود الاتصال.

قبل أيام، في بسكرة مع مبعوث خاص رفيع المستوى.

– حضرات، ما الذي يمنعك أن تكون في العاصمة، في قلب الأحداث، كمسئول في هيئة الأركان؟ أكثر من هذا، أنت كنت مقترحاً لمنصب وزير الدفاع.

– لن أفرّط في ما أنجزته في هذه الناحية. ولن أقبل بأن ينتزعوا مني منطقة بسكرة. ولن أرضى بأن يلغموا

هيئة قيادتي هنا بضباط يرسلهم أحد القدامى في جيش العدو سابقاً.

– هذا يسبب لك متاعب مع وزير الدفاع.

– ذكرت له، لما التقينا في فيللا جولّي، أسماء الضباط الذين يغطي على تاريخهم ضمن الجيش الفرنسي في الحرب العظمى الثانية وفي الهند – الصينية ومن تكوّنوا في مدارس فرنسا الحربية. وقلت له إنهم هم الذين يعتمد عليهم الجنرال حالياً ومستقبلاً.

– حضرات، أنت تعرف أن مجموعة "الفارين من الجيش الفرنسي" خاصة الشبان منهم ليسوا جميعاً مدسوسين.

– وأعرف كثيراً منهم استشهدوا وأسلحتهم في أيديهم. أنا لا أقصد هؤلاء.

– لعل لوزير الدفاع خطتَه في استعمال تاريخهم ضدهم.

– لا أحب الابتزاز. وإن فعل فإنما ليقوّي بهم مركز سلطته نحو طموح أكبر.

– حضرات، لا هو ولا الرئيس صارا ينظران إليك بعين الرضا. يجب أن تحذر.

– جمعت وثائق تثبت أن أولئك الضباط هم من اختارهم الجنرال، عند شعوره بأن فرنسا فقدت الجزائر نهائياً، ليكونوا خلفاءه تُحرّكهم مصالح دولته.

– حضرات، مثل هذا المسعى سيعرض حياتك للخطر.

– لا أهتم ما دام ذلك من أجل بناء جيش وطني على أسس أخلاق الثورة، بدم نقي، بقيادات متعلمين من الذين كانوا يحملون السلاح هنا في الداخل، وليس بطغمة أولاد القِياذ والباشاغوات أصحاب "القشّور"[53] وبرنوس وبر الجمال، ولا بضباط سلك "الشبايَس"[54]، ولا بالموالين لفرنسا أباً عن جد، ولا بالفارّين من صفوف جيشها أو المطلَق سراحهم من سجونها في مهمات تخريب، ولا بالذين "توسّطوا"، خلال الحرب، بين بعض الولايات وبين الجنرال لتقسيم وحدة قيادة الثورة؛ لأننا لما قمنا ضد فرنسا الاستعمارية إنما فعلنا ذلك أيضاً من أجل القضاء على فتنة المتواطئين معها. فكيف يتقارب وزير الدفاع، إلى درجة التحالف، مع بعض أبناء أولئك "ال–مَطَوْزنِين"[55]؟

53 نوع من العمائم الجزائرية كان يعتمر بها علّية القوم، من الإقطاعيين خاصة.

54 سلك الخيالة، تابع للجيش الاستعماري، من الأهالي خاصة.

55 المرتدين. وتعني أيضاً من تجنسوا، من الجزائريين، إبان الفترة الاستعمارية.

– حضرات، أتفهّم.

– من أجل ما ضحى من أجله الرفاق، لن يُثنيَني أي خطر.

– حضرات، لكن يجب أن لا يتحول الأمر إلى هوس.

– كيف؟ أحدُ أولئك الضباط هو الذي ألّب علي مرءوسيَّ هنا في ناحيتي. لو لم تكن رفيق درب لقلت إنك منهم.

– لا أفهم لماذا هُم على هذه الشراسة تجاهك؟

– لأني رفضت أن أرسل وحداتي للقتال ضد رفاق الكفاح في منطقة القبائل. قلت للرئيس وقائد الأركان إن الوضع يستدعي حكمة وتعقلاً وحلاً سياسياً. ثم، لأني أدنث حل جمعية علماء كان رئيسها شيخي.

– حضرات، يقال إن رئيسها الجديد أصدر بياناً اتهم فيه رئيس الجمهورية بموالاته للسوفييت.

– هراء. الرئيس، كغالَة ديك توجهها الرياح في اليوم سبعين وجهة. لم أحب فيه هذا الاستعلاء الفجّ على شخصيات سياسية وثورية كبيرة. إنه شخص مهووس بنزعة الزعامة.

– حضرات، أنت منفعل.

– حلّ الأحزاب والجمعيات. ضيّق على الشباب. ملأ السجون بذوي الرأي المعارضين وأمر بنفي كثير منهم. لا! الجزائريون ثاروا ليتحرروا.

– حضرات مثل هذا الكلام قد يصله إن أنت عاودت ذكره في مجلس آخر. أخاف عليك.

– إن كان الأجل بيده فليأت. تلك من قناعاتي وأنا لم أخفها حتى في فيللا جولّي، حيث أمسى حضوري مزعجاً جداً.

– ولكن الآن يأمرك الرئيس بالالتحاق بالعاصمة.

– لينتزعوني من جذوري هنا؟ أنا سأرفع السلاح من جديد في وجه الدكتاتور.

– يا حضرات، أنت تؤكد تهمتهم الملفقة في حقك. إنهم يكتبون في تقاريرهم ويُشِيعون أنك تبغي الانفصال عن الشمال لتستولي على البترول.

– بل إن الرئيس الآن يكون أصدر مرسومه بتجريدي من رتبتي. وأمضى وثيقةَ أساسِ اتهامي بمؤامرة الانقلاب. وأعطى أوامره بإلقاء القبض عليّ. إني أرى مصيري أمامي، مثل شريط. كثير ممن أُدينوا من قبلي أُعدموا. قبل ساعات كنت صرخت في أذنه، عبر الهاتف، أنه لم يتعلم من السياسة سوى الوقاحة؛ كأنه رجل شارع.

– حضرات، إنهم في الخارج ينتظرون منك رداً يطمئن على أنك طويت الخلاف بينك وبين الرئيس.

– عبّر لهم، حين تخرج، عن احترامي وتقديري. ولكن قل لهم أيضاً أن يَعلموا أني أنتظر من الرئيس أن يُظهر لي أنه يستطيع أن يستقر على رأي واحد لمدة يوم واحد فقط.

– أنا الآن وحدي. ومرتاح مع ضميري، لأني قررت أن وحداتي لن تقاتل ضد الجيش الوطني لأنها جزء منه.

– لكن المسألة، حضرات، تتجاوز الحد العسكري.

– أعرف ذلك.

– لن أزيد أكثر.

– ثقتي في عدالة التاريخ قوية.

في طريق تحويل العقيد شعباني إلى السجن، بعد إلقاء القبض عليه.

– لا أحمل سلاحاً. هل أخيفكم إلى حد أن تكبلوني؟

أما الطريق فإني كنت أعرف أدق تفاصيلها. أحسستها كيلومتراً كيلومتراً. ورأيت استواءها ومنعرجاتها وحُفرها أيضاً من وراء هذه العصابة من بِسِكْرة إلى الجلْفة.

– ها إني أنزعها عنك. هل عرفتني أنا أيضاً؟

– آه، ڤيڤي الذائع الصيت! المساعد سابقاً في صفوف جيش أسيادك.

– وأنا، لا بد أنك تعرفني أكثر.

– أنت، يقال إنك جُرحت خلال معركة فألقي عليك القبض فداوَوْك ونظموا فرارك من السجن ليعيدوا ضخك كسمّ في جيش تحرير بنيناه من لحمنا ودمنا.

أعرفك من تكون، أيها الضابط. وأعرف من كلّفك المهمة.

– تعني أني ممن تقول عنهم "ال–مَطْوْرنِين وأبناء باريس"؟

– لأننا نحن أبناء ابن باديس.

– أنا، فعلاً، واحد من أولئك يا ابن راعي الإبل. وأنا كلفني السيد الرئيس. خذ هذه. تريد أن ترى دمك الذي لم يسل خلال الحرب.

– تستطيع أن تضرب مزيداً وبقوة أكثر.

– لن تأخذني بك شفقة.

– أعرف إنسانيتك مع الرفقاء الذين كنت تشرف على تعذيبهم قبل أن تعدمهم، بتهم واهية.

– كم واحداً من قبيلتي قتلتَ؟

– أغلبية الخونة منهم.

– وهذه واحدة من تلك الركلات التي كان يتلقاها في حجورهم رفاقك أولئك، يا وغد. وهذه أخرى.

–...

– أنت يا ڤيڤي مكلف، مع جنديين، بإيصاله حياً حتى وهران، سجن سيدي الهواري العسكري تحديداً. ثمة سيكتشف شيئاً من علامات تاريخ القرون الوسطى. هو مثقف جداً. وثمة سيشم روائح أخرى من ضَلالة العتمة.

لولا أني سمعت من قبلُ عن عقيد اسمه شعباني، ورأيت صورته، ولم أعرف مصيره بهذه الدرامية، لاعتقدت ما قرأته عنه الآن تخييلاً تجدر به رواية.

”هذا وطنك ولّا جيت برّاني يا غريب المحنة لله جاوبني“

الفصل الثامن

١

كلمعات الشهب الذاوية، في سماء هذه الذكرى الخمسين، تتناءى في ذهن كولونيل الزبربر صورة محمد شعباني. هكذا وصفها. إنه يغمض عينيه على ظلمة قفر. يقول إنها صورة طالما عضّدت له كبرياءه هو لمواجهة موته، إذ يوماً كان كُتب عليه أن يقع في نزاع مع قيادات مؤسسته العسكرية.

قبل ثلاثة أصياف، كان قال لصديقه الجنرال المتقاعد نعيم رزاز، جالسين في سقيفة فيللته على شاطئ موريتي يحتسيان شاياً بالنعناع.

"– غالباً ما لفّقوا لمن عارضهم تهمة التآمر فأدين وصفّي.

– أنت لا تهتم بالسياسة. ولا تطمع في السلطة. أنت عسكري. ولكني أعرف همّك جرّاء حماقات الساسة.

– غالباً ما شعرت باللاجدوى من مأمورياتي الأمنية.

– لأنها بلغت درجة العبثية؟

– كم أسأمتني إطالة المشهد! غالباً ما أحسست أنه يمكن الضغط على زر لتضاء الخشبة ويتوقف التمثيل.

– بل يمكن إلغاء المسرحية أصلاً.

– أفكر أحياناً أنه في المقدور أن يُخرَس وإلى الأبد أولئك الممثلون الحمقى الذين يعتقدون أنهم ولدوا ليؤدوا أدوار منقذي الإنسانية الجدد.

– جماجمهم مترعة بوهم الخلافة.

– ولكن كيف يقبل ساستنا الشرهون الشبقيّون بإخراج مسرحي باهت مقزز حدّ الغثيان؟

– أولئك زينة الواجهة. أنت تعلم هذا.

– يُفسدون العيشة ويلوثون الحياة.

– اهتم بصحتك. حافظ على حياتك. أنت مقبل على ترقية، يا حضرة الكولونيل.

– شكراً لهم. عند هذا الحد يتوقف كل شيء بالنسبة إلي. سأطلب إعفائي".

إذ عاد إلى البيت، حدّث باية عن محاورته مع الجنرال؛ في الجُنينَة حيث يجلس الآن، ولكن بعيداً قليلاً، هناك على العشب بين شجرات الليمون والبرتقال والكرز، على مائدة عشاء من مقرونة معطرة برائحة زيت الزيتون المعصور على البارد وبالهريسة البلْدية، كما أحب أن يأكلها من يدها العامرة الجميلة؛ فكلما كان مزاجه رائقاً قبّلها وأثنى عليها، كما عادته، لهذا الفعل أو ذاك. قالت له.

”– الجنرال نعيم أثمن صديق لك ولعائلتنا. لم لا تنتظر قليلاً، كما نصح لك؟

– باية، عزيزتي. تعرفين، أحالوه على التقاعد مرغماً، لأنه تحفظ على سياسة الرئيس تجاه الأزمة الأمنية. لا أحب أن يخرجوني من النافذة.

– أنت أكبر، يا رفيقي“.

قبل عامين، هنا في الجُنينَة بلباسه المدني: قميص قطني وسروال جينز وحذاء وجوارب لنهاية الصيف، كان استعجل باية على العشاء، بدفْق من اللعاب. وتساءل لها أيكون طبق الشباڤيتي ألذ من ذاك الذي تناوله في أولى ضيافة له بعد زواجهما عند والدتها– كانت مع زوجها قضت في حادثِ تَسرُّب للغاز في قرية أم طبول الحدودية شرقاً.

فعلى بقية من الأكْلة في الصحن بينه وبين باية بنكهة من مزيج الهريسة والفلفل الأخضر والحار والثوم والطماطم ولحم الدجاج وزيت الزيتون والقمح في فمهما، وقد قبّلها اعترافاً، قالت له ”أنت تذكر! كنت أنهيت دراستي الثانوية. لكني لا أندم على أني لم ألتحق بالجامعة. أعطيتني ما عوضني عن ذلك وغيره: طاوس وياسين – آه لقلبي على ياسين! وكنت أنت في لباسك العسكري بنجمتيك على كتفيك تغمر أمي

كولونيل الزبربر. غُلبت. كانت معركتي معك قصيرة. وكم كان استسلامي بديعاً ولذيذاً! كل شيء تم في تلك الحملة التطوعية. كنت أشعر، خلال عملية نقل الفلاحين الفقراء من أكواخهم إلى تلك القرية الفلاحية الجديدة، بسعادة الدنيا وفرحة البشر تغمرانني".

ثَمة، حينها، تَعرّف هو ضابط الثورة الزراعية على باية الطالبة في الثانوية. بَهَره حماسها. أسَره جمالها. كان في السيارة، جنب سائق الإدارة المحلية وخلفه الجلالي مصور وكالة الأنباء، وراء شاحنة أخيرة مكشوفة تُقلّ عائلتين فلاحيتين من كوخيهما، ضمن موكب مركبات، إلى جانب طالبين جامعيين بينهما باية، وسط أطفال، خمسة، ضنّوا بفرحهم على الطيور المتلاعبة هنا وهناك على جانبي الطريق وبعيداً أو قريباً وسط الحقول، تُباسِم حيناً أو تُكلّم حيناً آخر إحدى المرأتين في الملاية السوداء، على التفاتات زوجيهما مرة ورُنوّهما مرة أخرى إلى الأمام. كانت مئذنة المسجد أولَ ما ظهر لهما من القرية النموذجية. حينها، كان أحدهما تذكر للآخر "يلزمني أن أغتسل من جُنُبي".

كانت الطالبة باية منصوري في القميص الأبيض المفتوح على صدرها وسروال الجينز، نَسخاً من الكاهنة[56]، كما تخيلها ضابط الثورة الزراعية أمامه، منثورة الشعر النحاسي الأجعد، محلقة الروح، أخف من

تلك الحمامة تتقدم سرباً تهادى هناك مثل مجموعة رقص جماعية.

56 ملكة ومحاربة أمازيغية، من منطقة الأوراس بالجزائر (القرن السابع ميلادي).

منتصف ذلك الصيف، كانت باية، تلك، أجمل من أي طالبة وسط دخان القنابل وخراب الشوارع هنالك وراء البحر في قلب باريس قبل سبعة أعوام. فمثلَ قرص شمس، انسلّ من صبحه، كان إشراق وجهها الأمازيغي يتموج. كانت هي السحرَ الذي لن يستطيع له كولونيل الزبربر فكاكاً، أبداً.

”الآلة منصوبة والوتر نْغامْ الشمعة وقّادة الناس بها سهارة“

٢

من غور تذكارات كولونيل الزبربر، من ظلمة حزنه، تأتي كلماته ”باية! مؤلم، مؤلم لي أنك تتركينني وحيداً لشقائي الأخير. وأنتَ يا قدر، لماذا أنا؟“

أتوهمني أسمع الآن صدى نحيبه، كريح تنتحر.

ها هو يتفجع أنه يرى كلّ شيء في الفيللا صار يبدو له متحالفاً يحاصره، يذكّره بما لن تنفع معه، لنسيانه، جميع ساعات قراءاته وكتابته اليومياتية، هذه، واستماعاته للوعات البار عمر، لعيسى الجرموني، لِحَدّة بقار، للعنقا، لفضيلة، لحمَادة، لخليفي، لوهبي[57]. أو أن تُجدي معه أوقات عنايته بنباتات الجُنِينَة وأشجارها ”ما ذا أُتلف، على ما ذا أبقي؟ لو أني أبخست كل شيء! ولكن إلى أين الرحيل؟ أغيب حتى لا يتعقّبني، مثلَ ظلي، طيفُ باية، في الحمام، في الرواق في غرفة نومي التي هجرتها إلى غرفة طاوس، في وجه طاوس ذاته، في صورة ياسين، في كل غرفة؛ في الشرفة المطلة على خليج الجزائر الخالب هلالاً من الأنوار، على حافتها أطوّق خصرها“. متكئين على مرفقيهما يتأملان رقصة باليه أضواء السفن الراسية على صفحة البحر، بعد أن كان في المطبخ، أخذها من خلف وفرَق شعرها

الأجعد المثلوم الصفرة بخيوط بيضٍ، ودغدغها بطرف لسانه على قفاها.

57 مغنون ومغنيات جزائريون مشهورون.

إني أنصعق! أجل، أبكي.

لمن يرفع نحيبه إن لم يكن لباية؟ هنا في البيت في الجنينة خلال أيام الصفاء ولياليه، كان، تقابله أو بجنبه، يروي لها ساعات من أيامه في الزبَزبر؛ فحدّثها عن تَنادي اليمام، ومشي الحجل وأعشاشه وبيضه المنمش، ونظرات الثعالب المترصدة عن بعد في حذر وصمت وتأهب، وعيون الذئاب ليلاً، ومهرجانات الحشرات في ليالي البدر التي تغدو خلالها ظلال الأشجار باهتة خفيفة غير مستقرة، وهطول المطر الصاخب، ونزول الثلج الضاحك في صمته الجليل. وأعاد عليها لحظات حنينه إليها إذ تحاصره هواجس الموت كلما دخل الغابة، قبل أن يأفل عنه وجهها إذ يستعيد كونه بين أفراد فصيلته، هم أيضاً قد يلقون حتفهم، جميعاً أو بعضُهم، في كل حين، من غير أن يكونوا أكملوا حلمهم بأنهم قد يلتقون من جديد حبيبة أو زوجة أو أماً منتظرة، إثر كل مهمة لا تكون إلا أخطر من سابقتها.

وهنا، في الجُنينَة، يداً في يد، كان حدث باية أيضاً عن أفراد الجماعات المسلحة الذين يظهرون ويختفون

كأشباحِ أي غابة ليلاً أو نهاراً يقتلون بحقد وينكلون وبعضهم يقيم محفلاً في دم قتلاه من الجنود، وعمّن فيهم هم أيضاً، كما استدرك لها، يحب ويحلم؛ مثل هذا الفتى المسلح الذي كان، وهو ينازع سكرات موته، تلّفظ كهاذٍ أنه ظل يأمل أن يغادر يوماً الجبل والغابة، ويضع السلاح، وينزل ليلتقي رفيق طفولة له فارقه في الثانوية، ويحضن صديقة في الجامعة أحبها، ويؤدي صلاة صبح في مسجد الحي، ويعاود ربط الصلة بالحياة، ويأكل من خبز أمه وكسكسها، ويشرب قهوة بالحليب، وينظر في عين أبيه بهذا الشعور بأنه أظلم في حقه هو قبل غيره من الآخرين الذين يكون تسبب لهم في موت أو جرح أو نُدوب نفسية – "كم هي كثيرة في روحي!" ويلبس كما الناس ويمشي مثلهم، بلا خوف، في هذا الشارع أو تلك الزنقة، يسند ظهره إلى جدار بيتهم يتابع حركة الحياة، كما ماءِ أي وادٍ؛ وادي إيسّر أيضاً، حيث على جانبه كان يُحتَضر، أو نبعٍ كان جلس عند مجراه، ثمة في الغابة، ليشرب أو يغتسل، ويدخل السوق بلا رعب من تفجير في هذا المكان العمومي أو ذاك الآهل بالحياة، ولا ينظر من حوله، خشية رقيب يُجرّمه بالإعدام عن التفكير في التوبة "لماذا؟ ما ذنبهم؟" مشاهد تثير الغثيان والغشية لرؤية أشلاء اللحم البشري وخيوط الدم وشمّ رائحة

احتراق الجلود ونتانة التفسخ في هول فوق رؤع كل نكبة إنسانية لأجساد بلا رؤوس، لرؤوس حُملت على خناجر مغروسة في أحد المحجرين أو في الفم أو أسفل الذقن ثم رميت هنا وهناك، إن لم تكن طرحت أرضاً، وككرة قدمٍ رُكلت فتدحرجت؛ وقد كان شهق بدمعتين، نازف الصدر والبطن للأغيِرة التي تلقاها خلال الاشتباك "يَمّا.. يَمّا، قولوا لها.. سامحيني. اسمها..."، فاتحاً قبضة يده على ورقة كبسها الألم "عنوانها!" وبَخبَح صوتاً، لشاة مذبوحة تلْفظ نفَسها الأخير. ثم سكن، مائل العينين نحو الماء.

ثمة، قال كولونيل الزبربر لنفسه، قبل أن يكررها لباية لاحقاً "هذا المسلح، كان يمكن أن يكون ياسين ابننا". وأمر بأن ينزع عنه نصف لباسه العسكري ويدفن في النصف الأفغاني برائحة مسكه.

فإنه ظل ما وقف على قتيل من المسلحين في لباس عسكري أو شبهه، من الألبسة التي تُسلب من أفراد الجيش أو فرق الدفاع الذاتي أو الحرس البلدي أو الشرطة خلال قتلهم في الكمائن والاشتباكات لتتموّه بها الجماعات المسلحة في إقامة الحواجز المزيفة وفي مداهمة البيوت والمقاهي والمطاعم المعزولة، إلا أمر بتجريده من ذلك اللباس ثم فحَصه؛ فكان لا يعاين غالباً، على السترة كما على السروال، آثارَ خروق

الرصاص فحسب ولكن أيضاً بقعَ الدم المتقادمة. فقد خصص لجمع ذلك كله خزانة وضعها في مكتبه فتحها كلما أضاف إليها لباساً جديداً؛ فاجتاحته كل مرة رائحة جلدين وموتة أو موتتين تتأبّيان على التلاشي.

قبل مغادرته مكتبه نهائياً، محالاً على تقاعد بطلب منه وقد جمع في محفظته أشياءه الشخصية مثل الصور وكمبيوتره المحمول ولكن أيضاً أقراصاً مضغوطة ونسخاً من وثائق من نوع "سري للغاية" ليتحصّن بها من أي مساومة محتملة، كان ذلك منذ حوالي ثلاث سنين خَلَت، استدعى مساعده النقيب مُحند وفتح له الخزانة. كانت تلك الألبسة المستعادة موضّبة، على أدراج، كما ينبغي لها أن تظهر كأنها للتبديل. وإلى أسفل درجٍ دلوٌ بلاستيكي بجنبه لحاف أبيض مده له مطوياً. بإشارة منه، فتحاه بينهما ثم نشراه أرضاً.

لم يكن النقيب مُحند بحاجة لأن يستفسر؛ كان يعلم أن تلك الألبسة من أشياء ميراث قائده الثمينة؛ هو كولونيل الزبربر يعرف تفاصيل العثور عليها، تجريد لابسيها منها بغضبٍ غالباً، حين يتم التعرف، في مسرح العمليات، على أفراد مشهورين من الجماعات المسلحة يرتدونها، وبلا تعبير ظاهر على الوجه، وفي القلب دائماً

والذهن والجوارح وخزُ تذكارات وجوه رفاق قضوا هنا وهناك.

في الجانب الخلفي لمكتبه، قريباً من جدار الثكنة العازل، نطق للنقيب مُحتد "هنا!" وطأطأ ففك عقدة الصرة الكبيرة وأخرج الدلو ومده له، مشيراً إليه نحو كومة الألبسة.

وهو يرمي عود الثقاب، مبتعداً خطوة إلى الخلف، على انبعاث رائحة احتراق البنزين والكتان والعرق والدم وبقايا المسك أيضاً، قال للنقيب مُحتد معصوف الخاطر بوجوه جنوده تتباعث وسط النار "لعلنا ننسى، يا رفيقي!" وصافحه. فأدى له التحية. فبادله إياها وتوجه نحو سيارته الخاصة فسمع من خلفه "الكبار لا يموتون، يا حضرات، يختفون فحسب". كان النقيب مُحتد لا يرى دمعتي كولونيلِه.

عشيةَ ذاك، لم يكن في استقباله غير أمي.

في عتبة باب الدار صفا ذهنه من كدره إلى لحظة أن اقترب من باية واقفة في لباس العروس الأبيض وقدم لها باقة الورد وعلبة قارورة العطر الصغيرة الملفوفة بشريط زهري وقبّلها على جبهتها فتحاضنا.

سحبت شِمالها من وراء ظهرها، ومدت له باقة من القرنفل الزهري والأقحوان الأصفر والأبيض "نسّقتُها بيدي!" لم يكن يحمل غير محفظة جلدية فك قبضته

عنها جانبَ قدمه. كان في بزته العسكرية الميدانية، كما أحبت باية، في لحظات حسمه، أن تراه فيها، بشارات رتبته الأخيرة.

أنا، كان يبهرني بقوامه. يُشعرني بحماية مطلقة.

ضمها. رَمث ساعديها على كتفيه. قبّلها. قبّلته، كما دائماً، بلا تنزيل منه أو ارتكاز صعود منها، بأفضلية عشرة سنتمترات لقامته على قوامها.

قال لها، كما قبل خمس وثلاثين سنة، إذ انفصل عنها إثر قبلة طويلة عميقة ندية بعد عودته النهائية من تِنْدوف.

"– باية غاليتي، كأن يد الله صورت كلاً منا لنكون لبعضنا بعضاً.

– بهذا المقاس المتناسب.

– ما ذا تخبئين لنا هنا، تحت تلك الأوشام؟

– أوه، يا أنت!

– أتمنى أن تكون أنثى.

– أنت حُبّ نادر.

– غاليتي!

– سلامتك.

– أين ياسين؟

– نائم، يعانق رضّاعته".

أخذ بشِماله خصرها؛ خصرَها كلَّه، حاكاً خده على خدها، مصعّداً يمينه بالباقة عبر ظهرها إلى قفاها إلى خدها الأخرى وشمّمها "نعم، هكذا حبّنا، بهذا الشذى. فيك، مثل القرنفل، الولاء والإخلاص"، فحطت، كما فراشة، شفتيها على شفتيه "وكل الجمال والكبرياء لك، عزيزي، أنت أقحوانتي البيضاء".

"هذي بكْري[58] كانت زوجته خسينَه مْشطن:[59]
منها قلْبه اضحى في محنة"

58 من قبل.

59 مهموم.

٣

قبل عام، كان كولونيل الزبربر قابل باية على مائدة العشاء المنصوبة وسط عشب الجنينة. فطبَق الكسكسي بلحم الخروف كان هو آخر ما تناوله من يدها في ذلك المساء، كما آخر شاي حضّره بيده تحت سماء الجزائر الخريفية رصّعا ليلتها بتذكارات حبهما الأول والأخير الباقي، وبصمتِ مدرّع عن محنتهما في ياسين.

"- أرى طاوس هنالك في رقّان، ببسمتها الهاربة، تعاتبني.

- أحسني في الطريق إليها بين غزداية وتيميمون. أراها مثل فراشة في انتظارنا".

يا لَفاجعتي! يؤلمني، الآن، أن أقرأ أيضاً ما كنت سمعته منه، هنا، عبر الهاتف، ما كان عاوده لي وهو يضمني إلى صدره باكية "كنا في طريقنا إلى مدينة البُليدة نحو حمام ملْوان المعدني. لم تتألم!"

هو، كان انسلّ كشعرة عجين من الحادث، وسكتت باية جنْبه، إلى الأبد، بلا جروح، بلا رضوض بادية. إصابة مباشرة من ارتطام رأسها، عند ردّتِه، بالواقية الزجاجية. نزيف دماغي سلس. شيء من الارتخاء، شيء فقط، في عينيها. كان الموت أحرق إشارة التوقف

ليصل سريعاً. لم يكن دوي الاصطدام بين السيارتين قوياً، لكنه كان حاسماً، ساد بعده صمتٌ لبرهةٍ ما أمكن تخيُّل شبح الموت أخذ، على عجل، الروح الجميلة واختفى.

ساعةَ أنْ وقف على قبرها في مرتفع مقبرة "القطّار"، بعد انفضاض جموع المشيعين، ساعتَها فقط، كأنْ فاته أن يستشعر ذلك من قبل، أدرك أنها كانت امرأة مَصُوغة بشكل مذهل؛ لأنوثة ذات أصول أمازيغية ريفية ونفس زكية زاهدة، تقوم بكل ما يمكن لفلاحة أن تؤديه، ومن توثُّب روحها إلى الحياة العصرية، كأنها هي نبعها.

ليلة الأربعينية، باح لي بذلك. أنا، بنشوة غريبة، كنت أغار منها، هي أمي! تلبس وتتعطر وتأكل وتمشي وتتحدث كأرفع ما تكون عليه سيدة مَهيبة المقام. آه حين أتذكر! بشرتها على بشرتي أنفاسها ممتزجة بأنفاسي، قلبها النابض في صدري وضمتها القوية إياي وأنا كقبّرة مصعوقة أرتعد داخل فراشي من نزلة برد أخرجَها من جسدي جسدُها!

عند شاهدتِها كان قمْزع. وجهه لوجهها هي نحو القِبلة، فيما كان النقيب مُحنّد ابتعد ينتظره. شهق. ذرف. وتلا {وألْقيتُ عليك محبةً منّي ولِتُصْنَعَ على عينَيّ}[60]، كما شغَفَه أنْ جوّدتْها له بصوتها العذب الفخم

الندي، في الجُنيِنَة، حيث يجلس الآن، مساءَ أن عانقها في عيد زواجهما الرابع والثلاثين تهدهدهما موجات تذكارات حبهما الأول.

60 قرآن. آية ٣٩. سورة طه.

إذ قام، خال وجهها، ذاك الذي تحسسه بأنامله أول مرة قبل ستة وثلاثين عاماً كما يلمس تحفة خرافية رائعة الصمت والجذب، قد انبثق له هنالك في أفق المغيب "اطمئني في رحلتك بسلام إلى ربك. إني أحببتك، كما كنت لن أحب امرأة أخرى غيرك. كنت تَخطّين بعينيك في عيني تاريخاً لا يستوعبه كتاب حب. ومن شِمالي تأخذينني لأقبض بيميني على أنواري الضالة. ومن شفتيّ ذاك اللهيب يطلب لهيبك؛ وغير ذلك كله نارُ شوقي إليك تصهرني في لحظات بُعدي عنك ووحدتي. فما أعجزني، أمامك، عن الوفاء للغتي!"

وإلى أسفل، بأربعة صفوف من القبور، وقف على شاهدة ياسين "أمك، التي تحبك، استعجلتِ الالتحاق بك. مذ غادرتَ أمست، بنظراتها التائهة، تبحث عنك في زوايا البيت في الحوش في الجُنيِنَة. كنت ألاحظ ذلك أحياناً إذ أدخل الدار متختلاً لأفاجئها. كنت لا أدري أنها تفرز طريقها إليك. كانت تتوقف هنا أو هناك؛ كأنك طيف لا تراه إلا هي يُفلت من إحساسها فتبتسم، كما

في التابوت تسندها طاوس، في الحداد، أشد حزناً. ها هي سافرت إليك. أراك تراها قادمة مجنحة من فوق خلق الحشر لتحضنها".

مساءً، بعد انفضاض المعزين، دخل المكتبة.

كنت أنا وحكيم منشغلين بجمع أواني العشاء.

أخذ من على الطاولة كتاب **حياة الأمير عبد القادر**؛ هو ذاته الذي كانت باية قبل أسبوع قرأت له منه، على ارتخاء ألذّ مما كانت حمّامات المداواة بالماء أن تمنحه إياه، كما أحب أن تفعل كلما تاق إلى استعادة ما كان يأخذ بِلبّه في فترات أوقات فراغه في أكاديمية شرشال من تلك الروايات وكتُب تاريخ الجزائر القديم وأكبر الحروب ومن مذكرات كبار العسكريين والزعماء. إنه يذكر أنه سرح، هذه المرة، على غير العادة، إلى جو صمت قاعة المطالعة، هناك وحيداً في ركن، ظهره إلى باب المدخل غير منشغل بمن ولج أو غادر، وجهُه إلى الحائط؛ حائط كان قرأ عليه في أول يوم له لافتة "صمتاً، للجدران آذان".

بعد أسبوع نزل مرة أخرى إلى المكتبة فأبقى على مصباح الزاوية.

كنت أنا وحكيم غادرنا إلى الجنوب، لاستئناف عملنا، هنا في رقان.

على كرسيه الطويل جلس قرب الكانون المنطفئ. قابلته صورتُه على الطاولة البينية؛ كانت باية هي التي أنزلتها من أحد الرفوف – فقدَ باية في الخريف؛ خريف العام الماضي. ها هو صوتها ينشق له وسط ظلمة ذهنه. كانت تذكرث له "انظر! كنتَ ذلك الفارس العريس". هي، كانت في عباءة العروس تراه، من نافذة حجرتها المطلة على أرض الحقل المدكوكة بالحوافر، يتقدم قوم الخيّالة، مثلَهم في ألبسة تقليدية، يتميز منهم بسزجه الجلدي المذهّب الحواشي على صهوة حصان والده الأدهم وببرنوسه العسلي، معتمراً عمامة صفراء، محتذياً خُفاً جلدياً بُنّياً في ركابين فضيين، حاملاً مُكَحْلة الزويجة التي، خلافاً للعادة، كان ولج بها على عروسه، بعد أن نزعت عنه والدته برنوسه وألبسته بدلَه برنوس جده الأبيض إكراماً للدخلة. فمن النافذة نفسها قبس الطلقتين، فدوّت في أرجاء مزرعة العائلة، هنالك في الحاكمية، مثلَ انبعاث الفرح الكوني الأول، زغاريدُ البهجة؛ بهجة أوسع وأقوى من كل فرح. ثم، مقابلَ عروسه، في لباسها الأبيض، جلس بباقة الورد وقارورة العطر. فلا هو ولا هي؛ لا أحد منهما حينها عرف كيف وجد نفسه مُلتبساً بالآخر في الفراش المعطر لذة ومسكاً وياسميناً.

إلى الأبد، سيبقى كولونيل الزبربر، كما يذكر الآن، لا ينسى أنه رأى أوشاماً على وجوه نساء وفي كواحلهن، في ريف قريتهم وفي بوادٍ كان جابَها خلال حملات التطوع وبعدها في أيام إنشاء السد الأخضر مذ عودته من تِندوف إلى غداة وفاة رئيس الجمهورية الثاني الحزينة شتاءَ ثمانية وسبعين، هي أغصان وسنابل ومربعات أو مثلثات أو صلبان على جبين هذه المرأة أو تلك أو على خديها أو ذقنها أو جيدها أو معصميها وظاهر يديها تعبيراً عن معتقد أو عن ألم، أو تمييزاً لدرجة اجتماعية.

كما أدهشه ذلك، في ليلة الدخلة تلك، على بطن عروسه الأبيض البض الصلب مجسداً بسعفتي نخيل حاضنتين سرتها، إشارةً إلى منبع الخصوبة والحياة، إذ نزع عنها قميجتها فتمددت له بحسيس زوجي الأساور الفضية في معصميها، وشمس وقمر من حناء في كفيها. فراح لذلك، كلما جمعهما الفراش، كما يقول، شعر أنه تحول ماء تدفَّق في تربة كانتها باية بأنفاس الخلْق الأولى قبل أن يمتد الظل فتكون له النقطةَ والهلال والدائرة؛ المركزَ والضوء والمطلق، النارَ والماء، والحبَّ والموت؛ تحت عين الله الجميلة.

لم أكُ يوماً أتوقع أن يكون ذلك ممكناً على منطقة حميمة قبل أن أراه على جسد أمي في حمامنا!

إلى الأبد، سيبقى كولونيل الزبربر، كما يذكر الآن، لا ينسى أنه رأى أوشاماً على وجوه نساء وفي كواحلهن، في ريف قريتهم وفي بوادٍ كان جابَها خلال حملات التطوع وبعدها في أيام إنشاء السد الأخضر مذ عودته من تِندوف إلى غداة وفاة رئيس الجمهورية الثاني الحزينة شتاءَ ثمانية وسبعين، هي أغصان وسنابل ومربعات أو مثلثات أو صلبان على جبين هذه المرأة أو تلك أو على خديها أو ذقنها أو جيدها أو معصميها وظاهر يديها تعبيراً عن معتقد أو عن ألم، أو تمييزاً لدرجة اجتماعية.

كما أدهشه ذلك، في ليلة الدخلة تلك، على بطن عروسه الأبيض البض الصلب مجسداً بسعفتي نخيل حاضنتين سرتها، إشارةً إلى منبع الخصوبة والحياة، إذ نزع عنها قميجتها فتمددت له بحسيس زوجي الأساور الفضية في معصميها، وشمس وقمر من حناء في كفيها. فراح لذلك، كلما جمعهما الفراش، كما يقول، شعر أنه تحول ماء تدفّق في تربة كانتها باية بأنفاس الخلْق الأولى قبل أن يمتد الظل فتكون له النقطةَ والهلال والدائرة؛ المركزَ والضوء والمطلق، النارَ والماء، والحبَّ والموت؛ تحت عين الله الجميلة.

لم أكُ يوماً أتوقع أن يكون ذلك ممكناً على منطقة حميمة قبل أن أراه على جسد أمي في حمامنا!

لكنْ ها شعور بطعم الندم يعاوده على أنه لم يسأل باية يوماً عن اليد التي وخزتها، بأي إبرة، ولا عن المادة الصبغية. إنه يذكر أنه ليلةَ أن همس لها أن مزيج الوشم يكون من فحم ودم، مستبعداً لها الماء، وشوشت له أنه ليته كان من بكارتها. فضمها وبين شفتيها هَمْهم لها "كان قد يكفي لوشمِ غصن آخر على نهدك هذا".

لعله لذا ينتحب الآن مثل طفل كانَه، وهو لا يتذكر أنه بكى. ينتحب، لا أسفاً؛ شعوراً فحسب بضياع حب ما كان له لأن ينتهي فاجعاً "باية، حَبثك عناية الله أنْ أخذَك إلى ملكوته. رأيتك تعبُرين صراطك، بلا حزن. أولئك كانوا ملائكة في استقبالك. سمعت أصواتهم: هذه واحدة ممن صورتَ فأحسنتَ. كانت تحبك لذلك".

طعم دمعي مالح، أكثر!

إنه في الجنينة. يزفر عميقاً ويشهق؛ فغداً سيصبح مضطراً إلى البدء في لملمة كل هذا الشتات؛ شتات، يقول إنه كثيراً ما أيامُه تُفلت منه صورُها، تغيم، تتلاشى ثم، تعود متداخلة كثيفة غزيرة، عاصفة، نائية في عمق السنين؛ سِنِي الفرح والحلم والخطر والموت والفقد والضياع والانكسار، جَموحاً عن أن تغقلها الكلمات.

"بغد الهمّة والظفرة مسيث اغظام ماكانت مولاتك شايعة مغلومة"

٤

ونهايةً!

لم أتصور، إني أسترجع في صمتي، أن أكون أيضاً حفيدةً لجدٍّ بتلك الشمائل من الشجاعة الميدانية غير الخارقة ولكن العامرة إنسانية استثنائية ومن السخاء الكتوم والعفة الآسرة وهذه القدرة الصلبة على الصمت.

وها إني، أفك راحتيَ عن وجهي جالسة الآن إلى طاولة المطبخ منتزعة عينيَ من كأس الشاي هذا أمامي، أصغي إلى صوتي العميق أني إن كنت في مراحل طفولتي، لفضولي المشاغب، لملمث كما في لعبة صبر قطعاً من حياة جدي مولاي، فإنما من تلك الصور القليلة بالأسود والأبيض التي كانت في حوزة جدتي رقية في أطر داخلَ غرفة نومها هنالك في دار الآباء في ريف الحاكمية، واستعدتها من والدي في عطلتي الماضية؛ فها هي الآن تزين الجدران، إلى جانب صوره وصور والدتي وشقيقي ياسين، في حجرة النوم وفي الصالة، من حول تلك الراية، التي طالما زينت حائط عمتي ملوكة، وفي المكتبة الصغيرة في المطبخ وفي الرواق.

إني أقوم. ها جدي مولاي يظهر في واحدة نصفية طفلاً أخذت له لبطاقة دخوله المدرسة الابتدائية الفرنسية. وفي ثانية في بزة جنود جيش التحرير بقبعة ضابط ومسدس في الحزام تُبَتت للتذكار؛ من خلفها كان يظهر سلاحه الآخر. وثالثة في برنوسه على جواد بسلاح الزويجة. ورابعة "يا لَهذه الرابعة!" في كوشتاز وكْرافتة جنب جدتي رقية في قفطان وحزام من قطع ذهبية – في ذكرى وفاتها القادمة سأخرج مرة أخرى من صندوق مجوهراتي البسيطة وأتحزم به أمام المرآة.

أُحسّني حوّمت إلى تلك الديار في ذاك الزمن. إني أبتسم لوجه جدي الهادئ "سيد الرجال في المروءة والصمت!" كأن باية أمي الآن خلف ظهري تعيدها لي عنه؛ كأن العمة ملوكة تهمسها لي مرة أخرى "يِحبَّك، يِحبّاااك!" وفحسب؛ فوالدي لم يكلمني عن جدي إلا نادراً. وأنا لم أكن ملحاحة تجاهه. كنت دائمة الأمل أن أقترب منه يوماً بأن أطيل، مثل شقيقي ياسين، مكوثي في البيت العائلي الريفي هنالك في الحاكمية. وظللت على انتظار أن يزورنا جدي كثيراً ويطيل البقاء في الدار، يملأ عنا الفراغات التي يتركها الوالد لمهماته الكثيرة، لغيباته الطويلة!

أكتفي بأن أرتضي أن يكون قوام والدي، واقفة الآن أمام صورته في الرواق، ببزته الرسمية وشارات رتبته، دليليَ إلى جدي قبل أن ينزع عنه لباس جندي التحرير ليرتدي لباس المدنية فبدا فيه أنيقاً؛ ذاك التقليدي الفاتن بأصالته أو هذا العصري المخِيط على المقاس، سواءً، كما رأيته فيه أيضاً آخرة مرة لدى قضائه ليلة واحدة في بيتنا خلال خضوعه لفحوصه الطبية الأخيرة.

إن أنا أسلّم بأن الوالد – كولونيل الزبربر كان يتجنب أن يمتدح لي شخصاً، ولو كان أباه، يعني جدي بزقزة، فإني وطّنت ثقتي في أنه كان يعتمد على حدسي المتوتر. لعل في صمته هو أيضاً، عن أفعاله العسكرية التي يَعدّها من واجباته، إشارةً لي إلى أني إن كنت سأفخر به فإنما بكوني ابنة مواطن أنجز واجبه فحسب، ولا شيء غير ذلك. فكل مصاريف مساري الدراسي، مثلْي مثل شقيقي ياسين – يا لَحزني عليك يا خويا! كانت من جيبه؛ إني أقول من جلده. فلطالما عاينت أن زميلاتي وزملائي لم يكونوا ليصدقوا بساطة البيت وما كنت ألبسه وأتحلى به يوم زفافي. وكذلك كانت مراسم جنازة والدتي، ومن قبلها جنازة شقيقي ياسين، من أبسط ما يكون ومن أشد الأوقات حميمية.

فها أنا أقف أمام تلك التذكارات، بالروعة نفسها والحنين والوجع.

أمرر بأناملي على حافة إطار إحدى صور الوالد – كولونيل الزبربر الميدانية المقصوصة من "مجلة لجيش" في لهيب اشتباك مسلح "إنه عالَمك. لم تقاسم أحداً إياه!" عالمٌ ما فتئت أعيد في ذهني صياغة مركّباته من حديثه المقتضب دوماً خلال لحظات جلساتنا العائلية النادرة ومن إسناد والدتي إياي كلما حسّتني، بقلب الأم، أن بي حنيناً إليه، لأنه أطال غيبته و هو بدا مهموماً متعباً أو خرج من البيت أو دخله في وقات نومي.

أمي في هذه الصورة تدهشني؛ نسخة من تلك التي لا تزال في مكتبة والدي. أتبسم لها، بدمعة "ولكن لماذا هذه الغيرة منك، حدَّ الأنانية، حتى أكون أنا أنتِ في ذاك العمر. ماما باية، ما أعذبك أيضا!"

أذكر كم كانت يوميات والدي المهنية، مثلَ كل قيادات العسكريين المعيّنين في ميدان العمليات الأكثر سخونة، تسكنني بالرعب لِما كنت أتصوره مما أقرأه من لصحف ومن تقارير مواقع النت، فأنتظر مهمومة أن ينعى إلينا، كما ياسين شقيقي، إلى أن يظهر في البيت، فيتلاشى عني جزعي، أو يرد على مكالماتي أحياناً فأستعيد الأمل.

يومياتٌ، هي التي كانت، مثلما أسوّغ لنفسي الآن، ستشغله عن أن يجيبني عن أسئلتي الأخرى حول أجدادي الآخرين لأمي وعن بقية جذوري؛ وقد تخيلته وجد لي كل مرة ذريعة ليشعرني أنه سيفعل ذلك ذات يوم، قبل مغادرته هذه الدنيا. وها أنا تهزني رعدةُ أنه كان يواجه الموت بصدره. كان سيُقتَل في أي لحظة.

بعد لحظات، هنا في السرير، سأتخلص من سؤالي لحكيم زوجي: ألذلك كُتبت للوالد سلامة العفر فعاد إلى أكاديمية شزشال نفسها ووقف على المصطبة ذاتها، ولكن المزينة بباقة ورد ضخمة، حيث كان استمع كطالب للأستاذ النقيب بدري قبل حوالي أربعة عقود، في المدرج نفسه، فتكلم مثله ولكن برتبة أخرى وتجربة مختلفة؟

يومها، كنت تابعت، مثل غيري ممن امتلأت بهم القاعة من طلاب الكلية الجدد، بتأثر جياش، بانفعال مُذمِع، بفخر أحسسته جرى في دمي عزةً، ضاغطة أصابع حكيم في كفي، وقد فتحت هاتفي النقال في وضعية تسجيل، سارحة على بساط كلمات كولونيل الزبربر الهادئة تنقبس في عيون الطلاب شعاعات وعلى ملامحهم عزة. كنت أرى ذلك بين حين وحين إذ أميل نظري إلى الشاشة العملاقة المقابلة.

ها هو ثمةً، في لباسه المدني، بثبات ضابط عنيد، ولكن بقلب والد مجروح، وبصوت يذرّي أيضاً قشعريرة الرهبة يقول "نَعم! فخرٌ لي أن قدري شاء، في نهايات مساري، أن أكون من بين الذين تحملوا واجب حماية الدولة من الانهيار. دولة بناها أجدادكم من دمهم ولحمهم. إني أذكر كثيراً من الرفاق الذين كانوا مثلكم يوما جالسين هنا حيث تجلسون ولم يعودوا من هذا الوجود. غادروا إلى الأبد. ماتوا أو قتلوا. كانوا يحملون في قلوبهم لهيب حب لا يذوي لهذه الأرض. إني أعرف آخرين لا يزالون بالعزيمة نفسها، بالإصرار، بالتحدي، في مواقعهم، في البر في الجو في البحر. إنهم هم الساهرون على أمن الوطن. عزةٌ لكم أن تكونوا من سلالة تاكفاريناس والأمير عبد القادر وبن مهيدي وأمثالهم من رجال هذه الأمّة. إنهم جميعاً أبناء شعب صنع تاريخاً عظيماً بتضحياته من أجل الحرية والسلام. مثلَهم ستكونون في الوفاء والشهادة. ومثلَهم ستخلُدون أوسمةً مشعة في ذاكرة الأجيال".

كنت همست لحكيم، ونحن نغادر خلف الوالد – كولونيل الزبربر "لن أنسى، أبداً، لحظة الصمت التي أعقبت نهاية كلمته".

ها عباراته الأخيرة نفسُها تتموج الآن في ذهني مدى ما بين رقّان هنا وأكاديمية شرشال هنالك "كونوا أنتم.

كونوا، لهذه الأرض، هؤلاء الرجالَ الذين يحفظون الشرف"، قبل أن ترتفع صفقة كفَين لتلتهب القاعة كلها وُقوفاً.

"هذا وظنك ولّا جيت برّاني ها كبير المحنة لله جاوبني"

أدرار – وهران – سعيدة ٢٠١٤

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

في الرابعة والثلاثين من عمرها، تكتشف طاوس الحضري حياة جدها مولاي الحضري المكنّى بوزقزة والضابط السابق في صفوف جيش التحرير الوطني الجزائري خلال حرب التحرير. كان جدها قد غادر الجندية والسياسة، عقب الاستقلال، احتجاجاً على إعدام أصغر ضابط برتبة عقيد في صفوف جيش التحرير بتهمة الخيانة والانفصالية، وترك لنجله جلال الحضري، المكنّى كولونيل الزبربر، كراسةً سجّل فيها يومياته المطبوعة بشراسة الحرب وفظاعة الموت ومشاهد التعذيب والإعدامات بالسلاح الأبيض والتصفيات الفردية والجماعية، مرفقةً بشهادة من طبيب جزائري يسرد فيها وقائع من الحرب داخل الجزائر العاصمة.

إنها قصة الانكسار الذي بدأ غداة الاستقلال واستمر حتى الآن.

نبذة عن المؤلف

الحبيب السائح كاتب وروائي جزائري. ينشر في العديد من الصحف الجزائرية والعربية.